يقظة الروح

مفاهيم أولية عن حقائق الصحوة الروحية

الجزء الثالث

عبدالرسول محمد الزاهد

يقظة الروح

الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
alab3ad@hotmail.com

يقظة الروح

مفاهيم أولية عن حقائق الصحوة الروحية

الجزء الثالث

بقلم:

عبد الرسول محمد الزاهد

الطبعة الأولى 2021

الإهـداء

إلى أصل الأصول، وسر القبول، وباب الوصول، سيدنا وحبيبنا محمد أكرم نبي وأعظم رسول ذو الجاه والقبول والمدد الذي لا يزول..

إلى أهل بيته الذين حيروا أولي الألباب والعقول، وأصحابه النجباء الأصفياء أولي المكرمة والطول..

إلى أرواح الأنبياء والأولياء والصديقين والشهداء والملائكة الذين لا يسبقونه بالقول..

إلى الأرواح المرشدة الهادية التي كان عطاؤها للعالمين موصول..

إلى روح والدي جناحاي من الدنيا..

إلى روح روحي وثمرة فؤادي ولدي هاشم..

إلى الأرواح المتعطشة لليقظة الروحية.. وإلى العقول الباحثة عن الحقيقة..

أهدي هذا العمل المتواضع سائلاً المولى عز جل أن يتقبله بقبوله الحسن إنه ولي التوفيق..

المقدمة

منذ أن وعى الإنسان وجوده وهو دائم البحث.. ولكن عن ماذا؟

لعل أهم ما يسعى للبحث عنه أمران يشكلان مفصل الحياة بالنسبة له.. أمر يحاول التخلص منه، وهو الألم والمعاناة والعوز والفاقة. وأمر يحاول الحصول عليه، وهو تحقيق السعادة التامة والدائمة في حياته. وبالتالي فإن كل حركته في الحياة وسعيه ينصب في هذين الهدفين: في التخلص من الألم وتحقيق السعادة.

فطرته قادته لهذا البحث.. فهناك شيء ما بأعماقه يدفعه لتحقيق هذين الهدفين، ولكنه وقع في شرك الجهل القاصر والوعي الجمعي والتقليد الأعمى والنفس حين اقتصر بحثه عنهما في الجانب المادي فقط.

لقد فكر وقدر.. ثم نظر.. ثم عبس وبسر.. ثم أدبر واستكبر، فقاده استكباره للتخلص من الألم والمعاناة باستغلال خيرات الطبيعة ونهب ثرواتها، والاستيلاء على مقدراتها وأراضيها بسلطان القوة والبطش ليشعر بالأمان والاستقرار. وحين رأى أن الأنا الجمعية أكثر أماناً ومنعة قام بتشكيل وإنشاء الجماعات والأحزاب التي تحولت فيما بعد إلى أوثان بشرية يكفر بعضها بعضاً ويستحل بعضها دماء البعض الآخر، فالتكتلات تشعره بالأمان والغلبة والتفوق وبالتالي إمكانية البقاء أطول فترة ممكنة في الحياة.

أما فيما يتعلق ببحثه عن السعادة فقد اتجه لإشباع رغباته المادية وشهواته الجسمانية فأضحى اكتناز الثروة ديدنه والشهوة قبلته والمكانة الاجتماعية من أهم أولوياته، فانصب اهتمامه على تحقيق ذاته ولو كان على حساب الآخرين وسعادتهم.

لقد خرج أبونا آدم من عصره الذهبي بسبب مشورة حملت بين طياتها خبث الجهل الشيطاني المركب حين قال: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ وهما المحوران اللذان يدور في فلكهما الإنسان، فالخلد يعني التخلص من الموت وما يعقبه من معاناة وآلام.. والملك حيث التنعم بصنوف الرفاهية والرغد والسلطة والسعادة دائمة.

كانت مشورة إبليس تمثل "كلمة حق يراد بها باطل" فالبحث عن السعادة والخلود مطلب فطري في الإنسان، ولكنه توهم حين بدأ يبحث عنهما في البعد المادي فقط. وهذا ما سبب هبوط آدم وزوجه من الجنة.. كما أنه سبب هبوط البشرية التي لم تستوعب الدرس من رموز قصة أبينا آدم إلى يومنا هذا، وهو سبب كل الخلافات الدينية والمذهبية والطائفية على مر العصور، وهو سبب كل شقاء وألم تعيشه الإنسانية اليوم..

البحث عن السعادة أمر فطري في الإنسان.. ولكن حين يتم البحث عنها في المتع والممتلكات والأشخاص والظروف الخارجية والتزعم والقيادة والأدوار والوجاهة والأقنعة المزيفة.. فلن يحصل إلا على شقاء وبؤس يعقبه هبوط لا محالة.

كما أن الابتعاد عن الألم والمعاناة أمر فطري كذلك لأن كثيراً من صور الشقاء التي نخلقها في حياتنا تسبب عثرات كأداء في مسيرتنا التطورية الروحية، إلا أن تجنبنا للمعاناة لا ينبغي أن يوقعنا في معاناة أشد منها فتذهب بنا بعيداً عن أهدافنا الحقيقية.

الناس يبحثون.. أجل يبحثون بكل ما أوتوا من قوة لكنهم غير قادرين على العثور على ما يبحثون، وكلما ازدادوا بحثاً كلما

ازدادت معاناتهم واستياءهم وقنوطهم، لأنهم لا يبحثون عن ضالتهم في المكان الصحيح.

لذلك يرى البعض واقعنا اليوم مخيب للآمال، محبط للعزيمة، مثبط للهمة، ماحق للأهداف الإنسانية، واقع متخبط يكتنفه الغموض والاضطراب من كل حدب وصوب.. واقع تشوه فيه الحقائق، منغمس حتى النخاع في الماديات وهوس التقنيات.. واقع أصبح فيه المعروف منكراً والمنكر فيه معروفاً. مما أفرز مخرجات وآثار سلبية احتجزت كثيراً من النفوس والأرواح التي تشربت برذاذ الفكر الموبوء الملوث منذ عقود من الزمن، مما يجعل حالة السمو الروحي والترقي صعبة المنال عند كثير من الناس.

إلا أن المشكلة الحقيقية لا ترتبط باضطراب الواقع من حولنا بقدر ما تكمن في النفوس التي فقدت الإيمان بذاتها والثقة بتجربتها الروحية الفردية نتيجة للمعاول الكثيرة التي حاولت كسر منابع الهمة الباطنية والداخلية منذ أمد بعيد. فمشكلتنا تكمن في داخلنا، في عمقنا، وفي نظرتنا لمعادلات الحياة.

وبالتالي لا ينبغي أن يكون الواقع - بما يتمخض عنه من تشويش واضطراب وإرباك - مبرراً لتقاعسنا وتكاسلنا عن فهم حقيقة ذواتنا وهدفها من الحياة الأرضية.

فمنذ زمن بعيد تخلى كثير من الناس عن ثقتهم بأنفسهم ككائنات روحية ملهمة منحها الله إمكانيات المعرفة والكشف عن الحقيقة، وهذا التخلي طمس جوهر التجربة الروحية التي جعلها الله من أهم مميزات هذا الكائن الفريد..

مأزق البشرية اليوم ليس في دراما الأحداث المأساوية فقط، ولكن في الفراغ الروحي الذي سبب خللاً في منظومة الوعي البشري.

الناس يبحثون.. أجل هم يبحثون.. ولكنهم يبحثون عن السعادة والخلود خارج أنفسهم.. لأنهم لا يدركون أن ثمة عالمٌ آخرٌ في الداخل هو الأولى في البحث.. العالم الذي نجد فيه حقيقة الخلود والملك الحقيقيين من خلال تجربتنا الروحية.

لقد علمونا كيف نبحث، نسيطر، نقود، نتعلم، نخطط لتكون حياتنا نافعة ومجدية.. ولكنهم لم يعلمونا كيف نكون واعين لحقيقة نفوسنا وأرواحنا، لم يعلمونا ضرورة أن نتساءل عن حقيقة وجودنا الأرضي وما هو مستودع بأعماقنا، لم يعلمونا كيف نبحث في الداخل؟ كيف نكون ملهمين؟ كيف نتطور روحياً؟ كيف ندرك حقيقة أرواحنا؟ كيف نتعرف على ذاكرتنا الأزلية.. لتكون آخرتنا مجدية؟.

قد تحوي ذاكرتنا ملايين المعلومات التي اكتسبناها من الخارج، ولكننا لا نفقه شيئاً عن مكوناتنا الداخلية، لا نعلم ما يوجد بالداخل، حتى أننا لا نعرف كيف نتعامل مع عواطفنا ومشاعرنا الداخلية التي قيدناها بأغلال برمجة الوعي الجمعي الخارجي، فأصبح داخلنا انعكاس للصخب والضوضاء في الخارج، فباتت عقولنا صاخبة مشوشة مضطربة كالعالم الخارجي، في حين أن أعمق الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها إلا بالصمت والتأمل.

ما فائدة ما نتعلمه إن لم نخض تجربتنا الروحية بأنفسنا.. قراءتك لعشرات الكتب عن السباحة لا تجعل منك سباحاً ماهراً ما لم تلق بنفسك في الماء وتختبر تجربة العوم.. نحن بأمس الحاجة لإلقاء أنفسنا في الماء، أن نختبر حقيقة التجربة الروحية، لا يكفي أن ننظر إليها من بعيد، أو نقرأ عنها على استحياء، بل ينبغي أن نوجه بوصلة قلوبنا لتهدينا سبل السلام حيث الأمن والأمان.

لا يتبادر إلى ذهنك أن الرحلة الروحية أو اليقظة الروحية تثقلك بالمزيد من المعتقدات والعقائد والآراء، بل على العكس فهي تخلصك من العديد منها ومن المفاهيم الزائفة التي علقت بفكرك وأخذت حيزاً كبيراً من مساحة وعيك وعقلك وتفكيرك. اليقظة تمنحك بصيرة لرؤية الحقائق على طبيعتها.

لقد أصبح الوعي الروحي متاحاً للجميع وبمقدورنا أن نتعلم منه الكثير عن كيفية السباحة في هذا المحيط.. فَلِم الانتظار؟

ومن هنا كان هدفنا من كتابة هذا العمل المتواضع الذي نسأل الله العلي القدير أن يتقبله بقبوله الحسن أن يكون بذرة تنبت في قلوب المتشوقين، وإشراقة يبصر من خلالها المحبون، ويقظة يتنعم بها المريدون، وإثارة يجتهد لإكمالها وإتمامها المجتهدون.

كان بحثنا في الجزء الأول إشارة إلى بعض مبادئ الصحوة الروحية وما يتعلق بها من مفاهيم، كما تناولنا في الجزء الثاني ثلاثة روافد عن البعد العملي لليقظة فيما يتعلق بيقظة العبادات ويقظة الواقع ويقظة التأملات، وسنكمل في هذا الجزء ما بدأناه من مواضيع تتعلق بوهم التملك واضطراب المشاعر واستكملنا بعض الأفكار عن التأمل والصمت وعن حقيقة الابتلاءات والموت وجملة من المواضيع الأخرى.

لله عز وجل خطة - إن صح التعبير - عظيمة للجنس البشري، لذلك لن يتركنا في غياهب الجهل المركب والتخلف السطحي والتقليد الأعمى، هو يريد انتشالنا لأن هناك عملاً آخر ينبغي أن نقوم به ضمن الخطة العظيمة للكون.. لن يدعنا نفقد الصلة بالسماء وننسى حقيقتنا الروحية.. سيمد لنا يد المساعدة والعون وسوف ينتشلنا من التثاقل المادي الذي ألصقنا بالأرض.

ما أود الإشارة إليه في ختام هذه المقدمة، أن الله لم يخلقنا في هذه الحياة لإدارة شئون حياتنا المادية فقط، إنما نحن

مسئولون عن عالمين في الوقت ذاته، العالم الروحي المنغمسين فيه - والذي تم تجاهله - والعالم المادي المعيشي - الذي انكببنا عليه - نأخذ من هذا لذاك، ونرتقي من خلال ذاك لهذا.. واليقظة الحقيقية حين ندرك سر العالمين في آن واحد.

ينجح كثيرون في تحصيل ما يبحثون عنه، من ثروة، جاه، منصب، علم، قيادة، وجاهة.. وما أشبه.. ولكني رأيت أمثال هؤلاء الناجحين يلتمسون النور والمحبة والراحة والسكينة عند رجل أمي بسيط يقومون إجلالاً وتقديراً له لسبب بسيط أنه اقترب في الوصول إلى ما كان يبحث عنه.. ولكن ليس في الخارج وإنما في الداخل، فأشرق قلبه بنور اليقين وذاق طعم حلاوة الأنس، وانفرجت أسارير النفس، بعد أن تمرد وانعتق من سلطان الحس، وتخلص من أغلال الحبس.

كلمة في.. التأمل

من أكثر الأسئلة شيوعاً في موضوع التأمل:

1- لماذا لا ينفعنا التأمل حين نمارسه فلا نستشعر آثاره التي نسمع عنها من رفع لمستويات الوعي وتقوية للبصيرة؟

2- أما السؤال الآخر: فقد وصف الله العقل بأرقى أوصاف الكمال، ونعته بأجمل نعوت التمام، وهو إحدى الملكات الروحية "النعيم" التي سنسأل عنها بعد الموت كما بينا سابقاً.. فإذا كانت له هذه الأهمية فلماذا يتطلب تحجيمه وإسكاته أثناء التأمل؟

ولنبدأ بإجابة السؤال الأول..

من أهم الأمور التي ينبغي معرفتها عن التأمل.. أن التأمل الحقيقي يكون نتيجة لمقدمات كثيرة، فليس كل من يتقن جلسة التأمل ويحقق مستلزماتها العملية يكون متأملاً، كما أن ليس كل من يصلي يكون قد أقام الصلاة، أو كل من رفع يده للدعاء يكون أواها منيباً.

طرق ومناهج التأمل قد يتقنها الكثيرون، ولكن حقيقة التأمل لا يصل إليها إلا القلة القليلة، ولذلك كل من يتساءل عن تأخر آثار التأمل، أو فوائده العميقة هو لا يزال في الإطار الشكلي له، لم يزل في القشور ولم يتعمق في الداخل.

قد تفيدنا جلسات التأمل في الراحة النفسية، والاسترخاء الجسدي، وتنظيف الباطن من بعض التشويش الفكري، ولكن

ليس هذا ما يرنو إليه التأمل الروحي. فالصلاة تزودنا براحة نفسية، ومرونة في الأعضاء الجسدية، ولكن لم تشرع الصلاة لأجل ذلك، لقد شرعت لهدف أسمى بكثير، وهو الصلة مع الله سبحانه وتعالى.

لذا نحن لا نتأمل لكي نتعلم كيف نوقف شوشرة الأفكار المتلاطمة، بل يجب أن نتقن هذا الفن قبل التأمل..

ولا ندخل التأمل لكي نشعر بارتياح نفسي، بل ينبغي أن تهدأ كل أعاصير المشاعر قبل أن نبدأ التأمل..

لا نرتجي من التأمل أن يغير من سلوكياتنا ويجعلها تتسم بالهدوء والطمأنينة والرزانة، بل ينبغي أن نحقق هذه الأمور في أنفسنا قبل ممارسة التأمل..

لا ندخل التأمل منتظرين منه أن يحول الأحقاد في قلوبنا إلى ينابيع من الحب والمودة، بل يجب أن نحولها إلى هذه الينابيع قبل أن نغمض أعيننا أثناء التأمل، وإلا فسوف تزعجنا آلاف الصور والسيناريوهات التي تحوم حول رؤوسنا لا تنفك عنا مهما طالت فترة التأمل..

إذا اعتبرنا أن التأمل تقنية للراحة المؤقتة والأمان النفسي فبمقدورنا أن نمارسه بأي شكل من الأشكال، أما لو اعتبرناه عملاً مقدساً يقربنا من الله فينبغي إلا ندخله إلا بمقدمات روحية عميقة وقوية ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾..

لذا من الطبيعي ألا نحصل على نتائج التأمل ما دمنا نمارسه بقلوب لاهية وأفكار مشوشة وأذهان منشغلة، ومن ثم نتوقع أن يزودنا بالبصيرة أو يرفع من مستوى وعينا. صحيح من الممكن الحصول على نتائج وقتية مفيدة ولكنها بعيده عن معطيات التأمل الحقيقية.

لذا ينبغي في أي عمل روحي أردنا تحقيقه، أن نتخلى عن كل ما من شأنه أن يحدث تضاداً مع سلامنا وسكوننا الداخلي. قبل أن تتأمل ينبغي أن تنسى كل شيء، تنسى مشاكلك وهمومك ومشاغلك، تتخلص من جميع أفكارك المشتتة، يلمع قلبك صفاءً كاللجين، ووعيك متقداً كنجم ساطع، فلا يمكن بلوغ الوعي السماوي ما دام هناك ارتعاش فكري صغير أو موجة قلق عقلي طفيفة..

فهذا التضاد أو التعارض من شأنه أن يخلق توتراً عميقاً في مستويات الوعي قد لا نشعر به حينها ولكنه يظهر في أشكال أخرى مع الزمن.

كثيرون يمارسون التأمل.. ولكنهم غير متأملين.. اقترب من أحدهم وستجد بوناً شاسعاً بين سلوكياته الحياتية وبين معطيات التأمل الروحية. يدعو الآخرين للتأمل ولكنه غير متأمل على الحقيقة، يُدرّب الناس على التأمل كتقنية وهو يجهل أغواره العميقة. "ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، فما كل مصل مقيم".

المتأمل الحقيقي لا يختلف تفكيره وسلوكه وفعله ونبرات صوته أثناء جلسة التأمل وخارجها، قبلها وبعدها.. فالتأمل لا ينحصر في (جلسة التأمل) وإنما هو ممارسة حياتية، وطريقة وأسلوب حياة. فالمؤمن لا يتعلق بالله أثناء صلاته ويتركه ما دون ذلك، بل ينبغي أن يكون الله نصب عينيه في كل حركة وسلوك يقوم به، وكذلك هو التأمل.

لكي نصل إلى حقيقة التأمل ينبغي أن نمارس فعل الإنسانية في حياتنا، ونعرف كيف نسيطر على مشاعرنا وأفكارنا، وكيف نقوي صلتنا بعالم الغيب والشهادة. أن نقترب من الله ونعرفه لا أن نعرف عنه فقط، فملامسة العالم الروحي تبدأ من المعرفة

التي أولها معرفة الجبّار، وآخرها تفويض الأمر إليه، عندها يتحول التأمل إلى حياة كاملة نعيشها بكل متعتها الروحية وآثارها المعنوية.

تذوق التأمل

"لو ذاق الإنسان حلاوة الخلوة لاستوحش من نفسه"

قبل أن نتطرق إلى تفاصيل التأمل دعونا نأخذ مثالا بسيطاً يقرب الصورة أكثر للفهم فيما يتعلق بكلمة التذوق. حين يرى الواحد منا حلما أو طيفاً أو رؤية صادقة ومن مستويات عالية، أي لا يكون حلما رمزيا أو أضغاث أحلام، بل رؤية روحية كأن يرى نفسه في الجنة أو في حضرة النبي (ﷺ) أو مع أولياء الله، أو يشهد حدثاً مهما في عالم الروح..

حين يستيقظ فجأة.. أو يوقظه أحد ما فإنه يتضايق بشدة وينزعج، لأنه للتو كان في عالم روحي في غاية الروعة والجمال، للتو كان في حضرة النبي (ﷺ) يشعر وكأن شيئاً اقتلعه من عالم جميل وألقى به في عالم المادة،

حتى أن البعض يحاول أو يعيد الكرة فيستلقي لينام لعل الرؤية تراوده مرة أخرى ويكمل ما رآه..

يحدث هذا الأمر بصورة مماثلة أثناء الخلوة والتأمل، حين يختلي الإنسان بربه يتذوق طعم الصمت والسكون والهدوء، يشعر بحالة انجذاب روحية قوية تشعره بالأنس والصفاء والطمأنينة، وحين تنتهي هذه الحالة سواء بإرادته أو بشكل مفاجئ، فإنه يتضايق وينزعج ويستوحش من كل شيء مادي يراه لأنه انتقل من حال إلى حال آخر.

حين تكون في حالة تأمل واستغراق ولكن فجأة تبدأ الأفكار الدخيلة تحلق في سماء فكرك، تشعر بضيق وانزعاج خصوصاً

في المراحل الأولى، بعد ذلك تتعلم كيف تتصرف مع هذه الأفكار، تنزعج لأنك تتحول من حالة إلى أخرى..

حين نتكلم عن النفس هنا فنحن نتكلم عن التشتت الفكري والمشاعري أو فيما يتعلق بالرغبات، فالنفس هي من ينقلك إلى الحالة الأولى التي تسبب لك هذا الازعاج، هي التي توقظك من الرؤية الجميلة التي كنت فيها.

فأية حالة تخرجك من التأمل أو الخلوة يكون مصدرها النفس لأنها لا تريد لك الاستمرار.. تخشى النفس أن تكون نهايتها في هذه الخلوة لذلك فهي تحاول أن تعكر صفوة خلوتك بأية طريقة كانت. تريد أن ترجعك إلى حلبة الصراع الدنيوية والتفكير المستمر وتجاذب أطراف الحديث مع الآخرين، فحياة النفس تعتمد على الحركة المستمرة المضطربة المشبعة بنوازع الرغبات والأمنيات، وحين تنطفئ هذه الأمور أو تتوقف أثناء التأمل، تشعر بالاختناق والكبت وتبدأ في التذمر إلى أن ترجع إلى حالتنا الطبيعية.

الإنسان الذي يعيش التأمل أو الخلوة مع حضور نفسه أو أناه لا يشعر بحلاوتها ولا يتذوق طعمها، لأن اهتمامه يكون متوجها لما تمليه عليه نفسه أو فكره حينها. قد يشعر لبرهة ويتذوق طعمها، ولكن بمجرد أن تبدأ النفس بتسليط واردات الأفكار عليه تخرجه من هذه اللذة. وهذا لا ينطبق على الخلوة والتأمل فحسب، بل ينطبق على كل أعمالنا العبادية..

محمد الغزالي العالم المعروف وبخ ذات يوم أخاه الأصغر أحمد قائلا له: "يأتي الناس من كل بقاع الأرض لكي يؤدوا الصلاة خلفي، معتبرين أن هذا من أعمال الخير في الدنيا وزاد لهم في الآخرة، وأنت على الرغم أنك أخي وتعيش معي، ترفض أن تصلي خلفي، لماذا؟".. فأجاب أحمد: "إذا صليت صلاة كما ينبغي أن تكون فسوف أصلي خلفك".. واتفقا على هذا الأمر..

عند الظهيرة قام محمد الغزالي لأداء صلاة الظهر ولكن في منتصفها، انفصل أحمد عنه وابتعد، متابعاً أداء صلاته في ركن آخر من المسجد..

بعد أن أنهى الإمام صلاته، جاء إلى أحمد وانتقده على فعلته.. فرد أحمد: "أنا مخلص لما وعدتك به، وقد صليت خلفك وتبعتك إلى أن ذهبت إلى الحظيرة كي تسقي الجمل ماء، وعندها لم يكن باستطاعتي أن أتابعك بعد ذلك لأنني أريد أن أكمل صلاتي"، حينها أجاب الغزالي: "سبحان الله، لقد مر بخاطري أثناء الصلاة أنني نسيت أن أقدم الماء للبعير".

سواء في الخلوة أو التأمل تدخل أنت ككيان كامل، والنفس من ضمن مكوناتك الأساسية، تسايرك في مراحلك الأولى. أثناء ترتيب مكانك تجهيز مجلسك وتعدل قوائمك وجسمك.. إلى أن تهدأ..

إذا هدأ جسمك، فقط تخلصت من نصف قوى النفس عليك..

مع الأسف الشديد هناك من يجلس للتأمل ولا تمر دقيقة إلا ويقوم بحك وجهه أو تعديل جلسته أو فرك عينيه أو... لا ينبغي أن يحدث هذا في التأمل إطلاقاً لأن النفس لا زالت تتحكم في المستوي المادي الجسدي.

بعد أن يهدأ الجسد ويخشع كالأرض الميتة فلا تعد تشعر به، تبدأ مرحلة سكون الأفكار التي تحوم حولك والتي تطلقها النفس كالألعاب النارية هنا وهناك.

لا بد من التعامل مع هذه الأفكار إلى أن تهدأ وتختفي شيئاً فشيئاً.. وهنا تكون قد تخلصت من النصف الآخر من تسلط قوى النفس عليك.

حين تدخل التأمل أو الخلوة..

في البداية (أنت) تكون مع (نفسك).. جملة لابد من الانتباه لها، لكي تعرف أنك لست بصورتك الظاهرية، فأنت شيء ونفسك شيء آخر.

تدخل معك.. وتجلس 5 دقائق.. 10 دقائق إلى أن يبدأ شعورك بجسمك يقل، وتبدأ أفكارك تتلاشى، فلا يكون هناك سوى الصمت والفراغ والسكون.

أين النفس هنا.. أين ذهبت.. لا مكان لها..

هي لن تستسلم أبداً، سوف تفتح لك العديد من الملفات القديمة، وتقذف بفكرك الكثير من الأفكار، لذا ما لم تقلل من قوى النفس بالخشوع لن تصل إلى حقيقة التأمل أو الخلوة..

والخشوع هنا لا نعني به الخضوع أو انحناء الرأس، إنما نعني به كما جاء في القرآن الكريم أن تكون حواسك ميتة مع وجود الروح فيها، فالأرض الخاشعة هي الأرض التي تحوي بذرة الحياة في أعماقها، ولكنها في الظاهر لا حياة فيها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾. أو كما يقال في الحكم: "ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه".. والخمول هنا لا يعني الكسل وإنما يعني الكمون، كالبذرة التي تحوي في أعماقها كل معالم الشجرة..

في الخلوة والتأمل الحقيقي يختفي شعورنا بالنفس مع وجودها، حين تتصل ذواتنا أو أرواحنا بالله أو مع العالم الخارجي ينبغي أن تكون في حالة كمون.

النفس لا تختفي وإلا فسوف نفقد شخصيتنا، ولكن ينبغي أن تخمد كل قواها الظاهرية لكي ينجح التأمل..

هل تستفيد النفس من التأمل؟ النفس التي قمنا بسلب قواها..

دعونا نشرح العملية ببساطة، ودون إدخال المتغيرات الأخرى..

يحدث التأمل سواء في الخلوة أو غيرها بين الباطن (الذات الحقيقية) وبين الله والوسائل والوسائط التي يهيئها لنا، أو لنقل بين الذات وعالم النور، أي بين قوتين في غاية العظمة والإشراقة والنورانية، وهنا تكون النفس بين هذا الثنائي الجبار.

النفس هنا متواجدة ولكن في حالة كمون وخشوع، ليس لها قوى فاعلة. إذا حدث تواصل بين العالمين فإن النفس التي تقع بينهما سوف تتأثر كثيراً بهذا التواصل، ويكون التأثير على أشده كلما كانت في حالة كمون أقوى..

لذلك يخرج البعض من التأمل الحقيقي بنفسية مختلفة عن السابق، لأنها تكون قد تأثرت وبقوة نتيجة وقوعها بين قطبين وقوتين في غاية النورانية..

في حين لو كانت النفس يقظة القوى أثناء التأمل لحالت دون تماس القطبين ولما استفادت من وجودها بينهما.

لذلك حين نستوحش من أنفسنا أثناء الخلوة فذلك لأنها تعيدنا إلى وضعنا الحياتي المادي، إلى عالم الأفكار والصراع والماديات. حين تنصقل الأنا أو النفس شيئا فشيئاً - من خلال وجودها بين القطبين - تدخل ضمن المساحة البيضاء للذات، وهنا لا تشكل أية مشكلة في عملية التواصل، بل أن حياة الإنسان تكون بمجملها عبارة عن خلوة تأمل.

غياب النفس أو الأنا بداية كل خير في حياة الإنسان، بداية لتلقي واستيعاب العلم وأسراره، وبداية لرؤية الحياة على حقيقتها.

كلمة جميلة قالها الرومي ذات يوم:
إن كان باستطاعتك أن تتخلص..
من نفسك مرة واحدة فقط..
فإن سر الأسرار سينكشف لك..
ووجه المجهول..
المخفي ما وراء الكون.. سوف يظهر على مرآة إدراكك..

العقل في التأمل

أما السؤال الثاني والمتعلق بالعقل.. إذا كان للعقل هذه الأهمية، فلماذا يتطلب تحجيمه وإسكاته وحجبه في تقنيات التأمل؟.

إجابة هذا السؤال تكشف مفارقة بين التأمل الحقيقي، وبين تأمل التنمية البشرية الذي يدرس في الدورات والأمسيات وينتشر على صفحات الانترنت والمواقع المهتمة بهذا الموضوع..

فالرؤية الروحية للتأمل ترى أن العقل هو مصدر المعرفة والإلهام والوعي، ولا تكمن المشكلة في وجوده وهديه وتوجيهه، إنما تكمن المشكلة في الأفكار التي تتوال مسترسلة متنوعة متفاوتة غزيرة في الذهن أثناء عملية التأمل..

في التأمل الحقيقي لا ينبغي أن نقيد العقل أو نحجم أبعاده، ولا أن نضَيق الخناق عليه حين نركز على بؤرة معينة. فما يقوم به البعض أثناء التأمل من التركيز على شمعة أو وردة أو نقطة أو رسمة ما أو نغمة، يقوم بسد جميع المنافذ المؤدية للوعي، وكأنه يعزل كينونته عن العالم باستثناء الشيء الذي يقوم بالتركيز عليه.

أغلب المدربين والمتدربين لا يفرقون بين الأفكار والعقل.. بين التفكير والتعقل.

في التأمل الحقيقي ينبغي أن نلجم توارد الأفكار الجامحة المشتتة ونعمد إلى تحويلها إلى أفكار خلاقة واعية مبتكرة، وهذا هو عمل العقل الحقيقي،

في التأمل العادي - إن صح التعبير - يعزلونك عن أي أبعاد أخرى، أما في التأمل الحقيقي فأنت تندمج مع كل الأبعاد، وجزءاً من كل شيء.

في التأمل العادي نتعلم كيف نوقف الأفكار بشتى أنواعها، في التأمل الروحي نتعلم كيف ننمي ونستقبل ومضات الأفكار النيرة والتي تتحول إلى سلوك واعي مدرك فيما بعد في حياتنا العملية.

في التأمل العادي تشعر براحة جسدية ونفسية مؤقتة، سرعان ما تزول مع أول طارئ أو حدث مفاجئ، بينما في التأمل الحقيقي تشعر باتساع روحي واندماج مع قوى عظيمة مسيطرة ومهيمنة على الوجود بمقدورها أن تعينك وتساندك في أصعب الظروف.

هناك تشعر بفردانيتك، وهنا تشعر بكونيتك..

لذلك لا نستغرب حين نشهد تغيراً في سلوكيات بعض من ارتاد الدورات أو حضر الأمسيات لأنها تعظم من شأن الفردانية وتعزز من قوى النفس الباطنية وتشحن الأنا بأوهام العجب والغرور والتفاخر والتكلف في الثقة الزائدة..

تكمن نتائج التأمل في كبح جماح الأفكار المشتتة، وتبديد الغيوم الملبدة بفتات الاهتمامات القشرية حتى ننعم بسماء صافية تسطع فيها شمس الوعي. التأمل لا يعطل العقل ولا يطمس التفكّر، فرُب تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة..

هناك من يتأمل ليسترخي ويشعر بالأمان والراحة النفسية، وهناك من يتأمل ليرتقي ويتطور وتندمج روحه مع الكون ويقترب من الله عز وجل.

نحن بحاجة لعلاج تدفق الأفكار والسيطرة عليها، لا إلى استئصالها والقضاء عليها، بحاجة إلى فتح قنوات جديدة للاتصال بعالم الغيب لا قطع قنواتنا الموجودة والتمحور حول الأنا..

يشعر الكثير بحالة من الفرح والبهجة حين يسمع أو يقرأ أو يمارس التأمل للوهلة الأولى، وكأنه حصل على العصا السحرية أو إكسير الحياة الذي يحول المعادن الصدأة إلى ذهب خالص، تراه بعد فترة قد انتكس وتراجع وتقهقر إلى ما دون ما كان عليه سابقاً.

لذا إذا أردت أن تعرف المتأمل الحقيقي فانظر إلى حياته، لا إلى طريقة جلسته في التأمل، إن كان ظهره مستو أو منحني.. تفحص وعيه وأخلاقه وتناغمه مع الآخرين، لا إلى طريقة شرحه وكلامه عن تقنيات التأمل.. راقب سلوكه واختبر صمته وهدوءه، فالصمت قد يكون تلقياً للحكمة، وقد يكون انكفاء داخل النفس، وقد يكون مجرد صمت أعزل..

عقلك سماؤك.. فاجتهد أن لا تحلق في سمائك الغربان والصقور والنسور.. اجعلها سماء صافية حتى إذا ما شاء وعيك أن يحلق عاليا لا يصطدم بتلك المعوقات والعراقيل.. ووعيك هذا لا ينطلق إلا من قاعدة عقلك وإدراكك ونظرتك المتكاملة للحياة.

وكما يصعد إليه الكلم الطيب، فكذلك تتنزل الملائكة والروح والإلهامات الطيبة المباركة، فاجعل سماءك بلا سدود أو حواجز أو أفكار تعرقل تلقيك لهذا الفيض المبارك، فكم من دعوات مستجابة تنتظر صفاء سمائك لكي تتحقق، وكم تطور روحي ينتظر منك فتح بابه ليغير حياتك.. وكم تقرع السماء أبواب لا يُفتح لها..

التأمل يعرج بنا إلى مصاف الملهمين الذين يستنشقون عبق العالم الآخر ليؤدوا دورهم في عالم الدنيا.. فقدم هنا وقدم هناك.. بينما التأمل المتداول تنكفئ أقدامه للباطن حتى لا يكاد يخطو خطوة للخارج.

حين تتأمل شمعة أو تركز على زهرة قد يتوقف شلال الأفكار برهة من الزمن، ولكن ماذا بعد ذلك؟ أنت تدور حول نفسك، تخرج من التأمل فترجع إلى حالتك الأولى، قد تكون أكثر هدوءاً وراحة، ولكن هل تكون أكثر وعياً وإدراكاً وشغفاً للبحث عن الحقيقية والتعلق بالقوة المطلقة في الكون؟.

من خلال التأمل قد يحظى البعض بهبات أو قدرات نتيجة هذا التركيز.. قدرات باراسيكولوجية، ما فوق الطبيعة.. رأيت الكثير منهم يستعرض هذه القدرات في قروبات التواصل الاجتماعي، ينبهر بها البعض ويبدون دهشتهم وإعجابهم وحماسهم ورغبتهم في تعلمها وإتقانها. يكفي هنا أن نذكر قول أحد العارفين الذي قال:" لا يَغرَّنَكم لو رأيتم شخصاً يتربع في الهواء ويمشي على وجه الماء، بل راقبوه في مواطن الحق، واختبروه في مواقف الصدق، ومحصوه عند البلاء خيره وشره".

ينبغي أن يكون التأمل وسيطاً يربطنا بمنبع الفيض الإلهي، الفيض الذي يجلي أرواحنا، ويصقل قلوبنا، ويوسع وعينا، ويهدينا سبل الرشاد ويوجه دفة سفينة حياتنا للسداد.

فالتأمل العقيم من أبعاده الروحية ينكمش على ذاته، ويكون كطاحونة الرحى تدور حول نفسها، بينما في التأمل الحقيقي يدور المتأمل مع دوران الكون بيد القدرة الإلهية فينطلق من ذاته لموطن الروح الأزلية.

لذلك بعيداً عن الشكليات الظاهرية والهوامش المفتعلة في عملية التأمل.. نقول: بمقدور الإنسان أن يمارس أي نوع من

أنواع التأمل، وأن يمارس أي تقنية متوفرة لديه، فإن كانت نتيجة ما يقوم به يضفي على حياته وسلوكه نفحة روحية وعبق نوراني فهو تأمل حقيقي.

إن شعر بأي تماس روحي غيبي ملائكي فهو تأمل حقيقي.. أي توسع للوعي وأي إضافة معنوية لأبعاده الروحية فهو تأمل حقيقي.. أي غبطة داخلية توجهه للبحث عن الحقائق، وتدفعه لمساعدة غيره، وترفع حجب الأحقاد عن قلبه فهو تأمل حقيقي.. وما دون ذلك... مجرد راحة مؤقتة.

في التأمل ينبغي أن نطلب المدد.. نستعين بالحي القيوم، ليفتح مدارك عقولنا ويوسع آفاق وعينا، ويلهمنا الحقيقة والرشد والصواب..

فمن دون الله ما قيمة التأمل في حياتنا، ولمن نتأمل إذن، ولماذا؟

المتأمل الحقيقي يلتمس نور الله في كل شيء "ما أصغيت إلى صوت حيوان، ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنُم طائر، ولا تنعم ظل، ولا دوَى ريح، ولا قعقعة رعد.. إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالة على أنه ليس كمثلك شيء".

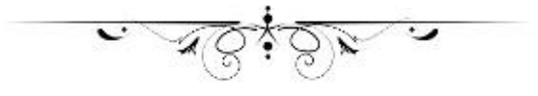

التملك.. وتهوين الألم

لو سألت أحداً ما عن ديمومة الحياة وثباتها واستقرارها سيجيبك بالتأكيد أن كل ما في الحياة آيل إلى زوال واضمحلال، فلا شيء باق على حاله، فالأشياء والأحداث إما أن تتغير وتتحول وتتبدل وإما أن تؤول إلى فناء واقع لا محالة، فلو دامت لغيرك ما اتصلت إليك. ولكن خلف هذه الإجابة الشائعة المتداولة يُضمر البعض في أعماقه، وما تظهره سلوكياته وتصرفاته العملية الخارجية رأياً آخر ومعتقداً مغايراً لها، ففي باطنه تكمن رغبة جامحة ببقاء ودوام الحياة والأشياء من حوله.

إجابته أشبه بمن يظهر الحمد ويقول (الحمد لله) في الوقت نفسه يضمر بأعماقه حالة من التذمر والإحباط والشعور بالنقص والدونية، حتى إذا انتهى من شكواه واستيائه يختم كلامه بقول: "الحمد لله على كل حال". فظاهر الحمد هنا لا يُعبر عن حقيقة الباطن، إنما هو نوع من تسلية للنفس ومؤانستها وخداعها بحالة الرضا المقنعة.

النظر إلى الحياة على أنها دار بقاء واستقرار مطلب تحاول النفس فرضه على سمات الشخصية وتجسيده في مقابل النظرة الروحية التي تعتبرها مرحلة انتقالية وقنطرة موصلة لشيء آخر أكثر أهمية ومثالية. وفي داخل كل واحد منا تتصارع هاتين النظرتين وتتفاوت نسبة قوتهما بين حين وآخر. وحين تؤكد النظرة الروحية على أن الحياة مرحلة انتقالية أشبه بمدرسة أو جامعة يتطور من خلالها الإنسان روحياً ينتقل بعدها إلى بُعد

آخر، فلا تعني بذلك نبذها أو عدم الاهتمام بها أو الانقطاع عنها وعدم مجاراتها ومسايرتها، إنما تعني عدم الوثوق بثباتها الظاهري والركون إليها لتقلبها وعدم ثباتها وبقائها واستقرارها.. تعني ألا يكون الإنسان خاضعاً لمطالبها أسيراً لتقاليدها ذائباً في مباهجها مذعناً لمرامها معتقداً بدوامها.. فالروحانية تنظر للحياة كأعظم مرحلة نختبر من خلالها تجربتنا الروحية، وحتى تكون هذه التجربة ناجعة ينبغي أن نعي ونفهم بذكاء متوقد كيف نستفيد منها بشكل مثالي.

الذين يرتادون المسرح عدة أنواع: فنوع منهم يكون مشاركا في العمل المسرحي وجزءً من العاملين فيه، ونوع آخر يأتي ليشاهد التمثيل والحركة على المسرح دون أن يعي الفكرة الأساسية التي يدور حولها العمل، فهو يبتهج بما يرى ولكن إن سألته عما رآه قد يبدي رأيه بلباس الممثلين أو ديكورات المسرح أو النكات التي قيلت دون أن يلحظ الفكرة الأساسية من العمل، ونوع آخر يجد في المسرح فرصة للقاء صديقه أو أحد معارفه والحديث معه عن أموره الخاصة أو لتمضية الوقت، ونوع يحضر المسرح بروح ناقدة محللة لكل ما يقال وما لا يقال، يركز على التفاصيل الدقيقة ولكنه يجهل الصورة العامة للموضوع. أما النوع الأخير فيأتي متأملاً للعمل المسرحي متفكراً في الفكرة التي أراد مخرج العمل إيصالها للجمهور، ومدى مصداقيتها وملاءمتها للواقع، وهل عكس العمل بأدواره التمثيلة هذه الفكرة أم لا؟.

الله يريدنا أن ننظر للحياة النظرة الأخيرة، نظرة المتأمل المتسائل الذي يقارن حركته في الحياة مع الهدف الحقيقي من وجوده، بين ما يريده منا وما نريده نحن، بين انجازاتنا كمستوطنين في الأرض وبين تحقيق غاية هذا الاستيطان، لأن كل الأنواع التي ذكرناها حين يسدل الستار سيعودون إلى بيوتهم

ودوُرهم، لن يبقى أحد، فالكل سيرجع إلى ذاته الحقيقية في العالم الآخر يوماً ما.

فكرة ديمومة الحياة وثباتها التي يحملها كل واحد منا في باطن نفسه رغم كل المشاهد والصور والوقائع التي يراها من تقلب أحوال الناس كل يوم بين الصحة والمرض، بين الموت والحياة، بين استقرار البلدان وثورانها، بين نوازع الشر والخير، بين الطغيان والحبور، بين الغنى والفقر، بين الوفرة والامتعاض.. والتي لا تدع مجالاً للشك أنها زائلة متغيرة متقلبة تعد من أخطر الأفكار التي تغرس بذور الشقاء والبؤس والمعاناة والتعاسة في حياة الإنسان.

فحين نتمسك بأمور نحبها أو نرغب بها محاولين الاحتفاظ بها معتقدين أنها دائمة ثابتة لنا لا تتغير ولا تنتقل ولا تفنى سنصاب بخيبة أمل وبيأس شديد وحزن مستديم حين تجبرنا الأقدار قسراً وقهراً عن التخلي عنها. فطبيعة الأشياء خلقها الله لتكون عابرة مؤقتة متغيرة زائلة، وفي المقابل نحن نريدها أن تكون باقية ثابتة مستمرة. نحن نريد ثبات وديمومة ما نرغب به في عالم لا ثبات له ولا استقرار.. وهذا من أهم أسرار شقائنا ومكمن آلامنا، ومصدر أحزاننا.

نحن نريد أن تسير سفن حياتنا وفق ما نريد، ووفق تصوراتنا التي غُرست في عقولنا منذ الصغر، وحين تهب رياح عاصفة تغير من مسار سفينتنا نصاب باليأس والألم والحزن.. في حين أننا حين ركبنا السفينة كنا نعلم أنها ستكون معرضة لشتى أنواع الأعاصير والرياح العاتية..

لماذا لا يحزن الحكيم أو يتألم العارف أو يضطرب المؤمن الواعي بحوادث الزمن وتقلباته؟ لأن كل تلك التقلبات تكون ضمن بصيرته النافذة، فهو يعلم يقيناً بحتمية تغير الأحوال من جانب، ومن جانب آخر هو يتأقلم مع كل هذه التقلبات،

كالمفتاح الذهبي الذي بمقدوره أن يفتح كل الأبواب، ففي كل حدث يمر عليه يعتقد أنه يمر بتجربة جديدة، وفي كل مأزق يعترضه فهو عابر سبيل لا يقف عنده بل يتخطاه، وفي كل هول يلاقيه يعتبره جزء من مسيرته ينبغي التناغم معه لاجتيازه.

هو لا يقتني شيئاً ويخشى فقده، ولا يبني شيئاً ويخاف هده، ولا يعطي أحداً وينتظر رده، ولا يكتب سفراً يخاف نقده، لا يُنجب ابناً يخاف عقه، ولا يحسد من وهبه الله وأصبح بعده، لا يهاب الغربة وإن بقي وحده، لا يشعر بالفقر وإن وصل العوز حده، ولا يسأل الناس إلحافاً وإن كان في شده، يأنس بالحياة سواء طالت أم قصرت المده.. لقد وعى أن تقلبات الحياة هي أصل من أصولها ومن هنا هيئ لكل حادث عده.

ينهار البعض حين يفقد عزيزاً على قلبه، أو حين يمرض، ينزل مؤشر أسهمه، يفشل في اختبار ما، يشب أبناؤه على غير هواه، لا يقدره الآخرين بالشكل الذي يريد، يفقد منزله، ثروته، جماله، مكانته، وكأن الحياة ينبغي أن تسير في خط مستقيم.

يرى البعض الحياة كإناء ماء صغير راكد، يحركه بيده، ويضع فيه الألوان التي تناسبه، ويغمس فيه الأشكال التي يريدها، ولا يعلم أن الحياة نهر جار غير متوقف لذلك يقول الفلاسفة: "لا يخطو رجل في نفس النهر مرتين أبدًا". فالنهر جار لا يتوقف، والماء الذي يلامس قدمك سيتغير لا محالة في المرة الثانية. لذلك لا يمكن أن تشعر بذات المشاعر حين تعاود رحلة ما قمت بها منذ زمن، على الرغم أنك ستذهب لنفس المكان وتحمل معك نفس الأغراض ويشاركك نفس الأشخاص، ولكن لن يكون شعورك مشابهاً للرحلة الأولى لأن نهر الزمن الجاري غير فينا الكثير.

وتتجلى فكرة الديمومة بحب التملك، ففقد أو خسارة ما يعتقد الإنسان بملكيته هو ما يسبب له الألم واليأس والمعاناة.. كما أن ترقب وتوقع الفقدان هو ما يخلق فيه الخوف والهلع

والاضطراب. وهناك أمر ثالث وهو الخوف من عدم التملك، أي أن يخفق في حياته بتكوين ملكيته الخاصة.. فالحزن على فقدان ما نملك، والخوف من فقدان ما نملك أو خسارته، والخوف من عدم الحصول على ممتلكات خاصة بنا، يجعلنا نعيش أشد حالات الألم والخوف والمعاناة والقلق والاضطراب الدائم.. قبل الفقد نخاف وبعد الفقد نتألم ونعاني وإن لم نتملك نفقد ثقتنا بأنفسنا ويؤثر على قراراتنا المصيرية.. وبالتالي لا أحد في عالمنا اليوم بمعزل عن القلق من إحدى هذه الوجوه الثلاثة سواء من خوف وهلع من جانب وألم ومعاناة من جانب آخر وعدم الثقة من جانب ثالث. وهذا الخوف يعد أكبر عائق أمام تقدمنا الروحي في حياتنا الأرضية التي نعيشها.

ولكن كيف لنا أن نعالج هذا الأمر بأنفسنا؟

ينبغي أن ندرك جيداً أن كل الآيات التي تطرقت إلى الموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ أو ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ وما تطرقت إليه الأحاديث الشريفة لا تهدف إلى إرعاب وتخويف الإنسان من الموت بقدر ما تريده أن يعي أنه في رحلة مؤقته محدودة لا تزيد ولا تنقص، وحين تنتهي هذه الرحلة فلن يأخذ معه شيئاً إلا ما أكتسبه من خبرات وأعمال صالحة وما تمخض وعيه من تجارب وخبرات روحية. وبالتالي فكل ما يملك يتركه دون رجعة، فثروته وممتلكاته وزوجه وأبناؤه وعشيرته وسمعته وكرسيه ووجاهته تبقى في البعد المادي ويرتحل عنها.

وهذا الإدراك.. إدراك حقيقة الانتقال القهري لا يؤثر على الإنسان في حياته الدنيوية فحسب، وإنما يؤثر أيضاً في حياته الأخرى، فكثيراً من الأرواح تبقى معلقة في العالم الأرضي لأنها مرتبطة ومتعلقة بالأملاك والثروة أو الأبناء أو المناصب أو حتى الملابس والمقتنيات التي كان يحبها.. لذلك يحزن بعض

الموتى ويضطربون حين يتم التصدق بملابسهم أو حاجياتهم لتعلقهم الشديد بها، بعض الأرواح تبقى فترة طويلة من الزمن ملازمة للمنزل لأنها متعلقة به أشد التعلق، بعض الأرواح تكون ملازمة لكتبها ومكتبتها التي أمضت سنين طويلة في جمع محتوياتها.. وهكذا.

فالنظر للحياة نظرة ديمومة والتعلق بها لا يسبب ألماً في الحياة فقط إنما يعقبه ألم بعد الموت، فالتعلق يبقى إن لم يتضاعف ويزداد قوة بعد مفارقة الجسد، لأن النفس حينها تتجلى ملكاتها بشكل مضاعف.

حين يحاكي الإنسان نفسه ويدرك أنه بالفعل لن يأخذ معه شيئاً فلماذا هذا التعلق الطاغي في حياته؟.. وإذا كان يدرك أن الحياة لا تستمر على منوال واحد - وهذا من طبيعتها - فلماذا يتذمر ويحزن ويتكدر لعدم سريانه ضمن إطار هذا التغير والتبدل. ذواتنا الحقيقية الروحية لا تعير للتملك والتعلق أية أهمية لأنها من طبيعة مختلفة عن الطبيعة المادية، لأنها تعلم أن العالم المادي بالنسبة لها ليس إلا وهماً سيتحلل بأية لحظة وينتهي، فالأشياء وجدت وخلقت كي نستعملها ونستخدمها لا لكي نمتلكها بصورة مطلقة.. ولكن النفس لتماهيها مع الجسد المادي فإنها تتوهم أن بقاءها وخلودها مرتبط بتلك المقتنيات (الثروة، الأملاك، الوظيفة) أو بهؤلاء الأشخاص (الزوج، الأولاد، العشيرة، العائلة) أو بتلك الأدوار (أب، أخ، أبناء).

لذلك ينبغي أن نسأل أنفسنا: ماذا قدمنا؟ وليس ماذا نملك أو نمتلك. ما الذي حققناه واختبرناه في حياتنا؟ لا ما الذي ادخرناه وشيدناه وأورثناه. فالأعمال التي تنفصل عنا هي التي ترتحل معنا، بمعنى أنك حين تعطي فقيراً أو تسد رمق جائع أو تساعد محتاجاً، فإن هذا العمل سينفصل عنك مادياً، لقد قمت بالعطاء أو المساعدة وانتهى الأمر، قد تنساه ولا تذكره، ولكنه

يبقى معك أثيرياً وينتقل معك روحياً، بينما لو بقيت ذكرى هذا العمل تراودك باستمرار وتتبجح به أمام الناس مما يخلق فيك العجب والرياء فمعنى هذا أن العمل لا زال عالقاً بك غير منفصل عنك وبالتالي لا يرتحل معك روحياً. ومن هنا تؤكد الأحاديث على صدقة السر، وصلاة الليل، وقراءة القرآن والناس نيام وغيرها من أمور كثيرة. ومن هنا تأتي مقولة: "اذكروا محاسن موتاكم" لأنه حينها يكون قد انتقل إلى العالم الآخر وانتقلت أعماله معه فلا ضير من ذكر محاسنه ليكون قدوة لغيره.

لذلك كان قدماء المصريين قبل ما يقارب من 3 آلاف عام يكتبون على قبورهم بعض لمحات سيرتهم ليتقربوا ويبتهلوا بها إلى الخالق، فيكتب أحدهم: "لقد جئت إليك وأحمل إليك الاستقامة، وأبغض الخطيئة لأجلك، لم أرتكب أية خطيئة ضد الناس، لم أفعل ذلك الذي يمقته الإله، لم أبلغ السوء عن خادم إلى سيده، لم أسبب بكاءً لأحد، لم أكن طماعاً، لم يلتهم قلبي الحسد، لم يكن صوتي أعلى مما يجب، لم أختلس السمع، لم أستكبر، لم اشتم ولم أجدف على الإله، لم أشتم الإله، لم أسرق أوقاف المعبد، لم أسلب، لم أثر الصراع والفتن، لم أنطق بالأكاذيب، لم أصطنع الكذب مكان الحق، لم أصم أذني عن الكلمات الصادقة، لم يكن قلبي متسرعاً، لم أستول على ملكي الخاص، لم أسرق الناس، لم أعذب أرملة، لم أكذب في المحكمة، لم أكن ذا نية سيئة، لم أرتكب محرماً، لم أجبر العَمَلة على أكثر ما عليهم كل يوم، لم أكن مهملاً ولا بطالاً، لم أسكر، لم أرتكب تنجيس الذات، لم أجوع أبداً أحداً، لم أقتل ولا دفعت أحداً إلى القتل، لم أربح ربحاً حراماً، لم أخدع أحداً ببيعة حليباً مزيفاً، لم أتعد على أرض أحد ولم أضع سداً للماء الجاري، ولا قطعت الماء عن قناة، لم أغش في كيل الحبوب ولا تلاعبت بالميزان، لقد فعلت ذلك الذي يرضي عنه الإله.. إلخ".

فلو أتيحت لنا فرصة أن نكتب على قبورنا شيئاً.. فماذا سنكتب؟

النقلة النوعية التي تحررنا من التملك وديمومة الحياة تبدأ حين ندرك حقيقة الانتقال إلى العالم الآخر، وتبدأ كذلك حين نعتبر أنفسنا أوصياء ولسنا مالكين حقيقيين. فحين نرى أنفسنا أوصياء مؤقتين لكل شيء مادي وشخصي في الحياة فإن هذا من شأنه أن يخفف قبضتنا على الأشياء وتمسكنا بها فنحرر أنفسنا من براثن وهم التملك.

أما الأمر الثالث.. فما الذي يجعل الإنسان الواعي يترك شيئاً ويتجه لغيره.. يتخلى عن شيء ليرتبط بغيره؟ بالتأكيد حين يجد أن الأمر الآخر أكثر أفضلية وأروع وأسمى وأجمل وأرقى وأكثر بهجة من الأول.. وهذا منطق العقل والوعي والحكمة. وبالتالي فإن العقلاء والمؤمنين الواعين والروحانيين حين تلمسوا وعرفوا وأدركوا وشاهدوا جوهر لمعان البعد الروحي وما يمثله من بهجة وألق روحي بالنسبة لمباهج الدنيا المادية انعتقوا عنها وتحرروا من تعلقاتها والارتباط بها، فنرى أجسادهم معنا ولكن بهجتهم الحقيقية في عالم آخر.. لا تمثل لهم الدنيا سوى أدوار يقومون بأدائها بينما راحتهم في عودتهم اليومية إلى ذواتهم الحقيقية في العالم الأعلى حين يختلون بأنفسهم. فلا المال ولا الجاه ولا السمعة ولا المنصب ولا العشيرة ولا الوجاهة يمثل لهم شيئاً في قاموس حياتهم، وبالتالي لا يحزنون لفقد أي من هذه الأمور، ما يحزنهم حقاً حين تقل حالة الوصال والبهجة والفرح الداخلي التي يشعرون بها، ومن هنا نعلم لماذا قال النبي العظيم (ﷺ): " يا عماه، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركتُه".. ما الذي رآه النبي (ﷺ) وشاهده كي يفضله على كل المظاهر الدنيوية؟

لا نتكلم عن حدث تاريخي إنما عن ظاهرة روحية واقعية، فكثيراً ما نسمع أهل الله يقولون كلاماً مشابهاً يعكس كنه ما يتلمسونه من آثار معنوية لا توصف مقارنة مع الآثار الدنيوية المحدودة.

ولكن السؤال هنا: هل يعيش الإنسان متشرنقاً على نفسه دون اتصال أو تماس مع الآثار المادية ودون أن يستمتع بمباهج الحياة التي هيأها الخالق له خوفاً من التعلق.. ألا ينبغي للإنسان أن يفرح ويأنس ويعبر عن شعوره ويتمتع بزينة الحياة وطيباتها ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟

كثيراً من الناس يجهل النظرة الروحية للحياة، بل حتى رجال الدين وبعض المدارس الروحية لا يدركون حقيقة وعمق العلاقة الروحية بالأشياء، فيعتقدون أن تضييق الخناق ومنع وحرمان كل ما هو مبهج وممتع ومؤنس من لوازم الدين وضروراته.

النظرية الروحية للحياة تتمثل في رجل أعطى ابنه نقوداً كي يشترى تفاحاً على أن يعود قبل مغيب الشمس. أخذ الابن النقود وسار في القرية بغية الوصول إلى محل بيع التفاح، وأثناء سيره التقى بصديق لم يره منذ زمن وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث ويضحكان، ثم سار قليلا فوجد أصدقاء يلعبون ويتسابقون فشاركهم في لعبهم، سار قليلاً فرأى منظراً جميلاً في السماء بدأ يتأمله.. أكمل مسيره وهو ينظر إلى الزهور على جانب الطريق التي نبتت حديثاً، ثم تسلق شجرة متدلية الأغصان كي ينظر إلى قريته من مكان مرتفع، أكمل مسيره لبائع التفاح فابتاع منه بمقدار ما أعطاه أباه ثم رجع عائداً إلى بيته، فوصل منزله قبل مغيب الشمس.

النظرة الروحية تنظر للحياة كمسير هذا الابن الذي عاد قبل مغيب الشمس كما أوصاه أباه، ودخل البيت بعد أن نفض

الأتربة عن ملابسه، وسرح شعره بيده، وغسل يديه بنبع الماء الجاري القريب من بيته.. لقد عاد الابن نظيفاً متألقاً كما كان، عاد في الوقت المناسب، لم يتسبب أثناء مسيره بأذية لأحد، ولم يشتك منه أحد، ولم يعنفه أحد.. لم يقتطف ثماراً من بستان أحد، ولم ينظر لأحد نظرة ازدراء طوال الطريق.. رجع إلى بيته فرحاً مسروراً لأنسه بالرحلة التي قضاها في الطريق.

كان الاب يعلم أن ولده بحاجة إلى أن يستمتع مع أصدقائه ويلعب معهم قليلاً.. أن يتأمل الطبيعة ويندهش فيها.. أن يُنفس عن باطنه بالضحك مع أقرانه، أو بالفرح باقتناء شيء ما يجده مهماً، لذلك حين كلفه بمهمة الشراء جعل هناك متسعا من الوقت لعودته. وحين يعود الابن سليماً فرحاً مبتسماً هل من العدل أن يحاسبه الاب الواعي العاقل على ما فعله أثناء الطريق مع علمه أنه لم يرتكب شيئاً خاطئاً..

لقد كلفنا الله بمهام في هذه الحياة جاءت على شكل وصايا كتابية مقدسة أو على شكل نصوص نبوية تهدف لفائدتنا وتقدمنا الروحي، وليس لله أية مصلحة أو فائدة منها، فالله غني عن عبادتنا، وأثناء مسيرتنا لبلوغ هذه الغاية - وهي أشبه بمسير الابن لشراء التفاح - هناك العديد والعديد من الأمور التي لا تسبب ضرراً لذواتنا وأنفسنا ولا تسبب ضرراً للآخرين ولا تخرج عن الوصايا الحقيقية والأصلية بمقدور الإنسان أن يستمتع بها. لذلك جعل الله الحياة تدور في ثلاث محاور: اللهو واللعب والغاية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وتدرج فيها بشكل مشابه لمراحل الإنسان العمرية التي تبدأ باللهو والاستمتاع في مرحلة الطفولة، بعد ذلك تأتي مرحلة المسئولية العمل وبناء الشخصية والأسرة، أما المرحلة الثالثة فهي

مرحلة النضج والوعي والرشد. فالحياة إذن خليط من هذه المحاور الثلاثة، أي أن يكون ذا هدف ومسئولية يسعى من خلالها لحياة فاضلة كريمة (اللعب) تتخللها فترات ينفس فيها عن نفسه دون الإضرار بها أو بالآخرين أو يخالف فيها الوصايا التي ينبغي السير عليها (اللهو) لأن هذا كله يهدف إلى غاية عليا وهدف سام جليل وهو التهيؤ للانتقال إلى المرحلة الروحية المتطورة في العالم الآخر (الدار الآخرة).

لذلك فالاستمتاع بالحياة - وفق ما ذكرناه من شروط - ليس ترفاً ولا بذخاً ولا رفاهية كما يراها البعض، فالتمتع بها شيء والتعلق بها شيء آخر.. ولقد أثبت علماء النفس أهمية تشكيل طبقات الوعي المختلفة في بزوغ وتنمية الإبداع، فالسير على رتم واحد فكراً وسلوكاً ومشاعراً قد يخلق كآبة وقلق وعدم انسجام الوعي النفسي الباطني.. فبعض المتدينين يشعر بحسرة حين يرى شاباً يمارس رياضة الركض أو لعب كرة القدم أو تسلق الجبال أو ركوب الدراجات أو يقوم برحلة بحرية لانشغاله في الدرس أو لأن هذه الممارسات تخالف البريستيج الذي اعتاد عليه. وهو لا يعلم أن لحظات استمتاعه بهذه الأمور قد يفتح مدارك عقله وفهمه لاستيعاب أكثر تركيز في دروسه وأبحاثه. ومع الأسف الشديد تم اقتباس صور الألم والحزن والاهتمام بالبريستيج والشكل الظاهري في الإسلام من بعض الطوائف المسيحية التي كانت تمارس شعيرة جلد الذات للتكفير عن الأخطاء وللتشبه بالمسيح عليه السلام منذ العصور الوسطى، وليس هذا مبحثنا الآن.

بل إن مفهوم الاستمتاع الروحي بالأشياء يفوق أضعاف الاستمتاع المادي، لأن النظرة الروحية تكون لذات جوهر الشيء دون أن تداخله أية عوامل خارجية أو معلومات مسبقة أو ترقبات مستقبلية.. فحين ينظر إلى زهرة ينظر لذاتها وكيانها

وجمالها الآني، على ما هي عليه الآن، بما تملكه الآن، بجمالها المتألق الآن.. لا يفكر باسمها وأصلها ومنبتها وتاريخها وما ستكون عليه بعد حين، هو يعيش روحها الآن يرتوي من جمالها دون أية معلومات مسبقة، يتوحد معها برهة من الزمن، يعيش معها بكل مشاعره، يحدق فيها بحب، يحاكيها بقلبه، يلامس هالتها برفق.

من يملك إحساساً روحياً مرهفاً يتعامل مع كل شيء على هذا النمط حتى في أبسط الأشياء كشرب الماء، أو الأكل، أو الاستمتاع بالطبيعة، فالروحاني يرتوي بتذوق الماء شاعراً بسريانه بخلاف المادي الذي يشرب ليعبئ جوفه. حين ينظر إلى الطبيعة ينفصل عن كل مدركاته المسبقة واللاحقة ويتفرد بالمنظر الخلاب ويندمج معه بكل مشاعره، حين ينظر إلى ابنه يذوب في روحه كذوبان فتيل النار بالشمعة.. حين يقارب حبيبه تتوحد حقول الروح التي تشع من مقلة العين فيكون ماءها.

هو لا يسمع أصوات تغريد الطيور وأنغام أوتار الوجود وترانيم الناي وجلجلة الأجراس وقرع النواقيس وترتيل الآيات وتجويد القراءات بأذنه المادية فقط إنما تلامس شغائف وجدانه الروحي. ومن هنا نفهم لماذا ينجذب إلى الطبيعة في أكله وشربه ولبسه وبناء بيته وينفر من صور وأشكال التكنولوجيا الحديثة لأنها في نظره ميتة لا روح فيها ولا تواصل معها.

يخطئ من يعتقد أن المتدين أو الروحاني لا يستمتع بما أودعه الله في الطبيعة من ملذات ومباهج، ولكنه لا يتعلق بها، فحضوره الآني مع الشيء، واندماجه الكلي بالآخر، وعيشه اللحظة بكل معطياتها لا تعني إحداث خلل فيه يؤول إلى النقص أو ينجم عنه خلل وجداني وروحي، لأن عليه أن يعود من حيث أتي بزيادة لا بنقصان. وهذا الوعي يجعله في مأمن

من الفزع والهلع والاضطراب والخوف حين يفقد أو يخسر شيئاً فهو يؤمن أن ثمة شيء آخر سيحل محله لتغير الزمن وتواليه وعدم استقراره ولأنه سيدخل خبرة أخرى أكثر جمالا وبهجة. وحين يفقد عزيزاً على قلبه فهو يؤمن أنه لن يفقده روحاً فيعمل على زيادة رابطته الروحية معه..

لو آمن الواحد منا بيقين بتغير الأحوال وحتمية الانتقال هل سيحدث تكالب وصراع ونزاع وحروب في العالم؟.. هل من الممكن أن يقتل الآخر ليستولي على ممتلكاته وأراضيه؟.. هل تتفشى أوبئة الأحقاد والكراهية في جسد المجتمع الواحد؟.. هل نصاب بالذعر والهلع والقلق والأمراض النفسية لأن حدثاً ما قد تغير في حياتنا؟.. هل عرفنا الفرق بين ما نعتقده من زوال الدنيا وتغيرها وبين سلوكنا الخارجي الذي يعكس عدم يقيننا بهذا المعتقد؟

حاجة أم رغبة

كثيراً ما يختلط مفهوم الحاجة والرغبة عند كثير من الناس.. فهل ما نفعله من أعمال ونقوم به من سلوكيات يعكس حقيقة حاجاتنا أم رغباتنا؟ وما الفرق بينهما؟

ببساطة نقول: أن الحاجات هي الأمور الضرورية لبقاء الإنسان وتيسير معاشه، بمعنى هي الأشياء التي تؤثر على وجوده وبقائه ككائن حي له دوره المؤثر في الحياة.

منها الحاجات المادية كالطعام والشراب والهواء والنوم، ومنها حاجته إلى الأمان والصحة والسلامة والسكن والعمل، ومنها حاجته إلى الحب والاحتواء الأسري والمحيط المناسب، وكذلك حاجته إلى تقدير نفسه بأن يُحترم من قبل الآخرين وأن يترك بصمته الشخصية في الحياة من خلال إبداعه وتحقيق غاياته وأهدافه..

هذه الحاجات التي أشرنا إليها هي ما يؤكدها علماء النفس وبدونها يشعر الإنسان بحالة من النقص أو عدم توازن، ومن هنا تنشأ الأمراض النفسية حين يحدث خللٌ في هذه الحاجات..

أما الرغبات: فهي ميل النفس للقيام بالأعمال أو الأمور التي تجلب اللذة والاستمتاع سواء كانت هذه الأعمال حاجات مهمة أم غير مهمة.

ولنأخذ مثالين على ذلك:

الأكل.. حاجة أساسية ينبغي للمرء أن يسدها عن طريق تناول الطعام المناسب.. فقد يكتفي بتناول وجبة تحتوي على طبق من

خضراوات وقطعة صغيرة من اللحم وقليل من الشوربة.. تمتلئ المعدة فيكون قد سد حاجته للأكل..

ولكن تأتي الرغبة لكي تزيد وتضيف ما تهواه النفس وتستلذ به فتحول وجبة الطعام إلى (بوفيه مفتوح) يتضمن كل ما تشتهيه النفس من مشويات ومقالي وحلويات ورز بنكهاته، والسلطات بأنواعها.. وغيرها كثير.

نحتاج وسيلة نقل تقلنا من مكان إلى آخر (سيارة) والتي أضحت حاجة مهمة وملحة للحركة، ولكن تأتي رغبتنا فتختار سيارة يفوق ثمنها مستوانا المعيشي.. هنا تجاوزت هذه الأداة (السيارة) حد الحاجة، فوسيلة النقل وجدت لكي نستخدمها لا أن تستخدمنا.

الآن.. وقد عرفنا الفرق بين الحاجة والرغبة.. فالأولى مطلب أساسي مهم، بينما الأخرى رغبة تشعرنا بالاستمتاع والمتعة..

لا يمكننا أن نعتبر أن الرغبة حالة سلبية على الإطلاق، لأنها تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، فاختلاف الأمزجة والتطلعات الشخصية والفروق الفردية تجعل رغباتنا متنوعة لا تسير على وتيرة واحدة، ولكن طغيان معدل الرغبات بشكل يتخطى حاجاتنا بمساحة كبيرة يبعدنا عن أهدافنا الحقيقية في الحياة..

فمن ينصب جل اهتمامه في دائرة إشباع رغباته المادية وتأمين حياته المرفهة لا يتسنى له أن يتساءل يوماً عن سر وجوده وتهذيب باطنه وتطور أبعاده الروحية، فكل ذلك (في نظره) لغواً لا طائل منه وترفا فكريا لا فائدة منه.

إصرار البعض على تحقيق رغباته أمر مثير للغرابة، فالرغبة سواء تحققت أم لا فهي لا تشكل تهديداً لحياتنا لأنها ليست أمراً ملحاً، بل إن تحقق بعض الرغبات قد يؤدي إلى عواقب وخيمة فـ "كم من أكلة منعت أكلات" وعلى الرغم من معرفتنا بذلك

إلا أننا نصر على فعلها والقيام بها لأنها تمدنا بشيء من المتعة والاستمتاع، وحين لا تتحقق نصاب بالاكتئاب والقلق والشرود الذهني وغيرها من أمراض.

حتى في الأمور الاجتماعية، فالبعض يلقي بنفسه في دوامة من العلاقات والصداقات مع غرباء لا يعرفهم ولا يمتون له بصله متجاهلاً للحدود الشخصية التي ينبغي الحفاظ عليها غير عابئ بإمكانية تأثره السلبي بهذه العلاقات التي قد تؤثر على محيطه الروحي.

المحافظة على محيطنا الروحي جزء من حاجتنا إلى الأمان والاستقرار النفسي، ولكن البعض يتجاوز هذه الحاجة لرغبته في جذب انتباه الآخرين واستعراض معلوماته وبيان مهاراته وكفاءته وذكائه، ويعتبر أن كل فرد مشروع صداقه وعلاقة أو حتى شراكه ولا يدرك أن هذه العلاقات العابرة قد تفقده التركيز والتمعن الباطني والتألق الروحي.

لقد أضحت رغبات الإنسان تفوق حاجاته التي باتت تزداد يوماً بعد يوم، أصبح الاهتمام منصباً على تحقيق الرغبات، وفي المقابل ينظر إلى الحاجات كأمر استثنائي يتثاقل حين القيام به، فالتمارين الرياضية حاجة مهمة للبعض خصوصاً لمن يحتاج ليونة في العضلات يتهاون في ممارستها، بينما يرغب وبشدة في قضاء ساعتين أمام التلفاز ومتابعة مسلسل درامي لا قيمة له.

الأكل الصحي الذي يحتوي على الفيتامينات والألياف والبروتينات والدهون النافعة حاجة مهمة للجسم لا نعمل على تحقيقها دوما لأننا نرغب في أكل الوجبات السريعة الجاهزة، فقط لأننا نستمتع بأكلها.

الجلوس دقائق معدودة في خلوة تأمل أو مراقبة مع الذات حاجة ملحة لأي تطور روحي، نتهاون عن عملها فنستبدلها

بتجاذب أطراف الحديث مع آخرين وتقصى سيناريو حياتهم وتصفح مآسيهم.. هنا اسُتبدلت الحاجة برغبة.

لقد قام المجتمع بتحويل الرغبة إلى حاجة أساسية بحيث أصبحت لزاما علينا التقيد بها وأدائها. فاللباس حاجة ولكن نوعيته وتصميمه وتنوع الماركات والموديلات أصبحت مهمة لدرجة أن البعض يعتذر عن حضور دعوة أو مناسبة ما لأنه لا يملك الملابس المناسبة لها.. الرغبات الاجتماعية الملحة في حفلات الزواج والولادة تحولت إلى عادات تهدر فيها أموالٌ تثقل في بعض الأحيان كاهل الإنسان عن أن يسد حاجاته الأولية.

هناك من يرغب في السفر فيصرف مبالغ طائلة على متعة لا تتجاوز أربعة أو خمسة أيام.. في الوقت نفسه يستدين من صديقه أو من البنك نهاية الشهر ليسد حاجاته الأولية من طعام وشراب.. وقس على هذا الكثير من الصور المشابهة.

هل ما نقوم به من أعمال ينصب في محور حاجاتنا أم رغباتنا؟

وللإجابة على هذا السؤال فلنتجاوز الحاجات الأساسية التي ذكرنا بعضاً منها كالطعام والشراب والمسكن وما أشبه لأن الجميع يعرف جيداً أن كثيراً مما نقوم به يدخل من باب الرغبات وليس الحاجات، ولكل واحد منا عشرات الأمثلة التي يطول شرحها، لذا دعونا نتكلم عن الحاجات النفسية والروحية..

على سبيل المثال حاجتنا إلى أن نُحترم ونقدر من قبل الآخرين، نحن لا نكتفي بهذا الاحترام وإنما نطلب المزيد على الدوام.. لا نريد أن يقف لنا الآخر حين يبادرنا بالسلام بل نطمح أن يستقبلنا عند عتبة باب مجلسه. البعض لا يكتفي بالدعوة التي تتم عن طريق الهاتف النقال، بل لابد من حضوره شخصياً أو إرسال دعوة رسمية.. تهافت البعض على وضع الألقاب والمسميات (مدرب/ خبير/ مدرب المدربين/ ماستر/ جراند

ماستر..) لأجل تعريف نفسه لنيل احترام الآخرين من خلال شهادة حصل عليها خلال عدة أيام. هو لا يكتفي بالاحترام والتقدير الطبيعي بل يطلب المزيد.

أن يحترمنا الآخرون ويقدروننا حاجة مهمة، ولكن أن يُبنى هذا التقدير على وهم وقلة معرفة وضحالة في الفكر فكأننا هنا نخدع أنفسنا. فنحن نرغب في هذه النظرة ولكن في نفس الوقت نرى أنفسنا من الداخل غير مؤهلين لها. ما فائدة أن أقدر نفسي وأراها في أبهى صورها دون أن أسعى عملياً وفعلياً لتجلي هذه الصورة.. تكرار وطلب التجلي لا يعني تحقق التجلي..

البعض يُوهم نفسه بالإيحاء.. بالتكرار، بتغيير الأفكار عن نفسه.. إن لم تتغير حقيقتك من الداخل فما نفع الإيحاء والتوهم، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً.. حين تقرأ روشتة الدواء لا يعني أنك ستتعافى، حين تتمعن بصورة الأكل لا يعني أنك شبعت.. حين توهم نفسك بالإيحاء بتقدير ذاتك لا يعني أنك وصلت.. إن لم يتطور وعيك ويشرق قلبك ويصفى باطنك ويتنور لبك ويصبح ظاهرك كباطنك لن تصل إلى حقيقة ذاتك ومعرفتها.

تقدير الذات حاجة أساسية، ولكن أن نعلي من شأنها إلى درجة التقديس أو أن تطغى فوق الآخرين فهذه رغبة نفسية عادة ما تتقاطع مع مخلفات الماضي فتتخذها النفس ذريعة لتسوية حسابات قديمة.

ينبغي أن تكون رغباتنا تخضع لحاجاتنا وليس العكس، فالرؤية الروحية لتقدير الذات والاحترام من قبل الآخرين تنظر للفرد كجزء من منظومة روحية متكاملة أما حين ننظر إليه كرغبة فأنت هنا تنفصل عن هذه المنظومة. فالله عز وجل

حين أكد على الفردية وتقدير الذات ربطها في الوقت نفسه بالتواضع حتى لا يفلت زمامها بالعجب والغرور من جانب، ومن جانب آخر ربطها بالروح الجماعية التي تشكل العناقيد الروحية مجتمعة.

ليس هناك مشكلة في تحقيق رغباتنا ما دامت هذه الرغبات نابعة من حاجاتنا الأساسية، فالقراءة والكتابة والبحث والتعلم حاجات مهمة (باعتقادي) ينبغي أن تطور وتنمى كرغبة ملحة، كذا معرفة أنفسنا وهويتنا حاجة مهمة تثير فينا رغبة البحث والتحري، قد نستهلك عمرنا كله في البحث عن إجابة مقنعة.

أصبحنا لا نبحث عن حاجاتنا بقدر ما نبحث عن رغباتنا، وكأننا نبني بيتاً على أرض رملية لا أساس لها.

ألتقي بأناس شيدوا قصورهم على أرض رملية، لا يعرفون حقيقة الذات التي يتكلمون عنها، يتعاملون مع مفردات روحية ومصطلحات في تقنيات الطاقة قد تضر الآخرين وتسبب لهم انسدادات أثيرية، يفتحون قنوات طاقية لا يمكن تحملها دفعة واحدة..

قصورا شيدت وبسرعة على رمال هشة من الممكن أن تسقط وتهوى في أية لحظة.

تفخيم الأنا.. إلى درجة التقديس أدى إلى انتكاسة العديد منهم، الثقة الزائدة بالنفس التي تروج لها دورات التنمية خلقت سداً منيعاً بينها وبين حقيقتنا الأصلية..

حاجتنا إلى المعرفة حاجة أساسية ولكن رغبتنا في أن نكون الأعلى والأعلم والأهم والأكثر شهرة يشكل عائقا أمام هذه المعرفة..

في السابق كان المعلم الروحي أو المرشد يضع حجراً على حجر في بناء الفرد أو المريد، يبني تطلعاته ورغباته على أسس رصينة

وقوية، أسس لا تغير المريد حين يعلم المزيد، وحين تنفتح أمامه بصائر العلوم فرغباته لا تميل ولا تحيد.

لقد اختلت الموازين سواء في الحاجات الأساسية أو في مسائل تقدير الذات، فحاجة الأكل لا تعني أن تأكل للتخمة التي تسبب لك الأمراض، والثقة بالنفس وتقدير الذات لا تعني تنزيه أفكارك عن الخطأ، وحاجتك للحب والاحتواء لا تعني ترك أبواب عواطفك مشرعة للجميع، أن يكون لك دوراً في المجتمع لا يعني أن تمثل دور الواعظ المرشد دون أن يمس هذا الوعظ حياتك، فحاجتك إلى الإرشاد أشد من رغبتك في إرشاد غيرك ففاقد الشيء لا يعطيه.

النفس تنشغل بتحقيق الرغبات أكثر من انشغالها بتحقيق أهدافها الحقيقية، ولأن الرغبات غير محدودة، فكلما تحققت رغبة تنفتح قريحة رغبة أخرى وهكذا في تتابع مستمر لا ينتهي، فقد يموت الإنسان ولا تنتهي رغباته..

كن صادقاً مع نفسك، وتفكر جيداً في سلوكك وما تفعل، وتساءل: هل ما أقوم به نابع من النفس ورغباتها، أم يمثل تطلعات ذاتي الحقيقية وغاياتها.

نافذة وعي على العالم الآخر

حين تفتح نافذة غرفتك فجراً يشنف أذنيك تراتيل الطيور وزقزقة العصافير ويهمس في أذنيك حفيف الأشجار من حولك، إلى حين موعد شروق الشمس الذي تنسل أشعتها لتغمرك من فيض عطائها الحنون.

النافذة فتحة بين مكانين أو بعدين تكون في الجدار أو الباب أو السقف.. وهذه الفتحة أو الفرجة تسمح بتلاقي مكانين بحيث ينساب - حين فتحها - ما في الداخل للخارج، وما في الخارج للداخل فيكون بإمكان الرؤية من خلالها حين فتحها، أو من غير فتحها إن كانت مصنوعة من الزجاج المرئي الشفاف. ومن هنا كانت النافذة مشتقة من اسم الفاعل للفعل (نفذ).. ومنها المنافذ، نافذ، متنفذ، استنفاذ.. وكل هذه الاشتقاقات تشير إلى وحدة فكرية تتمحور في الدخول إلى مكان أو الاطلاع على مكان آخر. ومن هنا كانت كلمة المنافذ مكان العبور من مكان إلى آخر أو منطقة إلى أخرى..

لعل البعض استشف من المقدمة ما سنرمي إليه في موضوعنا..!

كثيراً ما نتكلم عن العالم الآخر، والعوالم المطابقة، ولكن هل لهذه العوالم نوافذ حقيقية تطل على عالمنا الطبيعي المادي، وهل نحن مؤهلين كبشر أن نحظى بمثل هذه النوافذ التي نطل من خلالها على العالم الآخر؟ بمعنى هل نحن مزودين بمثل هذه الأدوات التي تعبر بنا إلى الأبعاد الأخرى؟.

في الواقع كما أن المنزل الخالي من النوافذ سجن لا يطاق وكآبة لا تحتمل.. كذلك الحياة بدون نوافذ ألم مستمر ومعاناة وموت بطيء وانحسار لكل ملكات الروح وقدراتها التي تجلت في الإنسان.

وكما أن نافذة المنزل ينسل منها نور الشمس وترانيم الطبيعة، فإن نافذة الحياة يشع من خلالها في أدني مستوياتها طاقة الحياة وفي أرقى مستوياتها النور المقدس والوهج المشرق، الذي يعرفنا بحقيقة أنفسنا ويلهمنا التناغم والحب والسلام بكل جواهر معانيه.

وبالتالي فللإجابة على هذه التساؤلات.. نعم توجد هذه النوافذ التي تتفتح على العالم الآخر. فالله عز وجل زود الإنسان بكل مقومات وأساسيات التواصل مع هذا العالم الآخر. بل إنه جعل هذا التواصل مع أهم القضايا التي ينبغي أن يلتفت إليها.

إن عالمنا المادي كحلقة في فلاة بالنسبة للعالم غير المرئي أو الروحي الذي نعيشه والذي هو سبب حياتنا وحيويتنا واستقرار قوانيننا الطبيعة كلها في الأرض والسماء والكون، فمن دون عالم موازي يحيط بنا ويحتوينا ويتداخل معنا لا وجود لأي شكل من أشكال المادة، لا وجود لنا أصلا، هذا ما أثبته علم الفيزياء الحيوية والكمية مؤخراً وما أكدته جميع رسالات السماء وما توصل إليه حكماء ومرشدي البشرية منذ آلاف السنين، وبالتالي لم يعد الأمر ترفاً فكريا أو شطحة تعبدية أو تصوراً لاهوتياً كما يدعي البعض.

إن تطور الوعي البشري والتقنيات الروحية الحديثة جعلت بمقدور الجميع فتح هذه النوافذ فيما لو أراد الإنسان ذلك وهيأ في نفسه مستلزمات هذا الانفتاح. لذلك من الأجدر بنا قبل أن

نسأل هل هناك نوافذ أن نجتهد ونبحث ونتعلم سبل ووسائل تقربنا من هذا العالم كي يكون جزءاً من منظومة حياتنا..

تختلف نوافذنا وأبوابنا المادية الدنيوية عن نوافذ وأبواب العالم الآخر، ولكنها تشترك في فكرة العبور والنفاذ والاطلاع على مكنون وجوهر الآخر. فقد تفتح نافذة غرفتك وترى الطبيعة والأشجار، لقد قمت بإرادتك وبفعلك وبيدك أنت وفتحت النافذة، أليس كذلك، كذلك هي نوافذ العالم الآخر لا تفتح إلا بإرادتك وبفعلك وبرغبتك، ولكن جهد الإرادة في العوالم الروحية ليس مادياً وإنما هو يتطلب جهداً روحياً، بمعنى أنها لا تفتح إلا حين ترتفع درجة ذبذبتك النورانية بما يتناغم ونورانية العالم الآخر..

هناك من يسعى لرفع هذه الذبذبات بطرق ووسائل شتى لنيل المطالب وتجلي الأمنيات ولكنها تبقى في مستوياتها الدنيا والدنيوية.

حتى في الأمور الروحية هناك من يسعى لنيل الكرامات أو الإطلاع على الغيبيات أو رؤية الهالات أو التلصص على أفكار الآخرين، وغيرها وكلها تقع في المستويات الدنيا..

لقد شبه الله علو الذبذبة النورانية بالطيران أو بالصعود، وعبر عن دنو هذه الذبذبات بالتثاقل إلى الأرض والرضا بالحياة الدنيا. وبالتالي فالقرآن يفسر الالتباس الذي حدث عند كثير من الناس حين اتجه البعض إلى تقنيات زيادة الذبذبات وعمدوا إلى رفعها بطرق عملية تعطى في الدورات التدريبية. في حين أن الذبذبة النورانية تزيد وتترسخ من خلال الملكات الروحية والسلوكية والفكرية..

أن ترفع ذبذبتك إلى درجة طي ورقة أو ثني ملعقة أو تسخين قليلٌ من الماء لا يعني شيئاً في العلوم الروحية، فكل هذه الأمور تندرج ضمن علوم الباراسيكولوجي التي تبحث في القدرات غير الطبيعية. ومع الأسف الشديد يصنف هؤلاء على أنهم روحانيين في حين أن هذا علم يدرس في الجامعات الغربية كجزء من منظومة علم نفس الخوارق.

نوافذ العالم الآخر تفتح من خلال التناغم الروحي بينك وبين هذه العوالم لا من خلال تقنيات زيادة الذبذبات.. زيادة الذبذبات قد تجعلك تحظى ببعض التجليات الدنيوية ولكنها لا تفتح لك أبواب السماء العليا، فتلك الأبواب لا تفتح إلا من خلال باطن نقي، وفكر مستنير، وسلوك سوي، ووعي متوقد.

بل قد تؤدي تقنيات الذبذبات إلى أوهام كثيرة يصعب التخلص منها فيما بعد.

إذا أردنا أن نصقل نوافذنا ونطلع على الأبعاد التي أمرنا الله أن نطلع عليها فنحن بحاجة إلى تصفية شاملة لكل أفكارنا وعلى الخصوص تلك التي تحوي على تناقضات تعمل على تشويش أبعاد التواصل مع العالم الآخر.. ينبغي أن يكون وعيك وفكرك ذو اتجاه واحد، لا تملأ جهاز إرسالك بالمتناقضات وشوارد الأفكار فهذا يعمل على خلخلة المستوى الباطني الذي يتواصل مع نوافذ الأبعاد الأخرى.

نحن لا نشعر بهذا عملياً، ولكنه يؤثر تأثيراً كبيراً في الأبعاد الباطنية، فحين تأكل - على سبيل المثال - يفترض أن يزودك الأكل بالطاقة والحيوية، أليس كذلك.. ولكن ما يحدث أننا نشعر بالخمول والتعب - بعد الأكل - وكأننا استهلكنا كل طاقتنا والسبب أننا نأكل أصناف متنوعة يخالف بعضها البعض من حيث التركيب العضوي ولهذا تبذل المعدة طاقة كبيرة في

تصنيف الأطعمة وهضمها فتستهلك طاقة كبيرة من الجسم للقيام بهذه المهمة ولهذا نشعر بالخمول بعد وجبة الطعام. ونفس الشيء يحدث في الأفكار والمعتقدات التي نزود بها أدمغتنا وعقولنا، فالأفكار المتناقضة التي نعتقد بصحة كلاً منها، وكثرة المعلومات التي تصب فينا صباً، والمرور عليها دون أن نحولها إلى وعي بالتجربة والخبرة، تعمل على إرهاق الباطن وتشويش إمكانية التواصل.

الشيء الآخر..

القلب السليم الخالي من الأنا والمطالب الدنيوية، المصفى من أدران الحقد والكراهية، المحب المتفاني في خدمة الآخرين "الذين يؤثرون على أنفسهم" من أقوى أدوات التواصل الروحي وأكثرها نورانية في العوالم الأخرى ولهذا قال ربنا ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾. ففي طهارة القلب ونقائه تكمن كل الأسرار الروحية.

تختلف نوافذ العالم الآخر باختلاف مستوياته وأبعاده، فالمستوى الأول القريب من المستوى المادي هو بعد الرغائب الذي يصل إليه البعض عن طريق التقنيات العملية، أما القلب السليم فيقفز لما بعد هذا المستوى لأنه يتخطى الرغائب الدنيوية.. لذا نرى البعض ممن نسميهم أهل الله تتحقق لهم أمورٌ ليسوا بطالبيها بطريقة كن فيكون..

لذا لكي تفتح نوافذك على العالم الآخر لا تكلف نفسك عناء البحث عن زيادة الذبذبات بقدر ما تجتهد بتصفية قلبك وتجعله نقيا كاللجين، فالله يغمرك بكل فيوضاته ويرفع درجتك وذبذبتك النورانية لتتناغم والعالم الآخر. فقط ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ وتذكر دائما أن القلب السليم يقفز إلى المستوى الأرفع من المستوى الرغائبي، لأنه ليس بحاجة لأي شيء، لذا سيُوهب كل شيء.

لو صرف الإنسان عمرة كله في السعي لفتح هذه النافذة لا تذهب أيام عمره هباءً، بل إن سعيه سوف يرى.. فهذه النوافذ هي الحقيقة الوحيدة في الحياة التي بمقدورنا الحصول عليها أثناء وجودنا الأرضي..

فنحن لا نملك شيئاً حقيقاً في الحياة سوى حقيقة نوافذ العالم الآخر، فما نملكه هنا ليس ملكاً لنا، سوف نتركه ونرحل عنه، فنحن أوصياء على ما نملك ولسنا مالكين حقيقيين. ما نملكه اليوم سوف يملكه غيرنا غداً.

فالله أراد وقدر هذا السيناريو، والأنبياء وضعوا الإطار والبرواز، والحكماء دلونا على الوسائل العملية لفتح هذه النوافذ والتنعم بالنور المقدس، وبالتالي فإن كل حركة في الحياة دون تحقيق هذه الغاية تعتبر لهواً ولغواً ولعباً وعبثاً وما كانت الكتب السماوية إلا لتقربنا لهذه الحقيقة التي غفل عنها الكثيرون واعتقدوا أن الحياة دار قرار وتمكين واستعلاء وسلطة ونفوذ وتحزب سواء أظهروا هذا أم أبطنوه في قلوبهم ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

لقد أشركوا مع تصور الإله أفكارهم الوضعية الاستقرائية الاستنباطية فأوجدوا لهم بديلا عما أراده الخالق، وفهماً مادياً غير ذاك الذي أوحى به لأنبيائه فعشنا في عصر التيه والضياع ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾..

لقد تركنا أعظم هبة ربانية جاد بها رب البرية على البشرية، وهي وجود هذه النوافذ في العالم الأرضي تتواصل مع العالم الروحي لتمده بالبصيرة والنور والسلام والمحبة، لكي يفهم الحياة وقوانينها ويتحرر من قيد التملك والتبعية لأن ما سيراه عبر هذه النوافذ سيذهل لبه، وينير قلبه، ويعلم كم حجم الضياع الذي نعيشه في عالمنا اليوم.

ابدأ الآن واصقل زجاج نافذتك التي علاها الغبار واطلب من رب الأرباب أن يشرق في قلبك هبات نسمات نوره المبارك حينها ستدرك كم أن الحياة رائعة بوجود هذه النافذة.

نوافذ الحواس الباطنية

هل للصمت صوت..؟ هل للسكون همس خفي، أم هل للهدوء لغة ونغم آخر يُسمع في أعماق النفس البشرية..؟

من الناحية العلمية عندما يقل تردد الموجات عن 20 ذبذبة في الثانية ويزيد عن 20 ألف ذبذبة في الثانية ينعدم الصوت، ويحدث الصمت، فلا تسمع الأذن بعد ذلك شيئاً.

ولكن هل يعني هذا انعدام الأصوات من حولنا حقاً؟.. أم أن حواسنا المادية لا تدرك إلا ما هو محصور في عتبة هذه الحدود..

إذا كنا نؤمن بأننا نعيش في عالمين، عالم المادة وعالم الروح، فذلك يتطلب أن تكون لدينا قدرات سمعية تتناسب وكنه هذه العوالم التي نعيش فيها ومن خلالها، وإذا كانت الأذن المادية تسمع الأصوات المحددة بذبذبات واهتزازات معينة، فإن الأذن الروحانية تتخطى عتبة هذه المعادلة إلى ما هو أبعد وأعمق منها بكثير، لأنها تستمد قواها الفعلية وطاقتها من قوى النفس ذات القدرات عالية التجلي، وهي ما تمثل بوابات ونوافذ العالم الآخر.

فحواسنا الخمسة لها مثيلها في جسمنا الأثيري، فكل حاسة تقابلها نفس الحاسة تشعر بما لا تشعر به الحاسة الطبيعية، إلا أن هذه الحواس لا تعمل بكفاءة لأنها مقيدة بالحواس الظاهرية.

بمعنى: كلما انهمكت الحواس الطبيعية الخمس بالعمل كلما قلت فاعلية الحواس الأثيرية، وكلما هدأت وسكنت الحواس الطبيعية كلما ازدهرت الحواس الأثيرية. حين نعيش حياتنا في صخب وضوضاء وشوشرة وإزعاج دائم تعمل فيها الأذن كامل

طاقتها دون أن يكون هناك فترة راحة تشعر فيها بالصمت - أي لا تسمع شيئاً - فماذا يمكن أن تسمع غير الضوضاء.

إذا كانت عينك لا تغلقها إلا وقت النوم، على الرغم أنها تداول وتلتقط عشرات الآلاف من الصور المتفرقة يومياً، فماذا يمكن للعين الأثيرية أن ترى بعد هذا التشويش البصري.

إذا كان فكرك مشغولاً لا يهدأ ليل نهار، حتى أثناء نومك تراه يقلب في مخيلته أحداث يومه فيضطرب ويصاب بالأرق، كيف يمكن لهكذا فكر مشوش أن يلتقط من الأثير إلهاماته.

كؤوس حواسنا الطبيعية مملوءة على آخرها، وهذا يؤثر بشكل كبير على حواسنا الأثيرية، لأن هذه الحواس تعمل حين تتوقف أو تهدأ الحواس الطبيعية المقابلة لها. لذا ينبغي إفراغ كأس حواسنا الطبيعية لتمتلئ الأثيرية.

إذا أردنا تنمية الحواس الأثيرية ونفتح نوافذنا الباطنية ينبغي أن نوقف عمل الحواس الظاهرية بين فترة وأخرى أثناء اليوم. نوقفها من الجري المستمر في معركة الحياة، لأن هذا التوقف والسكون يجدد طاقة الحياة التي تدخل أجسامنا ويملؤها بالوقود من جانب، ومن جانب آخر يعمل على ازدهار وتفعيل الحواس الأثيرية.

ألا تلحظ أنك بعد خروجك من خلوة مؤقتة أو من تأمل أو بعد حالة صمت، أو حين تكون في مكان هادئ لبعض الوقت، أنك حين تعود لحياتك الطبيعية تشعر أن سمعك أصبح مرهفاً أكثر ويتأثر لأقل الأصوات، وتنزعج من الأصوات العالية، ألا تطلب ممن يكون بالقرب منك أن يخفض صوته وتقول له: أنا أسمعك فلماذا تصرخ عالياً، تكلم بهدوء. ذلك أن الهدوء عمل على تفعيل الحواس الأثيرية التي بدأت تلتقط الانبعاثات ذات الحساسية العالية.

لقد تم اكتشاف جهاز الراديو من خلال فكرة أساسية مفادها أن عالم الأثير يحوي موجات لا يستطيع الإنسان سماعها لتباين اختلاف موجاتها التي تتعدى النطاق المحدود، فكان لابد من ابتكار جهاز صغير يعمل على تجميع الموجات المتناثرة هنا وهناك وفق منظومة كهرومغناطيسية ليبثها على شكل كلام مسموع واضح المعاني، وبالتالي فإنك بمجرد أن تضغط على زر تشغيل الراديو يمكنك سماع آلاف الأصوات التي لم تستطع أذنك الطبيعية التقاطها..

إن قوى النفس تفوق قوتها وفاعليتها قوة الراديو على استقطاب الأصوات في عالم الأثير، حيث يبدأ الإنسان في سماع أصوات من محيط يظن أنه غارق في الصمت، كما يلتقط المذياع أصواتاً من محيط لا يمكننا سماع شيء فيه. وهنا تنتفي كلمة "الصمت" ولا يكون لها وجود، فكل شيء في الكون له إيقاع وشعور وهمس ونغم.

للأشجار والماء والصخر والباب والكتاب، كل شيء من حولنا له إيقاعه الخاص، إذا أصغينا له سنسمعه يبادلنا الهمس، وحين نرفع رؤوسنا للسماء قد نسمع ألحاناً توقظ مشاعر أجسامنا وتقشعر لها جلودنا، وعندما نخلق عالماً من الهدوء والسكون ونعيش لحظات ما بين أريج الأزهار سوف نسمع تسبيحها يدندن بآذاننا، ونسمع صوتاً للرياح لم نعهده من ذي قبل..

ولكن لا يكفي الصمت وحده لتفعيل حدة الحواس الأثيرية، بل ينبغي أن تخلق لنفسك بيئة روحية ووسطاً هادئاً مفعماً بالوداعة والسكون، وسطاً خالياً من الاضطراب والتوتر والضوضاء والإزعاج. فالتماهي بينك وبين الوسط الذي تعيش فيه أمر في غاية الأهمية، فالروحانية النيرة العالية تختار الأماكن الهادئة المنسجمة المتناغمة المفعمة بالحب والسلام

والهدوء. مثل هذه الأماكن تمثل لها قوة جذب فتستوطنها وتحط رحالها في كنفها.

وحين تغمر الذبذبات السماوية اللطيفة هذه الأماكن الساكنة الوديعة الهادئة فإنها ستكون ذات فائدة روحية قيمة للإنسان.

يجتهد البعض ويتعب نفسه كثيراً، دون أن يلتفت إلى هذا الجانب، أن يهتم بمحيطه والمكان الذي يحتويه، فالبعض لا ينقصه سوى هذا العنصر كي يكمل الحلقات. بينما يغرق البعض الآخر في أعماله الاجتماعية والرد على المكالمات وتأدية الواجبات الروتينية في قروبات ومجاميع التواصل الاجتماعي في الفيس بوك والواتس آب، ثم يتساءل عن التأمل والصمت وكيف نجعل آذاننا تسمع همس الملائكة، بالطبع لن تستطيع ذلك.

ينبغي أن نمارس الصمت في حياتنا بشكل عام، ونمارسه في خلوتنا بشكل أكثر تركيزا، ونخلق محيطاً روحانيا حولنا، محيطاً مكانياً بعيدا عن الإزعاج والصخب والضجيج، محيطاً يكون مهبطاً للروحانية عالية الشأن التي نريد سماعها حقاً، فما نفع سماع لا ننتفع بسمعه.

تنفر الروحانية وتبتعد من أماكن الصخب والإزعاج والأصوات العالية، فلا تبقى إلا الكيانات غير المفيدة، ولهذا تأتي الإلهامات والأفكار النيرة للحكماء والمرشدين حين يكونون في الطبيعة الصامتة، ومن هنا نعلم لماذا كان أغلب ما اشتغل فيه الأنبياء رعي الأغنام أو السياحة في الأرض.

التأمل والتفكر والصمت والتدبر آليات وبصائر قرآنية روحية تهدف بالدرجة الأولى إلى فتح مدارك البعد الآخر والعالم الروحاني، لنتنعم بسماع نغم الطبيعة، ولحن الوجود، ونستشعر بحقيقة العالم من حولنا. لا يمكن أن نشعر بحقيقة الصمت ما لم نصمت، فالصمت لغة الحكماء، يغرس فينا شعوراً

قوياً لكل الموجودات، فعلاقتنا به لم تعد علاقة ظاهرية فلقد تجاوزت حدود الحواس الظاهرية الأمر الذي يجعلنا ندور في فلك واحد، حينها فقط نشعر أننا طرف في معادلة كونية واحدة.

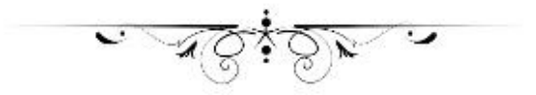

المشاعر بين حالتي مد وجزر

لماذا يحدث هذا بين المحبين؟

تتناوب حالات الوجد والغبطة بين المحبين، فتارة يعيشان في هيام المحبة والغرام وتدفق فيض المشاعر وكأنهما كيان واحد وتوأم روح، وتارة يشعران بالانفصال والوحدة فيكابدان لوعة الفراق وتجشم الآلام..

تارة يعيشان كالريشة يحلقان في آمالهم ويطيران بجناحي الشوق واللقاء، وتارة يشعران بالانكفاء والتشرنق كلا على نفسه لا يود أن يطرق بابه أحد. فهما بين مد وجزر، بسط وقبض، اتساع وضيق، هيام وانكفاء، لطف وقسوة، ود وجفاف، حنان وغلظة، شوق وجفاء.. تختلف مدته وحيثياته بطبيعة الحدث الذي تسبب في هذه النقلة، وكلما كانت صبوة الود عالية كلما كان الابتعاد أشد قسوة. وعادة ما يرجع منشأ هذه الحالات إلى اختلافات فكرية أو نفسية أو سلوكية، فهي لا تحدث تلقائية إلا أن يكون هناك أسباب قوية تفصل بين قلبين متحابين.

لا يحدث هذا في البعد الإنساني فقط، بل يحدث حتى مع علاقتنا بالله سبحانه وتعالى مع فوارق العظمة لذاته المقدسة ومفارقة مكمن الخلل، ففي البعد الإنساني يكون الخلل مشتركاً بينما مع الله يكون الأمر مختلفاً كما سوف نبين. فتارة يشعر المؤمن بحالة من الحب تغمره وكأن أبواب السماء مفتحة له، وتارة يشعر بحالة من الانفصال والقبض والترك و (ودّع) بحيث يشعر وكأن الدنيا ضاقت عليه بما رحبت.

كثيراً من الإخوة والأخوات يتساءلون عن حقيقة تناوب هذه الحالات في حياتهم الإيمانية، وسر انقلاب مشاعرهم من حال

إلى حال؟ لماذا نشعر تارة بشعور عظيم من الروحانية يُخيل فيه أننا أشباه ملائكة نطاول السماء بأيدينا، وبعدها بفترة يقاسمنا شعور الغم والحزن والنكد وكأننا منبوذون من رحمة الله؟

لذا سنتكلم عن هذا الموضوع الذي أرجو أن تتسع له صدورنا سواء من حيث الأفكار، أو من حيث الإسهاب، فكلما حاولنا أن نختصر منه ازداد اتساعاً.

بدون سابق إنذار، وعلى حين غرة، وبدون مقدمات، تجد نفسك تنجذب إلى شعور يفيض بالحب والفرح والغبطة الداخلية، تشعر بحنين عميق لمصدر هذا الانفعال، تستشعر همس من تناديه ونسمات من تصلي لأجله، واحتواء من تؤمن به إلهاً. حنين محاك بخيوط الفرح يتموج بالحب يشدك إليه لترتمي بأحضانه، تشعر بأن كل أعباء وثقل حياتك قد انزاحت عن كاهلك، وأن الفرح الموجود في كل العالم متمركز فيك. حالة الحب هذه تفوق الوصف وكل الخيال، مهما وصفها الواصفون فهم يصفون أذواقهم لا حقيقة ما يشعرون.

ينتابنا مثل هذا الشعور على حين غرة، ونحن نتفكر، أو نصلي، أو أثناء التأمل، أو حين نكون في شدة أو ضائقة، وقد لا يكون نتيجة عملٍ معين قمنا به، فهذا الشعور قد يداخلنا في أي وقت، نشعر خلاله بفيض من الحب المتدفق من الملكوت إلى قلوبنا نشعر بحلاوة في أداء العبادات، تتحول الخلوة إلى أنس لا يضاهيه أنس، لا نشعر بالوقت أثناء التأمل الذي نود أن نبقى فيه أطول فترة ممكنة، نشعر بغربة ووحشة حينما نجالس أقراننا، يصبح تفضيل العزلة أحب إلينا من الجموع الغفيرة التي تخشى من خلالها أن نفقد لذيذ الفرح الباطني الذي نشعر به، والذي قد يضيع بين تراهات الآخرين. يتحول ولعنا بالقيل والقال ومراقبة وسائل التواصل الاجتماعي إلى صمت وهدوء وسكينة، نأسف لهؤلاء الذين أتعبوا أنفسهم بالأعمال والعبادات

دون أن يحظوا بتجربة روحية حقيقية مع الله كما تستشعرها الآن.

تجربة الحب هذه هي أثمن وأسمى تجربة روحية يعيشها الإنسان، تشد كل انتباهه وتخلق في باطنه بهجة من الصعب قطعها أو التخلي عنها.

البعض اختبر هذه الحالة وهو يعلم ما أعنيه، فلا يعلم حقيقتها إلا من اختبرها وعاش شعورها الروحي.

ولكن...

هل تبقى هذه الخبرة الروحية مشتعلة على الدوام؟ هل يبقى هذا الشعور بالحب متدفقاً في قلبه لفترة طويلة؟

أغلبنا لا يمكنه الحفاظ على هذه التجربة لفترة طويلة جداً، وهنا تكون الصدمة الروحية. فبعد أن عاش هذه التجربة الرائعة المفعمة بالحب والتواصل مع عالم النور لمدة شهر أو شهرين تختفي فجأة، وتختفي معها فرحته وتألقه الباطني، يقرأ القرآن، يصلي، يناجي ربه، ولكن لا يجد ما كان يشعر به من حلاوة ولذة! يصلي ركعات فيجد نفسه منهكاً، أين ذهبت تلك الركعات الكثيرة التي كان يصليها بفرح ونشوة، يقرأ القرآن فما يلبث أن يبدأ بالتثاؤب، إنه يشعر كما لو أنه قد فقد شيئاً ثمينا لا يقدر بثمن. قبل أيام كان ينتقد الآخرين أنهم يمارسون عباداتهم وطقوسهم بلا روح، وها هو الآن واحد منهم يمارس عباداته بلا روح وببرودة قلب.

لا يجد تلك النار التي كانت متوقدة في قلبه، لقد انطفأت فجأة كما اشتعلت فجأة. تلاشى شعور القرب من الله، بل بدأ يشعر بحالة بعد وفراق، أين السعادة والغبطة التي كان يشعر بها؟ أين عزيمته وهمته ونشاطه؟ أين حبه في الجلوس في الخلوة لساعات طويلة..

وهنا يبدأ بالتساؤل: ما الذي حدث؟ لماذا لا أشعر بالبهجة والفرح الداخلي؟ لماذا تركني الله بعد أن أوقفني موقف العز والبهاء؟

ويبدأ في مراجعة سلوكياته والتدقيق في أعماله محاولاً معرفة الخلل أو الخطأ الذي أدى إلى ذلك. هو يأمل أن يسترجع ما فقد، وأن ينظر الله إليه مرة أخرى بعد أن يعترف بخطئه ويتوب ويعود إلى رشده ليحظى بالعلاقة والمودة والحب مرة أخرى.

ويسأل نفسه مراراً وتكرارا إن لم أكن قد أخطأت، فلماذا تركني الله ومنع عني فيض بهجته؟ وإذا كان فيض الله على عباده غير منقطع، فبالتأكيد سأكون أنا السبب في ما آل إليه حالي؟ وهنا يلعب الشيطان لعبته ويبدأ في رميه بسيل من الاتهامات الباطلة مما يعزز الفكرة الخاطئة أنه قد أخطأ بالفعل، لذلك يبقى متوسلاً داعيا ربه بالمغفرة على أمل استعادة ما فقد.

وحتى دعواته ومناجاته قد تبوء بالفشل لأنها فقدت روح العفوية والبساطة، فالآن هو يناجي ربه ليسترجع ما فقد، لا ليتنعم بلذيذ مناجاته، تصبح مناجاته ودعواته مع مرور الوقت غير فعالة لأنها خالية من المقاصد الحقيقية. هو أشبه بمن ذاق حلاوة الجنة فترة من الزمن ثم اقتلع من موطنه ورمي به في جهنم، كمن يتمتع بقصر يحوي كل مظاهر الرفاهية ثم أخرج إلى كوخ قديم ليس فيه إلا ما يسد رمقه. لذا يحاول جاهداً ويناضل بكل ما أوتي من قوة ليحرر نفسه من حالة الهجر هذه.. ولكن دون نجاح.

عادة ما يحدث أنه في غضون فترة من الزمن قد تطول أو تقصر، سيشعر الإنسان بأن ثمة شيء يلوح في الأفق، وبأن

الحالة بدأت تعود إليه من جديد، يعود إليه ذلك الشعور فجأة أيضاً، قد يحدث أثناء صلاته، أو في المسجد، أو أثناء التأمل في منتصف الليل، يشعر بأنه قد استرجع ما فقده..

غزارة وجود الفيض الإلهي من حوله، قلبه متوهج بالحب ويشع بالمودة والرحمة، يقرأ القرآن بتلذذ، تنقشع غمائم الظلام من قلبه فيشعر بقوة التواصل.

ولأنه مدرك أنه سبب معاناته وانفصاله عن الحالة الروحية، فسوف يكون في أقصى حالات الحذر والاجتهاد لكي يحافظ على ما تم استعادته خشية أن يُحرم من هذه الحياة الطيبة مرة أخرى. لذا يصبح سلوكه الخارجي أكثر حذراً من أي وقت مضى، يفكر قبل أن يتكلم، لا يقدم لسانه على عقله، بل يجعل لسانه وراء عقله خوفاً أن يتكلم قبل أن يفكر، فأكثر ما يكب الناس على منخريهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم..

ولكن مع كل تلك الجهود المبذولة، سيشعر بعد فترة وجيزة أنه فقد حالة البهجة وانزلق مرة أخرى إلى الكرب والبؤس واللاروحانية في ممارسة الأعمال.

لو سألنا جمعا من المؤمنين العارفين بالله حقاً عن توارد هذه الحالات لاشتركوا في الإجابة عليها بنعم.. فالجميع اختبر مثل هذه الحالات التي ترد عليه والتي لا يعلمون لها تفسيراً، ويرجعون كل أسبابها لخلل في سلوك الإنسان.

حين لا تكون هناك أسباب حقيقية من الإنسان نفسه غيبت عنه هذه الحالة من قول أو فعل أو حوبة أو تقصير في أداء أمر ما أو جهل في المعرفة الروحية، فإن العلماء يعللون هذه الحالة بأن ثمة رسالة يوجهها الله لبني آدم مفادها.. أن الله يريدك أن تكون في معيته على كل حال، سواء في الحالة النورانية أو في حالة المنع، فلا يكفي أن تكون في ذروتك

الروحية حتى تنتابك تلك المشاعر الرائعة، وتتدني في حال حرمانك منها.

لا يكفي أن تحب الله وتسعد به فقط حين تكون في حالة البهجة والتوجه الروحي. فحين تشعر بالسعادة تشعر بوجود الله قريباً منك وتكون في أفضل حالاتك، وحين تفقد هذه الحالة تشعر بأن الله بعيد عنك وتصاب بالإحباط واليأس والقنوط وجفاف المشاعر والألم وتكون في أسوأ حالاتك.

فتكون روحانياً ما دام نار الحب مشتعلا في قلبك، وحين تخبت هذه النار ترجع إلى عهدك القديم..

الله يريدك أن تكون معه في كل أحوالك سواء الروحانية منها أم غير الروحانية، في الفرح والحزن، في الفرج والقنوط، في السراء والضراء.. ولكن هذا التعليل لا ينطوي على كل شيء.. فثمة أمور أخرى نذكرها كالتالي:

أولا:

إن هذا الشعور الذي ينتاب المؤمن العارف هو مجرد شعور وإحساس فقط، وهو ليس كل شيء، فحين يعيش بمشاعره سواء أكانت إيجابية أم سلبية فإن هذه المشاعر تكون مرهفة وسطحية وغير محكمة، هي أشبه بالمشاعر التي تداخلنا في حفل زفاف أو نجاح أو شراء منزل جميل، وبالتالي سوف تتلاشى وتتغير مع الزمن، لأنها ظاهرية وسطحية.

فشعور القرب من الله، يبدأ ظاهريا نتناغم معه لأنه يسبب لنا الغبطة والبهجة، وفي المقابل لو انتابنا شعور القبض فنحن كذلك نتماشى معه كشعور ظاهري وسطحي.

الحياة الروحية الحقيقية لا تعول على الشعور السطحي الظاهري، فالشعور بالبهجة والإحساس المبهج بالإشراق قد لا يعني تجربة روحية عميقة.

كثيراً من المؤمنين حين تنتابهم مثل هذه الحالات يعتبرونها تجربة روحية أو تواصل من مستويات سماوية عالية، في حين أن هذا شعورٌ سطحيٌ بسيط. الإحساس بالسعادة لا يعني أن هناك تماساً واقعيا حقيقياً مع الله فقد تدخل في هذا عوامل كثيرة تخلق هذا الشعور منها تفاعلات نفسية تتعلق بقوى باطنية حدسية. لذلك تراه يأتي على حين غرة ثم يختفي فجأة أيضا.

لذلك نقول روحياً أن حقيقة التجربة الروحية لابد أن تكون نابعة من الله ومن النشاط الغيبي للروح الباطنة، وكل ما عداً ذلك لا يعد تجربة روحية حقيقية.

فكثيراً من الناس تنتابهم العديد من الأحلام والرؤى والخيالات التي توحي إليهم أنهم مرشدون من السماء أو أنهم من عوالم النور أو أنهم من الأرواح الصالحة والأولياء، ولكن يتم كشف زيف ما ينقلونه بعد حين.

لذلك قد يقع كثير من الناس بأخطاء كبيرة حين تداخلهم هذه المشاعر الروحية فيعتبرون أنفسهم المختارون أو أنهم أولياء الله، وهو لا يدرك أن هذا ما يشعر به فقط. فشعوره هو الذي يفرحه حين يشعر أنه قريبٌ من الله، وذات هذا الشعور يحزنه حين يشعر أنه بعيدٌ عن الله، إذن فالأمر متعلق بالشعور، وهل كل ما نشعر به حقيقة؟

يعتقد أنه يحب الله حين يشعر بحرارته في قلبه، وفي حالة عدم الإحساس بهذه الحرارة يستنتج أنه فقد محبته له حقاً، ويجهل أن هذه ليس أكثر من مشاعر، فالله موجود في كل الأحوال، فالحقيقة لا تتغير.

قد يشعر أنه يحرز تقدما روحيا من خلال هذه المشاعر ولكنه في الحقيقة لا يتقدم، وقد يشعر أنه يتراجع في حال القبض ولكنه ليس كذلك. هي مجرد مشاعر وعاطفة سرعان ما تهدأ ويرجع إلى حالته السابقة.

ثانياً:

هذه المشاعر تمنح السعادة للمؤمنين لتجعلهم أقرب إلى الله، تجعل المؤمن يرى بصيصاً من شعور الغبطة الذي لا يوازيه أي شعور دنيوي. فحين يرفع كفيه في حال المناجاة، أو التأمل يُشعره بحالة الغبطة والفرح الباطني ويملأ قلبه بالنور والحب، فيعرف أن ثمة شيء في غاية الروعة ينبغي أن يطلبه ويسعى لتحقيقه، كالطالب الذي يأخذه أبوه إلى شركة السيارات الجديدة ليريه ما سيحظى من هدية إن اجتهد في الحصول على نتائج جيدة في الاختبار..

فالمشاعر قد تساعد بعض الناس على رؤية ما يمكن أن يصلوا إليه، أو يتذوقوا حلاوة ما يؤمنون به، ولكن التقدم الحقيقي لا يكون إلا من الروح والله فقط.

ثالثاً:

تناوب حالات الفرح والحزن إحدى الطرق والوسائل الربانية التي يعلمنا الله من خلالها كيف نسيطر على قوى النفس وإيحاءاتها السلبية وانتشالها من أوحال الأنا والتعلقات الوهمية، فالله يستخدم هذه الطرق ليعلمنا ويقودنا إلى المعرفة الروحية الحقيقية.

فحين تنجلي حالة البهجة والبسط تسقط حينها أصنام الأنا التي نظرت إلى الآخرين نظرة احتقار وفوقية وأنهم عديمي الفهم ولا يفقهون حديثا، فكثيراً منا حين يعيش حالة البسط والبهجة تراوده هذه المشاعر تجاه الآخرين.. لقد أصبح الآن واحداً منهم.

حين تعلم أن حالة الغبطة والبسط التي تتنعم بها ليست ملكاً لك، بل هي هبة من الله لينظر ما تفعل بها، يجعلك تعيد حساباتك من جديد، وتنشد من خلالها قمم التواضع ونكران

الذاتية والعطاء والإيثار ونقل ما تعيشه للآخرين برفق ورأفة وحب..

لذلك لو أدرك الإنسان أن شعور الغبطة والفرح الداخلي يهدف الله من خلاله مساعدته لمعرفة نفسه لتعلم كيف يعيش في كنف هذا الشعور، ولو أدرك أن حالة القبض هي كذلك لمساعدته في معرفة نفسه لطلب المزيد من الحرمان والبؤس والإملاق، ومن هنا نعلم لماذا كان العارف بالله يقول: "ربي زدني بلاء ومحن".

لذا لا تذهب بك الظنون، أن حالة البسط تعني اجتباء وتقدم روحي، وحالة القبض تباطؤ وانحسار روحي، فنحن نتقدم في الحالتين أو نتراجع في كلاهما معا. لذلك يقول العارفون: "ربما أفادك في ليل القبض ما لم تستفده في إشراق نهار البسط، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا".

رابعاً:

ينبغي للمؤمن أن يكون جوهر وعيه قوياً راسخاً لا يتأثر بالمشاعر البينية والانفعالات النفسية والتغيرات الطبيعية. فمن يتأثر بالبيئة والمحيط ليس له خبرة حقيقة بالتجربة الروحية. المشاعر هي التي تتأثر بتقلبات الأحوال والبيئة والتي من ثَم تغير حياتنا برمتها، لذا ينبغي أن نحتوي مشاعرنا وعواطفنا لكي نسيطر على حالة التذبذب التي نعيش فيها. تتأرجح حياتنا تبعاً لمشاعرنا المتقلبة لذا من الضروري أن نتجاوز إحساسنا حتى لا تتأرجح حياتنا تبعاً لإحساسنا المتغير.

ينبغي أن لا ننجرف مع تيار المد والجزر. الله يريدنا أن نبقى على ما نحن عليه سواء شعرنا به أم لم نشعر، أن نُسلم له ونؤمن به سواء كنا في حالة سعادة أم حزن. ينبغي ألا نصيغ تشكيل حياتنا وفق ما نشعر به فقط، بل وفق قناعات الوعي والفهم

والإدراك والبصيرة الثابتة في أعماقنا وهذا ما يريده الله من تغير الأحوال.

خامساً:

تغير الأحوال تجربة واقعية للإرادة البشرية.. فالله يختبر الإنسان بأنواع مختلفة من الأحاسيس كالشعور بالضجر والقنوط والبؤس واليأس لإرغامه على ممارسة إرادته الروحية، وبالتالي ينجز الأعمال ويقوم بالعبادات كما لو كان في حالة البهجة العاطفية.

فالإنسان حين يكون سعيداً ممتلئا بالبهجة فإنه يقوم بالعبادات بكل أريحية وأنس وإقبال. الله يريد أن يغير هذه الحالة، فيجعله في حالة من الضنك والبؤس بدلاً من حالة البهجة والاندفاع الروحي لكي يُفعّل إرادته ويقوم بالأعمال إراديا وليس عاطفياً، فالإرادة هنا تقوى تدريجياً لأنها لا تتلقى مساعدة من الشعور. وبالتالي نقوم للصلاة بإرادتنا حتى ولو لم يكن هناك شعور باطني قوي يدفعنا لذلك.

عادة تلقي الأم على مسامع ولدها محاضرة تحفيزية حتى يقوم لأداء صلاته بعد كل أذان. هو يحتاج إلى تحفيز عاطفي مشاعري، في حين أن الله يريدنا أن نقوم للصلاة والتأمل وقراءة القرآن حتى دون أن تكون هناك محفزات عاطفية لما نقوم به، لذلك قيل: "إذا أعطيت بسطك العطاء، وإذا منعت قبضك المنع، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك في عبوديتك".

سادساً:

عبر الانتقال من حالة إلى أخرى، يقود الله المؤمن إلى مستوى أعلى من الوجود، ففي كل حالة يحصل فيها الإنسان على ذوق مختلف من هذه المشاعر الجياشة والتي من خلالها يكتشف

محطة أخرى في رحلته الروحية. فإذا استفاد من مشاعر الغبطة وحولها إلى وعي يتحقق بالإرادة فقد أحرز تقدما في مسيرته الروحية.

فتقلب المؤمن بين حالتي البسط والقبض اختبار لأحد قوانين الله الروحية، فما يتم الشعور به حال البسط ينبغي تأكيده وتثبيته والحفاظ عليه كتجربة تخزن في الوعي وتحفر في أعماقه. الله سبحانه وتعالى يسحب منا شعور الغبطة فقط (في حال القبض)، لأنه يريدنا أن نمارس إرادتنا ووعينا لفعل ما كنا نفعله أثناء الغبطة الروحية (البسط). وسوف نكتشف بعد ذلك أن ما تم فقدانه في شعورنا أصبح بلا وعي جزءاً من حياتنا.

إذن..

نستطيع أن نقول: أن حالة البسط والقبض التي يتلمسها المؤمن في حياته هي حالة طبيعية يتعرض لها الجميع دون استثناء، ليس لها علاقة بتطور الفرد وتدني مستواه سواء في قربه أو بعده عن الله، فهذه الحالة جزء من قانون روحي مفاده أن حالات النشوة والألق الروحي التي يشعر بها المؤمن إنما هي صور ينبغي أن تطبع وتحفر في وعيه. بمعنى أن إفاضة الله عليه بالشعور الروحي ينبغي أن لا يذهب هدراً وإنما يتوجب تثبيته في الوعي بحيث يعيش الإنسان في وعي هذه الحالة باستمرار ويوجه حياته وفق الرؤية الروحية التي يعيشها.

فالمشكلة إذن تكمن في الوعي والإرادة.. إذا كانت إرادتنا موجة خاضعة لله ولنفحته في أعماقنا فلا خوف ولا قلق على الإنسان حين يكون في حالتي البسط أو القبض، لأن وعيه الباطني ثابت لا يتغير، فأمواج البحر لا تؤثر في حركة الأسماك التي تسكن

العمق لأنها تتجاوز تقلبات الأمواج، وكذلك هو الوعي القابع في الذات.

إذا فهمنا الحكمة الإلهية من تبدل الأحوال فسوف نعزز تجربتنا الروحية، بل ونتقدم فيها أشواطاً نحو الأمام، ولكن حين نتماهي فقط مع المشاعر.. إن كانت روحانية فإننا نصبح سعداء، وإن كانت منفصلة أو مقبوضة فإننا نشعر بالتعاسة والهم والضيق، هنا نكون قد فشلنا في فهم وإدراك وتحول الفرح والغبطة من مجرد شعور إلى وعي بحيث يكون جزءا من شخصيتنا.

بمعنى حين أعيش لحظات ممتعة في عالم من الصمت، سوف أشعر بحالة روحية مفعمة بالنورانية، ينبغي عليّ أن أمتص هذه الحالة وأثبتها في الباطن لكي أعيش وقائعها طوال اليوم، ومن ثم طوال الأسبوع، ومن ثم طوال حياتي.. أو ما تبقى منها..

عادة حين نخرج من الصلاة أو من جلسة التأمل تتلاشى آثارها الروحية بعد ساعة أو خلال دقائق معدودة لأننا لم نستثمر هذه الحالة في الباطن، لم نثبتها في وعينا الذاتي.

مثال آخر: أنت قد تبذل جهداً في توجيه شخص ما وتنصحه أن يغير سلوكاً من سلوكياته.. فيوافقك الرأي على ضرورة تغييره.، ولكنك تفاجأ أنه يقوم بنفس السلوك القديم الذي وعدك أن لا يقوم بتكراره، لقد وافقك الرأي من باب الشعور والعاطفة فقط.. ولكن بقي مجرد شعور لم يثبت في إرادة الباطن، ولو ثبت في الباطن لأصبح من الصعب تكرار السلوك المنهي عنه لأنه سيراه دائما نصب عينيه.

لذلك نحن نتأثر عاطفيا وشعورياً حين نسمع عن بشاعة الغيبة والنميمة والكذب والنفاق وأكل حقوق الآخرين.. إلخ، ولكننا نقوم بها بكل أريحية لأنها لم تثبت في إرادة الباطن

وتحفر في وعي الذات، ولو كنا نثبت كل ما نسمع من كلمات وخطب أو ما نقرأه في الكتب والدراسات وما نستلهمه من عبر الحكماء لتغيرت حياتنا كثيراً. الله عز وجل يريدنا أن نعيش حالة الحضور وليس حالة الشعور..

أي أن نتغير من الداخل بحيث مهما تغيرت أهواء ونسمات المشاعر تبقى هناك يقينيات ثابتة في أعماقنا لا تتغير ولا تتبدل، الله يختبرنا في حالة الحضور، وما يثبت في الباطن هو ما سوف نحاسب عليه، فقد نصلي سنوات طويلة ولكن كم لحظة من هذه الصلاة تم تثبيتها ونقشها في الباطن.

في يوم ما كان بعض الأصدقاء يغمى عليهم من البكاء والنحيب والصراخ لتأثرهم في برامج الأدعية الروحية.. ولكن أين هم الآن..؟

من يمشي بمشاعره ويتأثر بها عادة ما يكون ضعيف الإرادة ضيق الأفق خافت الوعي، غير قادر على إتباع التوجه الروحي الباطني.. هو لا يزال متأثراً بالظاهر، بأمواج البحر ولم يغص لأعماقه بعد. وهذا يعوق تطور الإحساس الأجمل والأبهى والأعمق وهو الإحساس الروحي الذي يتلقى الفيض الإلهي من المستويات العليا. لذلك كثيراً ما نسمع العبر، ولكن ما أقل المعتبرين.

ينشط الوعي الباطني حين تكون العاطفة والمشاعر هادئة متزنة غير متقلبة، وفي هذه الحالة يتم تثبيت ما نمر به من تجارب في الباطن. ويحدث العكس كذلك، فحين تكون الإرادة ضعيفة والوعي محجوباً ذابلاً هنا يحتاج المؤمن إلى المزيد من الشعور والإثارة لدفعه وترغيبه في العمل.

يقول: "حين تحدثني أشعر بتغير كبير في حياتي، ولكن بعد أيام أرجع كما كنت سابقا، أريدك أن تكون معي باستمرار" هو

يتأثر شكلياً مشاعرياً لا إراديا بما يسمع، ففي كل عمل وسلوك يقوم به يحتاج إلى دفعة شعور وعاطفة ليقَوم سلوكه، هو عاجز عن فعل أي شيء بمفرده لأنه يعتمد على تفعيل العاطفة التي تدفعه للعمل أو التغيير.

ومع الأسف الشديد أصبح الكثير أسرى عواطفهم الأفيونية يبحثون عن المشاعر باعتبارها ذروة الحياة الروحية بسبب الخداع الذي يمنحه الشعور، ففي لحظة النشوة العظمى والألق الروحي لا يشعر المؤمن بحب الله له فحسب، بل يشعر أيضا بحبه الشديد تجاهه. وبالتالي فإن مشاعرنا تجاه الله تكون رهن مشاعرنا الشخصية من جانب، ومن جانب آخر نكون نحن من يحدد إن كان الله يحبنا أم لا..! فهل نحن أوصياء على الله، هل نتنكر لحب الله الذي خلقنا لأن مشاعرنا تشير إلى غير ذلك؟ هل شعور الدفء القلبي بالله هو من يحدد قرب أو بعد الله عنا؟

وهنا سؤال لابد من الاعتراف به، هل نحب الله عندما نكون في حالة التألق الروحي والبهجة الروحية، أم أننا نحب شعور البهجة والتألق التي منحنا الله إياها؟ هل نحب الله أم نحب البهجة التي تولدت في قلوبنا؟ وبالتالي فإن حزننا في حالة القبض، وانشراحنا في حالة البسط يتحدد في الإجابة على هذا السؤال.. فمن جعلك تشعر بالانشراح هو نفسه من جعلك تشعر بالضيق والحزن. أليس من أشعل قلبك بمحبته هو من أطفئ هذه الشعلة، فهو من يهبنا حالة الفرح وهو من يسلبها منا ليعرفنا أمراً في غاية الأهمية.. أننا هل نحبه لذاته أم لهباته؟ إذا أحببنا الله فعلاً ينبغي نحبه تحت أي ظرف قد يضعنا فيه.. فقد نشعر في لحظة ما أن ما نحبه ليس هو الله بل شعورنا الشخصي بالسعادة والغبطة.

فقد نسيء التفسير على أن ما نشعر به هو الله ذاته، دون أن ندرك أن هناك فرقاً كبيراً بين الله وغبطته. ولن نعلم هذا

الفرق ما لم نراقب أنفسنا في كلا الحالتين، حين تكون قلوبنا كالينابيع المتفجرة بالحب والبهجة، وحين تكون كالصحراء الجرداء خالية من كل مظاهر الحياة.. في كلا الحالتين نقيس صدق حبنا لله، وفي كلا الحالتين نختبر عقيدتنا في يقين حب الله لنا.

حالة التألق الروحي أو الغبطة الروحية من عطايا الله التي نفرح ونسر بها كثيراً ونخر ساجدين لمنحها إيانا، ولكن ينبغي ألا تمر علينا مرور الكرام، لأنها ستسلب منا بعد فترة، ينبغي فهمها وإدراكها والاستفادة منها والأهم من كل هذا أن تتحول إلى وعي حقيقي نثبته ونحفره وننقشه في الباطن حتى إذا اضمحلت واختفت نعيش في نفس حالة وجودها.

أن نستمتع بها ونفرح ببهجتها دون أن نستفيد منها، نكون كمن يعطينا كأساً من ماء الحياة، فنأخذه فرحين سعيدين لحصولنا عليه ولكن دون أن نشرب منه أو نتذوقه ونثبت مذاقه في جوفنا. فالله يهبنا هذه التجربة لنستفيد منها مرة وثانية وثالثة ورابعة.. ولكنها قد تتأخر علينا بعد ذلك.

يريدنا الله أن نعيش حالة الوعي الروحي باستمرار، يريد لوعينا أن يسيطر ويهيمن على عواطفنا ومشاعرنا وعاداتنا ليس من أجل نفيها أو التخلص منها، فالمشاعر أمر مهم ولكن ينبغي تتحول هذه المشاعر إلى وعي روحي عميق يحفر في الذات الحقيقية. أن يكون المحب في قلب الحبيب وفي كنفه وحنانه مهما كانت الظروف والمتغيرات، أن يكون وعيه ممتلئا بوعي الحبيب لا يميل عنه ولا يحيد.

إذا لم نفهم بعمق حالة البسط والقبض.. الانشراح والانكفاء.. البهجة والحزن.. فإننا قد نقع فريسة سهلة للشيطان.

حين نشعر بحالة من الانغلاق والضيق والفراغ الوجداني قد ينصحك صديق بالذهاب إلى دورة ما لكي يتم برمجتك فيها

على الفرح والسرور وتحقيق الرغبات والأماني، فتتم برمجة المشاعر على نغم السعادة وتحقيق المعجزات، وبالفعل تشعر بفرح داخلي وكأنما قد انتشلت من الظلام وزج بك في عالم الأنوار.

تلعب هذه البرمجيات على أوتار المشاعر التي تشارك فيها قوى غيبية متدنية تقوم بتزويدهم بإيقاعات مختلفة ومتنوعة. تبدأ في النظر إلى الحياة نظرة إيجابية منفتحة وتنتهي بجمع الثروات والأموال وتحقيق المعجزات والاكتفاء الذاتي. تتم برمجة مشاعره بالنوايا والجذب ومن ثم السيطرة عليها، ويتم حثه على اختبار أحاسيسه ومشاعره الجديدة الخارقة كأن يتمنى شيئا فيتحقق أو يرغب في شيء فيحصل عليه بسهولة ويسر، أو يشتكي من علة ما فتختفي فجأة، أو تحل بعض مشاكله الشخصية بطريقة عجائبية..

وحيث يختبر الإنسان هذه التجربة بنفسه فإنها تثبت في وعيه النفسي، ولا يمكن لأحد بعدها أن يشككه فيها، ويجد نفسه أكثر روحانية وحباً لله الذي وهبه هذه القدرات ليتمتع بها في الدنيا، هو لا يعلم أنه وقع في شباك قوى عوالم أخرى لا تريد له التقدم الروحي.

وطالما كانت هذه خدع الكيانات الغيبية المتدنية على مر العصور والتي انزلق فيها الكثير من المؤمنين وكبار المرشدين.

هو لا يعلم أنه حين كان في حالة الكرب والغم والضيق أفضل بكثير من حالة الفرح التي يشعر بها بعد انتهاء دورته. كما ذكرنا سابقاً "ربما أفادك في ليل القبض ما لم تستفده في إشراق نهار البسط، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا".

اطلعت على منتديات في غاية الخطورة يشارك فيها آلاف المسلمين تستعرض مثل هذه القدرات الخارقة والكل يبوح فيها بأسراره وما حققه من انجازات وما تحققت على يديه من كرامات..

لقد سقط عدد لا يحصى في براثن وشراك القوى المغيبة عنا منذ القدم، بخدع في غاية الإتقان والإحكام بحيث يُخيل إليهم أنها من صنيعة الله وتحت مظلة كلماته، ووفقاً للسنن الكونية، لأنهم غير مدركين أن قوى الشر والأرواح الشريرة يمكنها أن تؤدي هذا الدور، غير واعين أن شعور الغبطة أو الحزن قد لا يكون من الله، بل من عوالم أخرى.

علماء الروح يؤكدون أن من بين عشرة أشخاص تنتاب تسعة منهم هذه المشاعر التي لا تكون نابعة من الله، بل من عوالم أخرى تريد تغيير مسيرة الإنسان وفق الرؤية التي تراها.

سقط هؤلاء ببساطة لأنهم يسيرون خلف مشاعرهم فقط، فيكونون لقمة سائغة لقوى الشر المختلفة التي تتلاعب بهم، هم لا يعيشون حياة روحية، لا يعيشون حقيقة الوعي الروحي..

المؤمن ينبغي أن يهرب من حياة المشاعر المثيرة، ما نراه على شاشات التلفاز أو في المنتديات أو الدورات يلعبون على أوتار المشاعر، لكي يبقونا أسرى مشاعرنا نتقلب وفق أشرعتها حيثما تريد وتهوى.

المؤمن ينبغي أن يعرف حدود جسده ومشاعره، فلا يسمح لأي مشاعر خارجية تفد عليه بل يقاومها بكل ما أوتي من قوة، فما يبحث عنه في الخارج مكنون في باطنه وهو ما يستحق إتباعه والسير على خطاه..

أن يكتفي بروحه وبالله فقط فهما كفيلان بتغيير حياته.

الله يريدنا أن نمتلئ بالسعادة الحقيقية غير الوهمية، سعادة الوعي لا سعادة المشاعر الآنية، في كل أحوالنا الصعبة والمفرحة ينبغي أن نعيش حالة الرضا والفرح الباطني، لأننا نعلم أنه المعطي والمانع، الباسط والقابض، والواهب والآخذ، ونحن في كل هذا نسير وفق إرادته وتحت نظر عينه التي لا تنام. فلا نبالي

سواء وقعنا على الموت أم وقع الموت علينا، فالمحب الحقيقي هو من يتغلغل في عمق الحبيب ويكتشف أسراره وخفاياه ومن ثم يجعل وعيه الروحي يتناغم مع سيرة حياته الأبدية.

أصمت.. لتنصت.. لترى

الثقة واليقين بأن الله يسمع صوتك هو ما يؤسس علاقة روحية عميقة معه.. هذه العلاقة قد لا تكون لدى المتدين فقط بل قد تكون لأناس طيبين عاديين ولكن تتملكهم ثقة كبيرة بأن الله يسمع كلامهم لذلك فهم يُسرون إليه ببعض شكواهم ويطلبون منه إصلاح حالهم.. ثقتهم الكبيرة بأنه يسمع نجواهم أعطتهم قدرة كبيرة على اكتشاف الحلول التي يبحثون عنها.

ما من مؤمن إلا ويعتقد بأن الله يسمع صوته.. ولكن ما مقدار هذا الاعتقاد وهل تحول إلى ثقة ويقين بمرور الزمن أم بقي مجرد اعتقاد تبرمج عليه منذ الصغر؟

حين تصل إلى ثقة كاملة بأن الله يسمعك في كل الأوقات وليس في وقت الصلاة أو الدعاء والمناجاة فحسب، فإن هذا الأمر يحدث نقلة روحية عميقة في علاقتك بعالم الغيب، ويفتح لك باب المؤانسة والقرب.. الباب الذي أغلقناه منذ أمد بعيد، والذي تم تجاهله في معظم الأدبيات الدينية، فعلاقتنا بالله تنحصر بالعبادات والتكليفات الشرعية لا غير، أما أن تفتح بينك وبين الله باب الحوار والمؤانسة فهذا ما لم يتم التركيز عليه. حتى في الأدعية والمناجاة ينبغي عليك قراءة الموروثات والنصوص الدينية فقط لا غير.. صحيح أن هذه الموروثات جاءت من أرواح طاهرة عالية المقام إلا أن هذا لا يمنع أن يكون لك حواراً خاصاً شخصياً مع الله سبحانه وتعالى، تخاطبه بلغتك الخاصة، وهذا لا يحدث إلا حين تثق بأن الله يسمعك.

ثقتك بأن الله يسمعك يفتح باب الحوار الشخصي على مصراعيه، ولأن الحوار لا يكون إلا من خلال طرفين.. لذلك فإن ثقتك بسماعه صوتك تستوجب ثقة أخرى برده عليك، فهو لا يسمعك فقط وإنما يرد عليك.. هو لا يصغي لك فقط وإنما يستجيب بالرد على كل ما تسأل، ولكنك لا تسمع. لأن رده عليك يكون من اللطافة بحيث لا تستطيع حواسك المضطربة التقاطه، ومن هنا فقدنا الثقة بسماع رده وبالتالي انكفأنا وامتنعنا عن الحديث معه، وأصبح كلامنا معه يدور في حدود الواجبات أو بعض المستحبات.

لذلك أكدت كل الأديان والمدارس الروحية على ضرورة السكون والصمت والسكينة والهدوء كي نسمع هذه الردود المباركة التي عادة ما تأتي عبر وسائط الملائكة أو الأرواح العليا.. فحين تهدأ جوارح الإنسان ويتوقف هدير عقله ويسكن قلبه يستشعر همساً يلقى في قلبه، أو إلهاماً يرتسم على شكل كلمات يجد من خلالها حلاً لمعضلات أو كشفاً لمشكلات، أو يجد الرد عن طريق الإشارات التي تقع في محيطة أو قريباً منه.

لا تصّغر من قدرك وتقول: "من أنا كي أتحدث مع ملك الملوك وعلام الغيوب وأسمع نداءاته أو أتلقى إلهاماته أو أعاين إشاراته".. أنت تحكم على نفسك بما لم يحكم به الله عليك. التفكير البشري لا يعول عليه أمام الرحمة الإلهية المباركة.

نحن لا نأمل شيئاً خلاف ما أملنا به الله، فهو الذي يحثنا ويدعونا لهذا، بل ويكون هو المنتظر لنا "عبدي إن أتيتني نهاراً قبلتك، وإن أتيتني ليلاً قبلتك، إن تقربت إليّ شبراً تقربت إليك ذراعاً، وإن تقربت إليّ ذراعاً تقربت إليك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة".. لذلك مهما كنت وبأي مكانة تضع نفسك فيها ثق أن الله يسمعك لأن ثقتك هذه ستغير حالك إلى حال آخر.. حين يدخل النور إلى مكان كان مظلما لعشرات السنين

فإن النور سيبدد هذا الظلام دفعة واحدة.. سيتلاشى الظلام كلمح البصر.. وبالمثل حين نهدأ ونصمت ونستمع ونصغي سنسمح لنور الله أن يدخل قلوبنا وعقولنا ووعينا وحياتنا كلها، وهذا النور سيبدد الظلام وستتغير حياتنا دفعة واحدة.

حين يقلقك أمر ما أو يساورك شك في أمر استعصى عليك حله، اسأل الله واطلب منه أن يريك ما أضمرت معرفته، أفرغ خلجات قلبك له، كلمه باللغة التي تريدها دون تكلف أو خوف، وإذا وثقت وتيقنت أنه يسمعك فأنصت وعش حالة السكون وتعمق في داخلك ستتلقى إجابة لما سألت، إما بإلهام أو وقع بالقلب، أو بإشارات تفهم مغزاها.. تأتيك الإجابة من فورك ولكن قد تستغرق وقتاً حتى تتلقاها وتدركها وتفهمها.. في العالم العلوي "اسأل تجب" أما متى نتلقى ونستقبل الإجابة فهذا منوط بنا وليس به، كلما تعمقت أكثر كلما أدركت الإجابة أسرع وأوضح..

بقي شيء آخر..

يقول البعض لو أن الله يستجيب دعاءنا لكان دافعاً وحافزاً قوياً يجعلنا ندرك حقيقة هذا الاتصال وبالتالي يسهل علينا تحقيق ما ذكرته فيما يتعلق بتلقي الرد والحوار؟

يغفل البعض أو الأغلب عن الكم الهائل لرغباتنا التي تتحقق ودعواتنا التي يُستجاب لها، لأننا عادة لا نلتفت إلى ما يتحقق بقدر تركيزنا على ما لا يتحقق. نحن لا نشعر بالأمن والأمان والصحة والوفرة والسلام والطمأنينة والمعيشة والرفاهية وغيرها من أمور كثيرة إلا حين نفقدها، في حين أن من يملك حساً روحانياً يتلمس آثار هذه النعم باستمرار ولا يغفل عنها. أي أن يعيش في حالة انسجام تام مع كل الهبات الممنوحة له.. هو يشعر بنبضات قلبه، بسريان الدماء في عروقه وانسيابها

بأعضائه، يشعر بالهواء الذي يتنفسه ويتذوق الماء الذي يشربه، يشعر بوقع أقدامه التي تحمله، يشعر بالأرض التي يطأ عليها، يشعر بنعمة البصر حين يرى الأشياء من حوله.. هو يشعر بكل شيء، لأنه يعيش حالة الحضور الآني مع جسده الباطني والخارجي.

ندعو الله أن يمن علينا بالصحة والعافية ولكننا لا نتلمس آثارها في أجسادنا إلا حين نمرض.. ندعوه أن يوفر لنا مستلزمات المعيشة ونحن نتشرب بها كل يوم دون أن نلتفت لها.. ندعوه أن ييسر حياتنا ويسهل أمورنا ولكن حين نركب السيارة وتشتغل كما ينبغي لا نشعر بأنه قد استجاب لنا دعاءنا.. لأننا نعتبر أن هذا أمراً طبيعياً ينبغي أن يحدث فلا نلتفت إليه.

إن استشعارنا الدائم للنعم الجسدية وللنعم التي تحيطنا سيُفعل المستويات الباطنية التي تتفتق وتتفتح كالأزهار وتتعمق في المستويات العميقة للذات، فلحظة استشعار النعم يجعلك تعيش حالة الحضور ولو لبرهة من الزمن، تتخلص في هذه البرهة من الأفكار والشوارد الذهنية، فتكون في قمة طاقتك وحيويتك بلا أفكار شاردة أو منغصات نفسية أو خيالات وهمية. فأنت تعيش في حالة من الانسجام الجسدي الذي ترتسم معالمه في الباطن. ولهذا وردت كلمة الحمد كأول كلمة في القرآن الكريم كله بعد البسملة، لأن الحمد هو حالة الحضور واستشعار للنعم الظاهرية التي تتطور فيما بعد لتحتوي النعم الباطنية وتوثق رباطها بمفهوم الألوهية وبالله عز وجل. ومن هناك نعلم كذلك لماذا تركز كل تقنيات التأمل على مراقبة التنفس أو ضربات القلب في البداية وقبل الدخول لمستويات أعمق.

من المهم إذن أن نراقب العطاء اللامحدود لما نملك، وأن نستشعر بما لدينا، فعدم شعورنا بما نملك يسبب فجوة لما نطلب، فكثيرا ما نطلب ما لسنا بحاجة إليه.. سوف يعطيك ما أنت

بحاجة إليه ولكن لتعش حالة الحضور مع النعم التي وهبها إياك أولاً.. لأن عيشك واستشعارك بها سيفتح قنوات جديدة وعميقة لتلقي المزيد من العطاء، لأنك كلما تجاوزت مرحلة فتحت أمامك مراحل أخرى، فإن كنا في غيبة عن المراحل الأولية كيف لنا أن نحقق المراحل التالية.

أوحى الله تعالى إلى نبيه داوود عليه السلام: "يا داوود تريد وأريد ولا يكون إلا ما اريد، فإن سلمت لي ما أريد آتيتك بما تريد، وإن لم تسلم لي ما أريد أتعبتك فيما أريد.." الله لا يريد منا سوى الالتفات إلى النعم الظاهرية وربطها بالمنعم وهو ما يفتح باب النعم الباطنية ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

لذلك لا نجد روحانياً أو عارفا يسال مثل هذا السؤال حياء من الله الذي أنعم عليه بالعديد والعديد من الأشياء وحقق له الكثير من الامنيات واستجاب له العديد من الدعوات.. ومن هنا قيل: "طلبك منه اتهام له.." بمعني أننا حين نطلب منه شيئاً فكأننا نتهمه بعدم رعايته لنا، أو كأنه غافل عما نحتاج إليه، غير مطلع عما يصلح حالنا.. وأننا حين نطلب منه شيئاً فكأننا ننبهه إلى حاجتنا إلى هذا الشيء، في حين أن التنبيه لا يكون إلا للغافل وجل الله تبارك وتعالى عن هذا.. كما قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو الكاف لنا في المهمات ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.. وما يصلح حالنا وما هو مقسوم لنا سوف يصل إلينا عاجلاً أم آجلا حتى أنك لو سألته أن يمنعه عنك ما أجابك.. أما دعاؤهم له كما جاء في القرآن الكريم: "أدعوني.." فإنما هو عبودية لطلب المزيد من الحكمة والفهم والقرب والمعرفة لا طلباً للقسمة أو لشيء من متاع الحياة.

كثيراً من طلباتنا إنما تكون لأمور نحن من تسبب بها، نحن من خلق الخلل والشائبة والنقص ثم نطلب من الله أن يصحح المسار، الله يريدك أن تكون في حالة وعي كي تصحح أخطاءك.

حين يعاني البعض من أمراض بدنية، مشاكل عائلية، حالات نفسية غير سوية، عرقلة في أمور المعيشة، ثم يطلب من الله الشفاء أو حلاً للمشاكل، هنا قد يكون الجواب: "إرجع إلى نفسك ووعيك كي تصحح ما أنت فيه".. هو يرشدنا ويضع أمامنا الحلول ولكننا نتجاهلها ولا نعيرها أي اهتمام. ولا يعني هذا عدم تدخل الله ومد يد العون لنا، فهو يمدنا بكرمه بكل شيء، ولكنه يريد من الإنسان أن يعي الحالة التي يكون فيها.

الله يخلق فينا القوة والمكنة والطاقة كي نداري أنفسنا، لأنه يريدنا أن نطلب ما يستحق بالفعل أن نطلبه، أما الأمور الأخرى الهامشية أو المادية فيخلق فينا القوة والقدرة على حلها بأنفسنا، لذلك ينبغي أن نفرق بين طلباتنا التي تتعلق بضرورة أن نعالجها بأنفسنا وطلباتنا التي تتعلق بالمعرفة والعلم والقرب وكشف الحقائق المغيبة. في الطلبات الدنيوية قد لا يفتح لك باب المواصلة كما في الأمور الروحية العليا، وبالتالي حين تكون علاقتنا بالله والملائكة والنبي (ﷺ) والأرواح العليا علاقة طلبات وتحقيق رغبات وأمنيات أرضية ومادية تختلف من حيث طرق التواصل فيما إن كانت علاقتنا تخص الأبعاد الروحية.

ولكن هل يعني هذا حصر الدعاء والذكر فقط في الأمور الروحية أو فيما يتعلق بالقرب؟

لله عز وجل خطة محكمة في كل ما يعترض طريق الإنسان، هو يعلم حاجة الإنسان الدائمة للطلب ويعلم أن لا ملجأ للإنسان إلا إليه في تيسير أمور حياته، لذلك قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ولم يحدد ماهية هذه الدعوة إن كانت مادية أو روحية.. بل جاء في الحديث: "يسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع".. فهل لهذا الحديث تعارض فيما ذكرنا؟

الله عز وجل حين يخاطب الإنسان يخاطبه وفق مستوى وعيه وتطوره الروحي والقلبي والإدراكي، لذلك فالدعاء والطلب مستحب على العموم، هو يريد أن يلجأ إليه الإنسان في كل شيء، ولكنه يريد من هذا اللجوء والدعاء أن يحوله من مستوى إلى آخر. بمعنى أن الإنسان حين يرى أن الله قد حقق أمنياته ورغباته واستجاب دعاءه فإن تحقيق هذه الأمور ينبغي أن يحوله لمستوى آخر من الإدراك والوعي والإيمان وبالتالي القرب أكثر منه، فهذه الاستجابة ينبغي أن تفتح بصيرته على أمور أكثر أهمية تكون من ضمن طلباته وحاجاته، لأن النفس إذا لم تنظر إلى أبعد من حاجاتها المادية وطلباتها الشخصية تصبح غير مهتمة بالبحث عن المسرات الروحية العليا وبعيدة عن محفزات الروح الداخلية..

ولكننا مع الأسف الشديد نحظى ببركة الاستجابة مرة وثانية وثالثة ورابعة.. وعاشرة دون أن نلتفت إلى المانح لهذه العطايا وأن نقترب إليه أكثر، أو حتى أن يكون القرب منه من ضمن حاجاتنا وطلباتنا التي نطلبها منه..

ومن هنا نعلم لماذا تؤكد الأحاديث على ضرورة الذكر في كل الأحوال، سواء كان الإنسان متوجها روحياً أو غير متوجه، لأن من شأن الذكر حتى في عدم التوجه الروحي له.. أن يترك أثراً في مساحة النفس المظلمة، ويشعل شمعة صغيرة تكبر شيئاً فشيئاً لتكون كالشمس الساطعة.. ومن شأن هذه الشمس أن تشرق في ذاته وتغير حياته وتنقله من حال إلى حال، ولهذا جاء في الحكم على لسان العارفين: "لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره. فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز".

وكما جاء عن النبي (ﷺ): "أن موسى لما ناجى ربه قال: يا رب أبعيد أنت منى فأناديك، أو قريب فأناجيك؟ فأوحى الله إليه: أنا جليس من ذكرني. فقال موسى: يا رب إني أكون في حال أجلك أن اذكرك فيها؟ قال: يا موسى اذكرني على كل حال".

ندعوه بصدق وبتوجه ليستجيب دعواتنا.. ندعوه من صميم قلوبنا وبكامل مشاعرنا ليحقق أمنياتنا ورغباتنا.. ولكننا لو ذكرناه حباً فيه وشوقاً إليه لكفانا كل ما سألناه.. ولتولى سياسة أمورنا بنفسه ورزقنا من حيث لا نحتسب لأنه أبى إلا أن يرزق عباده من حيث لا يحتسبون..

لا يمكن أن يكلفك الله ما لا تستطيع إدراكه، لذلك يريك آثار قدرته واتساع هيمنته حين يستجيب لك.. يريدك أن ترى الاستجابة بأم عينيك لتدرك أنه ليس بغافل عنك وانه قادر على فعل كل ما يريد، والأهم من هذا كله أن يُعرفك بوجوده.. بأنه موجود ويسمعك.. فإن تيقنت من هذا "من سماعه ووجوده" فلتصمت كل جارحة ظاهرية فيك، ولتنصت كل أبعادك الروحية، لترى عجائب قدرة الله تتجلى في حياتك.

الله سبحانه وتعالى يطرق أبواب قلوبنا في كل لحظة، وفي كل خطرة، ولكن قلوبنا لاهية عن الطارق، بل هي لا تعلم أن هناك طرقاً بالأصل أو أن هناك عالما آخر يوازي عالمنا المادي يحمل لنا شعور الأنس والسرور والسعادة الحقيقية والحياة الطيبة، ولن نصل إليه إلا عن طريق معرفة حقيقة الصلاة والصمت والتأمل والذكر لأن هذه الأمور تخلصنا من الشوائب والأفكار التي تملأ عقولنا وقلوبنا، فيكون هناك متسع لسماع الهمس الملائكي ومكان تهبط فيه النفحات الرحمانية.

الصمت.. والإلهام

عالم يضج بالصخب والتشويش بكل أبعاده الفكرية والعقلية والاجتماعية والسلوكية.. ضوضاء في عصر تشابكت فيه خلايانا العصبية مع الشبكة العنكبوتية، تأخذنا تارة لأعلى وتلقي بنا تارة أخرى في الحضيض.. حتى أضحى الواحد منا فاقدا لهويته وأهدافه الحقيقية في الحياة.. أصبحنا في مأزق فكري واجتماعي كدوامة إعصار نسقط في أحضانها يختلط فيها الغث والسمين، والصالح والطالح على حد سواء أصبحنا كالدمى التي تحركها أيدي خفية ننقاد لها دون أي اعتبار لهويتنا وذاتيتنا. ولأننا لا نملك الوعي الذي يؤسس لنا منظومة فكرية رزينة ثابتة واعية فترانا نتقلب وفق قناعات الغير وما تبثه وسائل الإعلام ومنظومة التواصل الاجتماعي..

باتت الأفكار تتقاذفنا من كل حدب وصوب، تعلوها المسميات المزركشة والمعلومات قليلة الحظ من المصداقية والتي بات البعض يأخذها مأخذ التسليم دون الرجوع إلى الثوابت والأصول الروحية الحقة.

يطالعنا كل يوم أشخاص لا يفقهون ما يقولون، ليس لهم خبرة حقيقية فيما ينقلون، يعاني العديد منهم مشاكل نفسية وروحية، أناهم طاغية في سلوكهم بكل معانيها، يجمعون رتوش المعلومات من هنا وهناك وينشرونها تحت مسميات مختلفة غير واعين لمفاهيمها الحقيقية، هؤلاء الأشخاص يحظون على مشاهدات بعشرات الآلاف وعشرات (اللايكات) متوجة بكلمات المديح والإطراء والتشجيع!!

حين نشاهد هؤلاء نتساءل أين نحن؟ وإلى أين وصلنا؟ وماذا حدث لنا؟ ما الذي حدث لميراثنا الثقافي الروحي؟

في عصر المعلومة الرخيصة التي سببت للكثير منا حالة من التيه والضياع والتشتت، ألا ينبغي أن يكون لنا مرفأ نلجأ إليه، أو كهفاً يأوينا من زخم المعلومات الخاطئة التي ترد علينا في كل لحظة؟ ألا ينبغي أن نقف وقفة مع أنفسنا لنحاكيها في المدخلات التي تدخل أدمغتنا والتي تحرفنا عن مسارنا الحقيقي؟ لماذا أصبحنا كالطير الذي يتنقل من غصن إلى غصن بحثاً عن المأوى والملجأ وهو كامن في أعماقنا؟

لماذا يأخذنا العجب والانبهار في كل شيء نسمعه وكأنه آية قد نزلت من السماء.. وأنه الحقيقة المطلقة؟ لماذا فقدنا ثقتنا بالله وتوجهنا لفلان وفلان لكي يرسموا لنا طريق الخلاص، والله يقول: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً﴾؟

إن ما يدخل عقولنا سيتحول بعد فترة إلى جزء من منظومتنا الفكرية والتوعوية الداخلية، فلندرك ونعي ما يدخل في عقولنا، هناك تشويش كبير في العديد من المفاهيم والقيم التي يُخيل لنا جمالها الظاهري تتبطن سماً قاتلا في أعماقها.

ينبغي أن نتوقف.. ونتوقف.. كثيراً مع أنفسنا وأن نفكر مراراً وتكراراً في الاتجاه الذي ستكون عليه حياتنا، وكيف نعيش حياة لها معنى روحي حقيقي بعيداً عن كل الشكليات المبهرة والكلمات المعسولة.

نعيش اليوم في عالم يفتقر للمعنى وتكثر فيه المعلومة، وكثرة المعلومات قد تصيبنا بالغثاء والتشتت وضياع الأصول التي ينبغي أن نلتفت إليها. فالتشتت يصيبنا بعدم القدرة على تمحيص النافع من الضار، الصالح من الطالح، على الخصوص حين لا يكون لدينا وعياً عميقا نستكشف فيه الحقائق.

في الجانب المعرفي والمعلوماتي ينبغي أن نخضع كل ما نتلقاه ونسمعه للمبادئ الأساسية لحكمة الله في الخلق وللفطرة الإنسانية والمورثات الروحية التي أودعها الله في كل واحد منا. وللثوابت العقلية والبصائر القرآنية، فكثيراً مما نقرأ ونسمع يزيغ عن هذه الثوابت والأسس.

حين تكون لدينا مبادئ أولية لوعي الحكمة المتعالية، فإنها ستكون الأساس الذي تبني عليه جميع ما نتلقاه من معلومات. وعي الحكمة سيكون أشبه بفلتر يعمل على تصفية وتنقية جميع ما يرد إليك من الخارج.

إضافة إلى ذلك فالله أمرنا ودعانا لتلقي الحكمة والبصيرة منه، وفتح بوابة الإلهام على مصراعيها لتقي ما يجعل الإنسان على المحجبة البيضاء والصراط المستقيم، وقد بينا مفصلاً أهمية الإلهام كأداة من أدوات المعرفة التي منحها الله للإنسان في كتاب "الإنسان بين المعرفة والإلهام".

الله يعلمنا - عبر وسائطه الكثيرة - ما نحتاج إليه وما يخدم كنف حياتنا وأهدافنا الروحية، بعيداً عن غثاء المعارف والمعلومات التي لا تسمن ولا تغني من جوع. يبصره بالمبادئ الأساسية والمهمة لاستقامة حياته ومما يجد أثر له في حياته.

لذلك حين توقد شعلة الإلهام في قلبك سيعلمك الله ما لم تكن تعلم كما جاء في النص القرآني ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فتكون مصدر معلوماتك التي يلقيها الله قلبك.. وما يلقيه الله في قلبك يكفيك، لست بحاجة إلى أكثر مما يعطيه الله لك. قد لا يكون هذا الإلقاء مباشراً، فحين تتجه إليه وتطلب منه العلم والمدد والمعرفة، فإنه سيهيئ لك الإمكانات ويُسخر لك الأشخاص، ويوجد في طريقك المرشدين.. بل سيجري المقادير وفق ما يتطلبه تفتح علمك، لذلك قيل: "يظهر

المعلم إذا كنت مستعداً". حين تكون بكامل وعيك وشوقك وفي حالة استعداد سيظهر من يعلمك.

إلا أن الصخب والضوضاء وعدم اليقين بإرشادات وتوجيهات السماء جعلتنا نتلقف كل شيء ما عدا ما يمكن أن نحصل عليه من إلهام رباني.

أوتعتقد أن الله يترك عباده سدى دون أن يوجههم أو يرسل لهم من يوجههم! أيعقل أن يعمل جهازك الهاتف النقال على استلام رسائل من أقاصي الأرض، ولا يستقبل جهازك الأثيري الرباني رسائل من العالم الآخر ومن الله وملائكته!

لم تكن فكرة الانترنت والفضاء الإلكتروني تنبع لولا وجود فكرة الإلهام في الذات البشرية، فمن الاستحالة أن يكتشف الإنسان بث المعلومات عبر الفضاء لولا وجود فكرة كامنة في أعماقه بإمكانية حدوث مثل هذا الأمر.

وعلى هذا النمط حدثت جميع الاكتشافات العلمية الأخرى، لا يمكن لأرخميدس أن يكتشف قانون الطفو لولا وجود إمكانية قدرة الطوفان في الذات البشرية على الماء. وكذلك الطيران في الهواء، وتلقي المعلومات من الأثير، فكل هذه إمكانيات مكنونة في الذات البشرية أظهرها الإنسان كاكتشافات آلية متجسدة.

لقد كانت الأرواح في بداية نشأتها تمتلك كل هذه الصفات إلى أن تم اختزالها داخل الأجساد المادية فيما بعد.

وحتى نتمتع بهذه الهبة الربانية وتتنزل علينا بركات السماء ينبغي أن نكون روحانيين في المعنى والجوهر، أنقياء طاهرين تقترب نبضات قلوبنا من ترانيم العالم الآخر كي تنساب فيوضاته وتتشبع قلوبنا بإشاراته وإرشاداته ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

ينبغي أن ندرك جيداً أن عقولنا مصممة بشكل إلهي في غاية الروعة والإتقان بحيث تكون قادرة على التواصل البيولوجي الأثيري مع عالم الملكوت الأعلى ومع الكيانات النورانية والناس والموجودات عامة.. وقادرة على تخزين الخبرات الروحية والقيم والأخلاق التي تتحول فيما بعد إلى وعي يمس حياة الإنسان ويرسم طريق مستقبله..

فهبة الله لبني البشر (العقل) لا يقتصر وجوده على محاكاة الواقع والتفكير والمنطق وما أشبه، بل هو مستودع لجميع الخبرات الروحية التي يمر بها الإنسان في حياته، ويدعم بالقوة والمتانة فيما لو تواصل هذا العقل الأثيري مع الله وعوالم النور التي جعلها الله أداة لإلهامه وتدعيمه بالأفكار النيرة.

وهو ما يخلق مشاعر فائقة الروحانية والضمير المتوقد ويهبه ملكة الفرقان وهي القدرة على التفرقة بين الحق والباطل والتي تؤسس عليها مبدأ الحكمة المتعالية.

ولا شيء أشد فائدة يجعل من العقل أداة تواصل مع العالم الآخر كالصمت والتأمل والخشوع في الصلاة.. ففي هذه الثلاثية يتجاوز التقارب الذي يحدث قدرة العقل البشري الطبيعية إلى ما هو أعلى بكثير.

إن الصمت والتأمل والخشوع في الصلاة وقراءة القرآن لا يخلق تواصلاً مع العالم الآخر إلا بعد يزيل الغبار والكدر عن الجوهر المكنون في أعماقنا، فتتلاشى حجب الأمراض الروحية وتنقشع سحب الظلمة عن النفحة المقدسة في أعماقنا، فتزهر جلية للخارج وتكون على تماس مع عالمها الروحي عبر الإلهام. فالعالم الآخر محجوب عنا بأستار الكدورات التي تقشعها العبادات "لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها".

ما نستقيه عن طريق الإلهام الذي يلقيه الله في قلوبنا يمدنا بالقوة واليقين ويجعل حياتنا في سلام ووئام وهدوء، فتكون آراؤنا أقرب للصواب، وخطواتنا أكثر وعياً وعناية، وتوكلنا لا حدود له، نعرف وجهتنا في الحياة بطريقة فطرية، نشعر بحالة مستمرة من اليقظة الروحية والضمير الحي، نشعر بذاتنا الحقيقية بعيدا عن الأقنعة المزيفة والأنا الشيطانية، وكلما أخذتنا الأيام بعيداً تبادرنا بعض الإشارات لنعود إلى الطريق مجدداً، فنشعر أننا في كنف الله وتحت رعايته، وفي حفظ الله وحصنه المنيع.

وهذا لا يخص أشخاصا منتخبين أو أفرادا منزهين، بل هو لكل البشر طالما فتح قلبه لهذا الفيض، فالفيض بما يحويه من توجيهات ومعلومات وإشارات موجود ومتوفر لكل البشر بمقدور أي منا أن يغترف منه شريطة أن يهيئ الأرضية المناسبة له كما يقول رب العزة: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾.

في هدأة الليل وعمق السكون يكون الوصول إلى ينابيع المعرفة والتبصر الروحي أسرع ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ وحين نقول هدأة الليل فلا نعني به سكون الطبيعة من حولك فحسب، وإنما ينبغي أن يشمل هذا الهدوء قلبك وكيانك وجوارحك وروحك أيضاً، وإلا فلا فائدة نرجوها من قلب مشغول لاه مع هذا السكون. تبدأ حينها ناشئة الليل تلقي حصادها بقلوبنا وعقولنا وتحدث حالة تماهي وجذب، فيشعر البعض بحالة من الاسترخاء الروحي والشعور العميق بالسكينة..

هناك من يصل إلى شعور أعمق بذاته بعد أن تنقشع حجب الأنا عنه.. هناك من تتجلى له بعض الأفكار النيرة فيهرع سريعا لكتابتها وتدوينها خوفا من تلاشيها.. هناك من تقفز في مخيلته فكرة أو مهمة ما يعتزم على فعلها.. هناك من يتجلى أمامه سيناريو أحداث تدعوه إلى معالجتها وتصحيحها.. هناك

من يقفز في مخيلته شخصٌ ما تدعوه قوة خفيه للاهتمام به ورعايته.. هناك من تدمع عيناه لما اقترف من أخطاء بحق أشخاص معينين.. هناك من تغير هذه اللحظات حياته رأساً على عقب فيصلح الله شأنه بين ليلة وضحاها.. هناك من تكون هذه اللحظات بمثابة ترتيب أولويات حياته والتحرر من قيود الآلام الماضية والانطلاق من جديد في رحاب عالم الحب.. هناك من يدرك هدفه الحقيقي فتراه يترك الكثير مما كان منشغلا به ليحدد وجهته الجديدة التي تؤدي به إلى هدفه المنشود.. هناك من ينتبه ويدرك أن كل ما يتلقاه ويتعلمه غثاء كغثاء السيل لا نفع له ولا أهمية ترجى فيتركه وراء ظهره ويتجه إلى باب العلم الحقيقي.. هناك من يشعر بقشعريرة تسري بأوصاله لأنها المرة الأولى التي يلتقي ذاته الحقيقية..

هناك من يشعر بحالة من التواصل الروحي العميق مع شخص آخر كنوع من التغذية الروحية وكأنه توأمه الروحي الذي سيعتمد عليه في المستقبل.

ربما عند البعض لن يحدث أي شيء ذو أهمية في البداية..

هناك من يجلس ولا يشعر بشيء في اليوم الأول..

وفي اليوم الثاني لا يشعر بشيء..

وفي اليوم الثالث والرابع والخامس.. وفي اليوم العشرين لا يشعر بشيء..

سيقول الكثير ممن يقرأ هذه الكلمات (أجل هذا أنا)..

بالطبع كلنا كذلك في بداية الطريق..

ينبغي أن نعمق شعورنا بوجودنا في عالم الأثير الروحي المحيط بنا، وكيف أن الله سبحانه قد خلقنا منغمسين في هذا المحيط اللانهائي.. ينبغي أن نهيئ أنفسنا قبل الدخول في

الصمت أو التأمل أو الصلاة.. وقد ذكرنا هذا تفصيلا في موضوع كلمة في التأمل.

ينبغي أن لا نختبر الله في حكمه وتقديره، فلا نجلس لكي نشعر بشيء ما أو ينتابنا إحساس معين، بل ينبغي أن تكون ناشئة الليل جزءاً من حياتنا، أن يكون الصمت صديقنا على الدوام.. أجل ينبغي أن نصادق الصمت، فالصمت يسمح للمياه الموحلة في عقولنا أن تستعيد صفائها، لذلك جاء في وصية النبي (ﷺ) لأبي ذر وهو يعظه: "أربع لا يصيبهن إلا مؤمن: الصمت وهو أول العبادة". فلا لا يمكن لأي تغلغل للباطن أن يحدث من غير تعشق الصمت، ليس الصمت عن الكلام فقط، وإنما صمت الأفكار والتخلص من الشوشرة الذهنية، والرغبات الآنية.

ينبغي أن نسلم دفة سفينتنا لله يُسيرنا كيف يشاء، لا أن نمسك الدفة ونريد من الله أن يوجهنا، أو نلقي بالمرساة في عمق البحر ونقول لماذا لا تتحرك سفينتنا؟ قل الله وذرهم في غمرتهم يعمهون.. ينبغي أن نكون كالأطفال في تعاملنا مع الله، وحين يرى الله فينا الطفولة والبراءة سوف يرعانا ويأخذ بأيدينا، أما حين نعامله ونحن مكللين بالثقة بأنفسنا، متلبسين بالأنا فسوف يكلنا إلى أنفسنا نتخبط في مدلهمات الحياة..

لا تضجر من الانتظار، ولا تمل من الترقب، أدعو الله أن يسهل دربك ويريك وميض بركاته، فلو لاح لك برق فسيغير حياتك بمجملها.

لذا دع الصمت يحفر بأعماقك، دع التأمل يصقل أفكارك، دع صلاتك الخاشعة تنحتُ صِلاتها بعمق نجواك ووجدانك.. أعط الصمت فرصة يلامس قلبك ولبابك، اجعل التأمل لحظات أنسك وابتهاجك، واحذر أن تفعله مرغماً أو متكلفاً فلن تجني مرادك..

من حيث الظاهر يعني الصمت الهروب من كل لغو وثرثرة وكلام لست بحاجة إليه. أما روحياً فالصمت يعني إسكات جميع الأفكار المشوشة غير الهادفة التي تلعب في تغيير مسار حياتك.. إسكات مخلفات الماضي وآلامه والتخلص من أرق المستقبل وتوتراته، كي تتهيأ الأرضية للاستقبال، وهذا ما أشار إليه النبي (ﷺ) حين قال: "إذا رأيتم المؤمن صموتا فأدنوا منه فإنه يُلقي الحكمة".

أما في ناشئة الليل والخلوة فيعني الصمت، هدوء الجوارح، والأفكار، وعدم توقع أي شيء سوى الاستسلام لمالك الملك والوجود.

قد يجد البعض صعوبة في عمله بوقت معين، بل هو متاح بكل الأوقات، فالخلوة ليس لها وقت محدد، بل إن عملها في الصباح له فوائد كثيرة كذلك، بعد فترة استيقاظك في الصباح الباكر، أو ما بين الطلوعين، بمقدورك أن تجلس نصف أو ربع ساعة، فهذا من شأنه أن يرتب مدخلات عقلك لليوم.

حين تسمح لله وملائكته أو يلامسوا روحك في الصباح.. بالتأكيد سيكون صباحك مشرقاً روحياً..

من الأمور المهمة التي يجب ذكرها في هذا الموضع هو الحذر.. كل الحذر من الواردات التي ترد على الإنسان من غير طريقها السليم.

فالمعلومات والواردات والمشاعر والأحاسيس وكل ما ذكرناه سابقاً ينبغي أن يتم فحصها والتأكد منها جيداً قبل الأخذ به كمسلمات وحقائق وعلى الخصوص في بداية هذا الطريق، فقدرة البشر تتفاوت وتختلف في تلقي ومضات الإلهام، وفي توصيفه وتحديد مرامية ومعانية وأهدافه.. فالحلم الواحد على سبيل المثال قد يختلف فيه جملة من المعبرين. لذلك ينبغي أن

نخضع ما نتلقاه إلى فحص دقيق، وأن نتمهل حتى ينضج ونكتم الأمر حتى تتضح معالمه في الحقيقة، حتى نتأكد من صدق المعلومات التي حصلنا عليها، فوساوس النفس والأنا تدخل في كثير من الأحيان وتمثل نفسها كمعلومة قادمة من الله سبحانه وتعالى..

وبقدر ما يكون هوى النفس وأناها متشربا في الإنسان بقدر ما يكون لها تأثيراً في إدخال وتسريب المعلومة الخاطئة.. لذا كان القلب السليم الخالي من الأغلال المفعم بالفطرة السليمة والضمير الحي والوعي المتوقد مقدمة مهمة في عملية الإلهام المعلوماتي أو التطوري.

ينبغي أن نفرق بين الومضات القادمة من عوالم النور وبين الصوت القادم من النفس الذي يعمل على خداعنا، فليس كل ما يرد إلينا من إلهامات هي من الله، فكثيراً منها وساوس نفسية أو غيبية تهدف إلى إبعادك وغربلة توجهك الذي أقدمت عليه..

فإن لم يكن لك مرشداً واعيا يوجهك ويفصل الصالح من الطالح من الأفكار، فكل إنسان على نفسه بصيرة من خلال مقاربة ما نتلقاه بوصايا الله في كتابه الكريم وبصائره، والقيم الحقة والأخلاق الفاضلة كالطهارة والنقاء وحب الآخرين ومساعدتهم والإيثار والعطاء وما أشبه، ومن خلال الوعي الذي نطلب دائما من الله أن ينيره ويقويه. فإن شككت في شيء فاعرضه على كتاب الله وعلى هذه القيم التي ذكرناها وعلى وعيك المستبصر واصبر حتى تنكشف لك الحقائق.

لنتعامل مع الله كمحبين له، وليس كمتغطرسين نريد منه أن يؤيد أفكارنا ويثني على انجازاتنا، فالبعض قد يصل إلى درجة أنه يريد أن يُعلم الله بدينه والعياذ بالله، كما قال: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾، التواضع والانكسار والعفو والاعتراف

بالعجز والفاقة وقلة الحيلة تجعل يد الله تمتد إلينا، فالله يقول: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ﴾ فحتى يتصدق الله علينا ينبغي أن نستشعر حالة الفقر والفاقة. وكما قال أهل الله: "إذا أردت ورود الموارد عليك صحح الفقر والفاقة لديك" فكيف يورد الله عليك شيئاً إن لم تستشعر الحاجة إليه.. "ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب لديك مثل الذلة والافتقار".

كان هذا فيما يتعلق بشوشرة الأفكار والمعلومات، أما عن شوشرة العلاقات فالروحانية تؤكد تحري الحذر من الذوبان في عالم الآخرين على حساب ذواتنا، فالروحاني شخصية مستقلة فكراً وسلوكاً، طافي على السطح، يرى الآخرين ولكن من بعد، ويتأمل الوجود من حوله، بغير أن يكون ملاحقاً لذلك الوجود. كما أنه يبحث في علاقاته عن الكيف، فالعلاقة عنده لا تطلب لذاتها، وإنما لما فيها من قيم وترابط ومحبة وإخاء، وتبادل خبرات، وأفكار بناءة مشتركة، حتى في مجال الترفيه ينبغي أن تكون مثمرة ومفيدة، وإلا فإنها تكون عديمة الفائدة.

فالإنسان يتمتع بقدرات ذاتية روحانية عالية المستوى تختلف من شخص لآخر، وهذه الروحانية تتأثر بالمحيط الخارجي الذي يعيشه، فعندما نكون في تجمع يحوي نخبة من الأصدقاء الواعين المثقفين الروحانيين المحبين، فإن هذا التجمع يفرز نوعاً من الموجات المتناغمة من نفس الطبيعة الروحانية، فيتأثر به المجتمعون. والعكس كذلك، فالتجمع غير المتجانس المشحون بالكره والبغض والأفكار المتضادة المتضاربة، أو التجمع الشهواني الذي يهدف إلى اللهو والمتع، فإن الموجات والروحانية المنبعثة من هذا التجمع تحمل نفس هذه الصفات.

لذلك لم يحرم الإسلام شرب الخمر وبيعها أو المتاجرة فيها فقط، وإنما نهى حتى عن الجلوس على مائدة الخمر أو التواجد

في أماكن شربها، والسبب يرجع إلى التأثير الذي يعكسه الاجتماع حول الخمر على الإنسان.

وفي المقابل حثنا على ملازمة مجالس الذكر، والتواجد في المساجد، ودور العبادة وحضور صلاة الجماعة، وحلقات الذكر، حتى يستقبل ويمتص الموجات المنبعثة من المصلين، أو العلماء والذاكرين من خلال محيطه الروحي.

لقد أصبحت مقاييس الجماعة تركز على الكم وتهمل الكيف، في حين أن هذا الكم والسواد، قد يفقدك العديد من الصفات الشخصية الذاتية. ورب سائل يسأل: لقد حث الإسلام على بناء العلاقات الاجتماعية، فكيف نوفق بين هذا الحديث، وبين عدم الذوبان في الواقع الاجتماعي كضرورة للإلهام؟

إذا كان الإسلام قد أكد على العمل الجماعي، والعلاقات الاجتماعية مرة، فإنه قد أكد على بناء الذات والنفس أضعاف ما أكده على بناء الجماعة، فالإنسان يأتي ربه يوم القيامة فرداً ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾.

فالإلهام يحتاج إلى تركيز الذهن، وعدم الذوبان في الواقع الاجتماعي، لأنك عندما توزع اهتماماتك في الأشياء من حولك، وفي العلاقات الاجتماعية التي تنخرط فيها، فإنك تفقد بالتالي قدرتك على إعداد نفسك لاستقبال ما يهبه الله لك.

لذلك لابد أن تطفو على السطح، ولا تغوص في لجة الحياة الاجتماعية التي تحيط بك.

إلا أن هناك حالة يمكن الإشارة إليها، وهي أننا نجد في بعض الأحيان شخصية ملهمة، أو تلهم بعض الأفكار والمعلومات، وهي في جو من الصخب الاجتماعي، ومن العلاقات والصداقات والالتزامات وما أشبه..

إن الملهم هنا يكون موجوداً في الواقع الاجتماعي بجسمه فقط، ويجعل من الضوضاء والعلاقات الاجتماعية والزحام المحيط به إطاراً وخلفية بعيدة عن بؤرة وجدانه، وبعيداً عن تركيزه الذهني، فهو لا يكاد يسمع ما يدور حوله من أحاديث.

فهو وسط الزحام يكون غريباً عن الصخب الاجتماعي، الذي يحيط به من كل جانب إنه يشبه الزيت الطافي فوق الماء، فهو يلامس الماء ولكنه لا يختلط به، أو كالغواصة التي تشق عباب البحار في أعماق المحيطات، بغير أن ينفذ الماء إلى داخلها، وبحيث تصير جزءاً من الكائنات الموجودة بعمق المحيط.

فهم وإن كانوا في قلب الوسط المتحرك، والنشاط والعلاقات والخدمات، وانهماكهم مع الناس، أو في أعمالهم الروتينية، كالوظيفة والالتزامات الأسرية، إلا أنهم يرزقون بومضات إلهامية فجائية.

فالملهم ليس شخصاً يعكس ما يسلط عليه في اللحظة العابرة، بل هو شخصية متكاملة الأبعاد.. عالماً قائماً بذاته، له قوانينه ونظمه واستقلاليته وفلسفته الخاصة.

فعالمه الداخلي يسيطر على عالمه الخارجي، فالأمور الخارجية عنده تعتبر مؤشرات مبدئية وصوراً عليه أن يخضعها هو ويكيفها مع داخله، لا أن يتكيف هو مع خارجه.

وهذا شرط أساسي وجوهري في العملية الإلهامية، أن يخضع الإنسان الخارج للداخل، بمعنى أن المرء لا يستفيد مما يُلهم به إلا حين تكون له شخصية مستقلة، يُخضع من خلالها الضغوط الخارجية إلى قدراته وملكاته الذاتية.

فالبعض يبدأ من الخارج إلى الداخل، فهو يبدأ بالاهتمام بما يدور حوله، ولا يجعل من نفسه سوى صورة باهتة لذلك الخارج الدائر حوله، من أمور وأحداث وتقلبات، فهو يسبح مع التيار،

وليس له أية خصوصية أو أثر يذكر، في حين أن الإنسان الواعي المدرك الملهم، يجعل الخارج صورة من ذاته، ويخضع المؤثرات والأحداث الخارجية لقدراته، ويعكس صورته الذاتية للخارج ويترك بصماته عليها.

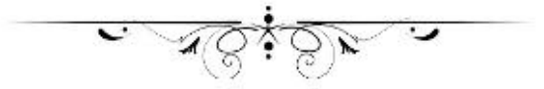

الفلاح.. إبداع وحصاد

يشنف أسماعنا عبر الأثير صوت المنادي وهو يرفع الآذان بكلمة "حي على الفلاح" كل يوم عشر مرات..

تُرى.. لماذا يرتبط الفلاح بالشهادتين، ويقترن بصلة مع الله (الصلاة) ويكون عديل التكبير والتهليل.. وبالتالي جزء من الأذان الذي يجمع هذه المفردات..؟

فما حقيقة مفهوم الفلاح الذي يُمنح هذه الأهمية المغيبة عن كثير من الناس؟

الفلاح شعور وجداني يتبدى بعد القيام بالعمل على أكمل وجه ويظهر في الواقع الحقيقي أو الغيبي.. هو نيل المطالب بشرطها وشروطها، والظفر بما نريد تحقيقه على المستوى المادي والروحي. الفلاح يعني أن تزرع حديقة دنياك ببذور الوعي والفهم والإدراك لتجني ثمارها وقت الحصاد الآني أو المؤجل.. وأن تصل بروحك إلى الغاية التي من أجلها خلقت وعليها فطرت، وبالتالي فإن الفلاح هو منتهى قانون السببية والعلية في الكون، هو نتاج أعمالك المتقنة المتكاملة أو شبه الكاملة.

حين يحصل طالب العلم على معدل درجات عالية في نهاية عامه الدراسي، وحين يؤدي الموظف مشروعه على أكمل وجه، وحين ينتهي الجراح من عملية خطيرة، وحين يفرغ ابنك الشاب من قراءة كتاب جميل أهديته إياه، نقول لكل هؤلاء لقد أفلحتم في عملكم، فالجهد الذي بُذل في الدراسة والسهر أثمر النجاح.. لقد أفلح في دراسته وحصد النجاح.

لذلك فإن نداء المؤذن بإحياء الفلاح وتفعيله في حياتنا دعوة قوية لشحذ الهمم وإتقان العمل وتوجيه الهمة كي نصل إلى غاياتنا وتجلي أهدافنا الحقيقية في الحياة وتحقيق السعادة التي نرجوها.

الفلاح نتيجة أعمالك أنت وليس نتيجة أعمال غيرك، هو أمر تكليف عيني لا تقليد فيه، بمعنى على كل إنسان أن يفلح هو بذاته في كل ما أوجده الله في هذه الحياة سواء في الأبعاد المادية أو المعنوية.. سواء في ابتكار دواء أو علاج لمرض ما أو في فهم واستيعاب مفاهيم الدين والخلق والوجود.. الفلاح يعاكس مفهوم التبعية والعنعنة ويرفض مفهوم الاستسلام والتماهي مع العقلية التقليدية.

وكما أن ديناميكية الحياة تتطلب الإبداع والإتقان وتأكيد الذات بأعمالها المميزة، كذلك في الأبعاد الروحية، فالله لا يريد منا أداء الأعمال والطقوس والشعائر العبادية فقط.. بل يريد منا الفلاح والتمعن والتمحيص والتفكر والتأمل كي نصل إلى أعلى مستويات الوعي فيها، فمن يؤدي عملاً عادياً تقليدياً لا نقول له أفلحت، ولكن من أتقنه وأجاده وأحسنه وأبدع فيه نقول له أفلحت لأنه يستحق الثناء على إبداعه.

الناس تصلي.. ولكن الله يختار الخاشعين منهم الذين حين يصفون أقدامهم للصلاة يستغرقون في صمت التوحيد وتسكن أعضاؤهم كالأرض الميتة التي ظاهرها ساكن لا حياة فيها، وباطنها مليء بالحياة والبهجة الروحية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ وينعتهم بالمفلحين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾. فبالخشوع ندرك المعنى الحقيقي للصلاة والذي من خلاله نصل إلى الفلاح.

إذن فنداء الفلاح على المآذن له مطلب عظيم ومقصد جليل.. فالحق يطالبنا بدور خاص يؤديه كل واحد منا على حسب استعداده ووعيه وإدراكه. لا يريدنا أن نكون ريبوتات آلية متحركة أو هياكل مقلدة تابعة إنما يريدنا أن نكون مبدعين مفلحين مدركين واعين، أن تكون حياتنا سلسلة من الإبداعات تتنوع فيها صور الفلاح والتوفيق والنجاح.

ويختلف الفلاح عن السعادة في أن الفلاح تمتد آثاره إلى ما بعد الحياة ولا تنقطع بالموت، فالإيمان بالغيب وهو من أهم صفات المفلحين كما جاء في أوائل سورة البقرة التي ترسم خارطة رحلتك الروحية.. كما ارتبط بالصلاة ليعكس حقيقة أن الإنسان قد ينجح في حياته في ميادين شتى وأبعاد كثيرة مختلفة.. قد ينجح في دراسته، عمله، أسرته، شهرته، مكانته، ثروته، علمه.. وغيرها من أمور، ولكن الفلاح الحقيقي لا يكون إلا من خلال الصلة بالله سبحانه وتعالى.. بل إن الفلاح في خلق رابطة قوية مع الله هو ما يجعل الروابط الأخرى تسير بشكل متناغم وفي تطور تصاعدي.. بحيث كلما قويت صلتنا بالله كلما زاد إبداعنا في المجالات الأخرى. فالله يريد للإنسان أن يكون مبدعاً خلاقاً واعياً مدركاً مفلحاً في جميع أبعاده.

حين يُفلح الفلاح الأرض بفأسه فإنه يشقها ويقلبها لينثر فيها البذور أو يغرس الفسائل.. لذلك تأتي كلمة الفلاح باللغة بمعنى الشق أو الفتق.. وكما تفلح الأرض كذلك يُفلح الإنسان (أرضه) الداخلية، ويُفرق بين نفسه (الأنا) وبين ذاته، بين ما تطلبه نفسه وما تدعو إليه من توق وهوى نفسي وشرك مبطن وحقد أعمى وجهل مركب، وبين ذاته الروحية الناصعة الحقيقية القابعة في أعماقه، فينثر بينهما بذور الوعي والحب والمعرفة فإن كمال الحصاد سيلازمه في حياته وبعد مماته.

كما ارتبطت كلمة الفلاح بشهادة (لا إله إلا الله) لأنها أساس البناء والخطوة الأولى على طريق تزكية النفس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾، ولذلك كان شعار جميع الأنبياء كلمة لا إله إلا الله. وكان أول خطاب الرسول (ﷺ) للناس: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا".

ولكن التلفظ بكلمة التوحيد وحدها لا يكفي.. فأساس بناء الذات وما يوجب الفلاح والنجاح وازدهار الكمالات الإنسانية هو في عيش حقيقة التوحيد، وليس لفظ التوحيد.. وأبرز دليل على بلوغ الإنسان لحقيقة التوحيد بمفهومه الواقعي والكامل هو شعوره بعرش الرحمن في قلبه، وإحساسه بالإحاطة الإلهية.. فلا شيء يملك قلبه إلا الله، ولا صوت يهمس بأعماقه إلا صوت الرب.. فيرى الله في كل شيء وفوق كل شيء.. إن الفلاح هو المعنى الجامع لكل الكمالات الإنسانية، وسبيل الوصول إليه يتلخص في بناء الذات وتزكية النفس وتعشق عوالم الغيب والتناغم مع بصائر الوحي والسير بمنهاج النبوة فجميع ما جاء به الأنبياء لهداية الإنسان إنما هو مقدمة للفلاح الذي ستزدهر به حياة الإنسان.

تجاوز.. لتدرك ما خلف الحجاب

لا يتناغم كثير منا مع الأبعاد الروحية وقد يجدها أموراً عصية على الفهم لا لخلل في شخصيته أو نقصاً في ثقته أو شكاً في نواياه، ولكن لطغيان الجانب العقلاني والمنطقي والحسي في نظرته وإدراكه للأمور.

فعلى الرغم من عشقه الشديد ورغبته الملحة لهذه الابعاد إلا أنه لا يزال عالقاً في البعد الإدراكي والمنطقي. في حين أن عالم الروح يتطلب أحيانا أموراً يتجاوز إدراكها الجانب العقلي - ونقصد بالعقلي هنا الأدنى وإلا فالعقلي الأعلى مندمج ومتماهي مع الابعاد الروحية - ولا يعني هذا تقليلا من شأنه أو انتقاصاً من قدره، فلولا العقل والمنطق لا نستطيع ممارس دورنا في الحياة بشكل طبيعي، لم يكن بمقدورنا كتابة هذه الكلمات، ولم يكن بمقدورك قراءتها. ولكن حين أعيش حالة الألق الروحي أو أتلقى ومضات العالم الآخر ينبغي أن أثق أن هذه الومضات قد تكون أكثر يقيناً وواقعية من تلك التي يفرضها العقل أو المنطق.

على سبيل المثال حين نتحدث عن قانون السبب والنتيجة كقانون وسنة كونية يبدو للناظر إليه أنه أقرب للمنطق العقلي، ولكن هناك ما يكسر حدة هذا القانون حين نتعرف على قوانين التزامن التي تحدث من خلاله نتائجاً وأحداثاً غير متوقعة لأمور قد تكون بعيدة جداً عن مسببها الذي يتراءى لنا أنه كان السبب.. فقانون السبب والنتيجة من حيث الظاهر هو قانون

عقلاني ولكنه لا يفسر لنا العديد من الأمور التي تقع والتي لا يمكن تفسيرها إلا من خلال رؤية روحية.

على سبيل المثال.. لا زلت أتذكر قصة قرأتها منذ 15 عاما عن امرأة كانت تلتقط الصور لعائلتها وأولادها أثناء الحرب العالمية الثانية، وحين أنهت فلم التصوير ذهبت لمحل تحميض الأفلام لاستخراج الصور، فقال لها أنه سينتهي منه بعد ثلاثة أيام. رجعت المرأة إلى بيتها وفي اليوم التالي اشتد القصف في تلك المنطقة وهدمت الدور والمباني فانتقلت المرأة مع أبنائها إلى مدينة أخرى لتجنب القصف والدمار، وعاشت هناك ما يقارب السنتين، ونست هذه المرأة أمر الصور ومحل تحميض الأفلام لأنه بالتأكيد قد أصابه الدمار والقصف العشوائي. فقررت أن تشترى فلماً جديداً لتصور أبناءها الصغار، فذهبت لشراء الفلم الذي وضعه صاحب المحل في الكامرة وقامت بالتقاء صور لأبنائها، وحين انتهت وأفرغت الكامرة من الفلم وذهبت لصاحب المحل في المدينة الجديدة التي تسكنها وقام باستخراج الصور. وهنا كانت المفاجأة الكبرى، أن الصور التي استلمتها من المصور كانت هي الصور التي التقطتها لأبنائها قبل سنتين في المدينة التي كانت تسكنها والتي دمرتها الحرب.. كيف حدث ذلك؟ وبأي منطق قد يحدث مثل هذا الأمر؟ (هذه الحادثة مثبتة علمياً احتاروا في طريقة تزامن أحداثها).

قد يصاب الإنسان العادي بالدهشة لفترة من الزمن لهذا الحدث، ولكن الإنسان الواعي قد يخلق نقلة نوعية كبيرة في حياته.. نقلة تفهمه معنى الحياة والزمن والمؤثرات التي تلعب دورها في كل مناحي حياتنا.. هنا تتوقف العقلانية ويتسمر المنطق في مكانه.. كيف حدث ذلك..؟ هو لا يعلم.

المنطق العقلي قد يحاكي الآن عقلك وأنت تقرأ هذه الكلمات فيقول لك إن هذا أمر مستبعد وغير معقول، فكيف انتقل الفلم

الذي كان في محل تحميض الأفلام والذي دمر من القصف إلى منطقة أخرى، وكيف تحول الفلم الذي تم استعماله إلى فلم جديد قامت بشرائه هذه المرأة، وكيف التقطت به صوراً على خلفية صور أخرى.. كل هذه أسئلة تدور في ذهنك الآن قد لا نجد لها إجابة منطقية أو عقلانية..

لذلك هناك فرق حين نقول أن أمراً ما غير عقلي أو منطقي وبين أن هذا يتجاوز حدود العقل.. ونقصد بالعقل، الإدراك المحدود.

ليس كل الحياة تسير بطريقة منطقية، وليس كل حيثياتها عقلانية. لقد اختبرت أموراً كثيرة في الحياة كانت تخرج عن نطاق المنطق العقلي، كان هناك شيئاً يجري في الخفاء، يجري خلف كواليس القدر لا يمكن أن ندركه بالعقل أو المنطق لأن له اتصالا بمعادلات ونظم أخرى لا نعلم عنها شيئاً.

معرفة الله والقرب منه، إدراك حقيقية الحياة وكشف اسرارها، معرفة سيناريو بدايات الخلق وعلة الوجود، عوالم الغيب بمختلف مستوياتها، إدراك الأبعاد الروحية كل هذه الأمور لا يمكن إدراكها إلا من خلال بعدين:

1- أن نتجاوز حدود العقل المحدود الذي قيدوه وكبلوه بمنطلقات وتصورات وفلسفات صيغت وفق منظور عقلي بشري محدود في فترة زمنية معينة.

2- أن ننتقل إلى العقل الروحي الكامن في القلب ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا..﴾ والعقل الروحي في المستوى الأرفع والأكثر تطوراً من بين كل صور التعقل لأنه مكلل بالبعد الروحي. فعادة ما نطلق التعقل على ثلاثة أمور: العقل الأدنى وهو ما ندرك فيه الأشياء ونمنطقها والذي يُمكننا من العيش في الحياة، والعقل الشامل أو الكلي

أو الفلسفي الذي يتناول الكليات ويبحث في أصول الأشياء وأسباب نشأتها وتكونها، والعقل الروحي الذي بالإضافة إلى أنه يجمع النوعين السابقين فهو يتميز بالبصيرة والحكمة والحدس واستراق السمع من العالم الآخر.. هو مصدر الإلهام والقرب والحب وكل ما هو جميل.

لذلك فالخطوة الأولى لاستشعار وملامسة البعد الروحي أثناء التأمل أو الصلاة أو التهجد هو أن تخلع نعليك.. أن تجتث العديد من أسس التفكير المنطقي فيما يتعلق بشعورك وإحساسك، لا تقل متى وكيف أثناء التأمل، لا تقل متى سأحصل على النتيجة لأن البعد الروحي له نظامه الخاص، قد لا تسري عليه أحكام وقوانين الطبيعة لأن له قوانين أرفع وأسمى مما تقرره عقولنا. قد يخترق كل قوانين الزمن فيغير وينقل حالك من حال إلى حال بلمحة بصر.

ينبغي أن لا تكون لنا قلوب بشرية، لأن القلوب البشرية لا تدرك كل شيء، هي تدرك هامش الحياة المعايشة المادية وكيفية التأقلم معها، لاهية منشغلة بنفسها عن ذاتها، ينبغي أن تكون لنا قلوب إنسية روحية، قلوب واعية، قلوب مبصرة، قلوب البشر لا تدرك حقائق عالم الغيب.

نعيم الجنة وأنوار عالم الروح ومعارج الملائكة والأرواح الراقية، أمور لا تعيها ولا تخطر على قلب بشر، قد لا يتأمل البعض بهذه الكلمات التي تصف الجنة: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر".. بالتأكيد هذا النعيم المقيم لا يمكن للقلب البشري أن يدركه. كما لا يمكن للنفس كذلك إدراكه أو الإحاطة به ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فقط يمكن إدراكه بالعقل الروحي، القلب النابض بالحياة المرسلة من السماء.

لم يكن لنبي الله موسى (ع) أن يكلم الله لولا خلع النعلين، وخلع النعلين لا يعني التخلص من الصفات السلبية الذميمة النفسية فقط، وإنما خلع المفاهيم والأفكار التي تؤطر حياته وتسيره وفق منطلقاتها وقناعاتها ومعتقداتها. العِقال هو الذي يغرس فينا الخوف من كل شيء لأن له أجندة ينبغي أن نسير عليها وأي خروج عن نهجه يعتبر نشازاً ينبغي أن يعاقب عليه. لذلك حين نفتح المجال لشغاف القلب ليتشبع من أنوار عالم الروح سوف نعلم كم هي محدودة أطر المنطق والعقلنة وكم تبعث الخوف في النفوس. وكم هو جميل ذلك العالم الذي نشم منه عبق وشذى نسائم رياحين جنة النعيم ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾.

حماية المحب بالحب

من غرائب العلوم الروحية أنها تنبهنا وتعلمنا أموراً في غاية الدقة وفي منتهى الأهمية في الوقت نفسه.. فكلنا يمر على أحداث وحالات قد لا نعيرها أية أهمية، ولكن لو دققنا النظر سنجد فيها أبهر الحقائق.

تكلمنا عن حب الله سبحانه وتعالى وبما يهبه من حماية ورعاية وتدبير شئون حياة الإنسان في مختلف الأبعاد.

ولكن السؤال: هل بمقدور الحب المعتمر بين الناس، بعضهم بعضاً أن يقوم بمهمة الحماية والرعاية كذلك.

سنتحدث بعجالة عن حقيقة حماية المحب بالحب.. فكلنا سمع وقرأ وبحث وعاش مفهوم الحب من مختلف أبعاده، ولكن أن يهب الحب الحماية فهو شيء لم يسمع عنه الكثير.

فالمحب يكون في كنف ورعاية المحبوب فيما لو كان الحب حقيقياً موغلا في العمق مطعم بالوعي، وحين نقول في رعايته لا نقصد رعايته الذاتية وإنما تلك التي استمدها من مصدر الحب وهو الله سبحانه وتعالى، فالإنسان لا يملك لنفسه شيئاً لولا مدد الفيض الإلهي.

فتلك البذرة التي زرعها الله في كل واحد منا ليست من عالم المادة، بل هي من عالم الروح، أي أنها متصلة بالله سبحانه وتعالى، وهذه البذرة بما تحمله من قوة روحانية وطاقة خلاقة بمقدورها أن تؤدي جزءاً من الدور الذي تساعد فيه العوالم

الروحية الإنسان. وبالتالي فإن تفعيل هذه البذرة المقدسة (الروح) كفيلة بأن تهب المساعدة والحماية والعناية للآخرين.

فالعلاقة الحقيقية بين المحبين لا تتوقف على الأمور الظاهرية والمادية والعلاقات الحميمية، بل تتناول أيضاً العلاقة الروحية بكل قوتها وكينونتها. وهذا ما لا يفهمه المحبين مع الأسف الشديد. فالأرواح جنود مجندة ما تآلف منها اتفق، وهذا الاتفاق ليس اتفاقاً ظاهرياً فحسب، بل هو اندماج أثيري تتلاقى طرفاه ولو كانوا بعيدين عن بعضهما البعض.

وهذا الارتباط الأثيري يقوي من هالة الإنسان ويدعم جهازه المناعي ويمده بشيء من الطاقة التي يجدها الطرف الآخر حالة من البهجة أو الفرحة أو الدعم المعنوي أو الشجاعة.. أو حتى شفاء من علة ما.. وما أشبه.

فنحن ككيانات نعيش على الأرض لسنا منفصلين عن بعضنا البعض وإنما متصلين بالعديد من منافذ وبؤر التغذية والشحن والعطاء..

فالأم تشعر بوليدها حين يجوع أو حين يتعرض لخطر ما ولو كانت على بعد آلاف الكيلومترات، لأن رابطتها الروحية والأثيرية في أوجها نتيجة لعاطفة الأم الحنون ولقوة التواصل الأثيري لدى الطفل لأنه لم يتعرض لعوامل التشتت والمنغصات والسلبيات، فهو لا يزال ناصعاً نقياً.

لا أحد ينكر هذه الحقيقية وعلى الخصوص الأمهات اللاتي جربن هذا الشعور. وذاته يحدث فيما لو كانت هذه الرابطة قوية بين المحبين، والتي قد تتجاوز الإحساس العاطفي إلى الحماية النفسية والدعم الروحي.

ولكن حتى تتم مثل هذه الرابطة فهي بحاجة إلى أربعة أمور مهمة نذكرها باختصار:

1- الصفاء الروحي والمصداقية:

أي أن تكون هناك مساحة بيضاء كافية لاستيعاب الحب الذي يتلقاه من الآخر، فحين يكون القلب مكتظا بشتى أنواع الصور، مشتت الذهن عن المحبوب، غارقاً في همومه ومشاكله الخاصة، يملئ فكره العناد والرأي الواحد. يفتقد المصداقية بحيث يتضاد الداخل مع الخارج، يتصرف بخلاف ما يعتقد، يحدثك بخلاف ما في قلبه، ليس بمقدوره أن يعكس شخصيته الداخلية للخارج. فمثل هذه الشخصية بحاجة إلى جلو الباطن وصقله جيداً.

ينبغي أن يعكس المحبين صفاء ونقاء حقيقة الحب، لا أن يلوثوه ويدمروه بأفعالهم وأعمالهم، ينبغي أن يكون حباً لا يتوقف ولا يرتبط بنتيجة ما.

2- أن تكون هناك مساحة فاصلة بين المحبين:

ليس مسافة شعورية ولكنها مسافة عملية، فحتى تتحرك برادة الحديد بين قطبي المغناطيس لابد أن تكون هناك مسافة بين القطبين، وذات الأمر ينبغي أن يحدث بين المحبين. وهذه المساحة نملأها بالوعي والثقافة والخبرات الجديدة والاهتمامات المشتركة والإنجازات العملية.

بمعنى أن لا يكون كلا الطرفين في معية الآخر على الدوام، وأن لا يتربع الواحد في عقل الآخر باستمرار. ينبغي خلق مساحة عملية كي يزيد الجذب العاطفي، فلا يمكن أن تتشكل برادة الحديد فيما لو كان القطبان متلاصقان..

فالهدف يأتي تباعاً حين يتحدث كلا الطرفين بأمر جديد أو خبرة جديدة، وهذا يولد حالة من التكامل فيما بينهما في الإطار المعرفي والنفسي. ومع الأسف الشديد قلما نجد مثل هذه الحوارات في أسرنا وبين أبنائنا.

3- الابتعاد عن فكرة التملك

فسواء كان الجسد أو الروح، فهما ليسا بضاعة للتملك والاستحواذ. ليس للتملك أية علاقة بالروحانية. حتى أولادنا هم ضيوف علينا نزلوا بساحتنا وشاركونا حياتنا ولكنهم ليسوا ملكاً لنا، هم كالضيوف نربيهم كما ينبغي ونهتم به ونمنحهم الحب والرعاية والأمان ونهيئ لهم سبل الراحة والتعلم والابداع، ولكننا لا نستعبدهم أو نتملكهم. لهم حقوق وعليهم واجبات، ولكننا لا نملكهم، فلهم أرواح مستقلة حلت في أجساد أخذت شطراً من صفاتنا فقط.. ولكنهم غيرنا.

وقس على ذلك الأصناف الأخرى كالأزواج والأصدقاء والأحبة والأقارب وما أشبه. لأنك حين تتملك يفقد الحب جوهره، في حين أن عدم التملك يخلق حالة من الجذب الروحي العميق، ابتعد عن شيء فترة ما ستجد نفسك تشتاق إليه أكثر.

وعدم التملك لا يعني عدم الاهتمام.. هو شعور بأن الطرف الآخر له كيان مستقل، وبالتالي تشعر أن علاقتك به ليس علاقة آلية أو تقليدية أو وراثية وإنما هي علاقة متجددة مع كيان روحي آخر يشاركك الحياة. هي علاقة مع شيء يشاركك في الوجود، وبالتالي تكون العلاقة أقوى بكثير فيما لو كانت علاقتك بشيء تملكه. فعلاقتك بولدك تختلف كثيراً حين تدرك أنك لا تملكه أو حين تعتقد أنه ملكاً لك. في الأولى تعامله ككيان روحي له استقلاليته، أما في الأخرى فتعامله كتابع لك تريد لصفاتك أن تنعكس عليه.

ولا نعني بالاستقلالية أن يكون متمرداً أو خارجاً عن محيط أسرته وعائلته، بل نعني أن لا نصادر رأيه، ونحترم وجهات نظره ونقدره ونأخذ بيده لكي ينمو نمواً سوياً طبيعياً.

حالة التواصل الروحي تكون أشدها حين ننظر إلى علاقتنا بالطرف الآخر من بابها الروحي، لا كتابع. ولكن مع الأسف الشديد قد يسرف البعض في هذا الأمر إلى حد يعتقد فيه أنه حر طليق بلا ضوابط أو قواعد أو قيم ينبغي أن يلتزم بها.

4- التخلص من الأنا والأنانية

ولعله العامل الأهم والأخطر في فشل أغلب علاقات الحب بشتى صنوفها وأنواعها. الأنا باختصار تشكل كياناً آخر يحول بينك وبين الحبيب، وكأنه سداً منيعاً يعزلك عن التواصل الروحي معه..

ألا ترى أنك وبمجرد أن تسمع شخصاً ما يتكلم بطريقة استعلاء تظهر فيها الأنا واضحة أنك تبتعد وتشمئز منه، الظهور بمظهر المتكلم المبدع، الاعتقاد بأنه أعلم من الآخر، نبرات الصوت الحدية، محاولة إظهارك وكأنك لا تفهم شيئاً، النرجسية في التعامل، تجاهل نظرة الآخر وغيرها من أمور كثيرة ينبغي أن يتخلص منها المحبون..

استبدل الأنا بالآخر واجعله توأم روحك أو نفسك الأخرى، بمعنى أن الأنا بدل أن تكون سداً قاتماً اجعلها ذو شفافية عالية بحيث تتناغم مع رغباتك وتطلعاتك من جانب، ومن الجانب الآخر تطلعات ورغبات الحبيب لكي تلتقوا في المنتصف حيث الشفافية والوضوح.

الأنا تدمر ليس علاقة الحب فقط.. وإنما تدمر الحب ذاته.

حين نقول أن الحب قوة ودعم وحماية وسند.. فنعني بذلك أنك حين تتواصل مع المحب تنتقل أمنياتك وقوتك وجزء من شعورك إليه عبر خيوط أثيرية غير مرئية، يجعلها كثرة الاستعمال قوية ومتينة حتى تصل حالة من الاندماج الروحي

يجد فيها الإنسان نفسه في الطرف الآخر يقول فيها "وجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى إذا ألما إذا ما أصابك فقد أصابني"..

الحب درع حصينة.. ودعم روحي.. فالأم التي ترسل موجات الحب ومشاعر الرأفة ودعوات الحفظ والتحصين لولدها الذي تأخر في القدوم إلى المنزل، ثق أن هذه الدعوات والمشاعر قد تحل شيئاً من عقد تأخره.

فكم من مريض استفاق من لمسة محب، وكم من مكروب أو مهموم انجلت كربته ولاحت أساريره بدعاء محب، وكم وهن استقوى وشد بنظرة محب،

فالحب هو مادة عالم الروح ينتقل بين المحبين ويؤثر في حياتهم.

إذا شعرت بالضعف أو بأنك لا تملك ما يمكنك إرساله للحبيب فاشحن نفسك من فيض المحبة، من الله سبحانه وتعالى، أو ممن يملك مقاليد الحب من رسول الله (ﷺ) أو من الأولياء الصالحين والصديقين، فلهم الطول والمكنة في عالم الأمر..

استثمر حالة الحب، فالحب ليس مجرد عاطفة وحميمية، هو قوة لا تقهر.. لا نعرف قوة لقاء المحبين ففيها تتفاعل الطاقات إلى حد قد تغير معادلات الإنسان وقدره.

غير مفهومك عن الحب فيما لو كنت تقليديا، مادياً، ظاهريا، انتقل إلى مرحلة أعمق، تكلم مع الطرف الآخر، سواء كان زوجاً أو ابناً أو صديقاً أو حبيباً، أيا كان.. وعمق شعور الحب الواعي، واختبر ما يمكن أن ينتج من هذا الوصال.. ستذهل مما ترى.

عدالـة الألم

يشتكي البعض من تفاقم المشاكل والهموم والاحباطات، وزيادة معدل الجهد المبذول في تحصيل لقمة العيش، حتى بات البعض يتساءل متذمراً لماذا نعيش حياة ملؤها الشقاء والتعب؟ لماذا نعيش في ضنك العيش بينما يرتع غيرنا في الثراء والجاه والسلطة؟ أين العدالة في تقسيم الأرزاق وراحة البال في الحياة؟

الإجابة العامة لهذه الأسئلة وغيرها.. هو الابتلاء والاختبار، فالله عز وجل يبتلى إنساناً بالفقر ويبتلي آخر بالغنى، يبتلى شخصاً بالمرض ويبتلى آخر بالصحة، ليرى كيف يصنع هذا، وكيف يتصرف ذاك.. وما أشبه.

إلا أن هناك وجهاً آخر لهذه المعادلة.. فحقيقة العدالة تكمن في بعدها الروحاني وليس في بعدها المادي، وهو البعد الأوثق والأهم في حياة الإنسان. فالعدالة الروحانية تعني مساواة الناس في قدرتهم على إمكانية التغير الداخلي والسمو الروحي وتلقى الإلهام الخارجي، فلا فرق بين البشر في تحصيل هذه الإمكانية، أما قابليتهم لقبولها واستيعابها فيختلف نتيجة مؤثرات شخصية وذاتية يوجدها الإنسان في نفسه، قد تقربه من هذا التغيير وقد تبعده عنه.. وهنا تكمن العدالة.

فأشعة الشمس تفيض على جميع البشر، لا تفرق بين غني وفقير، عالم وجاهل، كبير وصغير، رجل وامرأة، طيب وخبيث، صالح وطالح، مواطن ومستوطن.. فهي تغدق أشعتها على جميع المخلوقات حتى النباتية منها والجماد، وهكذا رب العزة والجلالة

يرسل مدده وبركاته وأنواره ورحمته على جميع المخلوقات، ولكن لا يكون بمقدورها استقبال هذا المدد إن لم تكن مهيئة له، وبالتالي فليس هناك قصور في عطاء الأعلى، ولكن هناك مشكلة في استقبال الأدنى..

الصخر والحجر والمدر يستقبل، ولكن ليس بإمكانه أن يستقبل ما يستقبله الورد والشجر لأن قابلية الأول تختلف عن قابلية الثانية، النبات يستقبل ولكنه لا يمكن أن يستقبل ما يحظى به الحيوان، وهو في نفس الوقت لا يمكن أن يستقبل ما يستقبله الإنسان.

فكل مملكة لها بحر من العطاء يختلف عن الآخر ويميزه عن البقية، وكذلك الإنسان الذي حباه الله بميزة تميزه وتفرقه عن باقي الممالك وهي ميزة العقل والروح التي نُفحت فيه.

صحيح أنه مدد وعطاء متواصل ولكن يختلف الناس في استقبالهم لهذا العطاء وهذا الإمداد، وهنا تكمن الفروقات الفردية بين الناس ومدى توجههم في فهم لعبة الحياة وتحديد أطر سعادتهم فيها.

الشمس لا تلامس رأس إنسان يستظل بسقف، والمطر لا يبلل إنساناً يرفع مظلة، كذلك إمداد الغيب التي يمدنا بالطمأنينة والسلام الداخلي والسكون والسكينة القلبية والروحية والوعي لا يمكن أن يلامس أرواحنا وقلوبنا ونحن نضع عشرات الحواجز والمعوقات التي تمنع استقباله، مكبلة قلوبنا بصنوف أنواع الحقد والكراهية، وعقولنا مشتتة بصنوف أنواع التفكير المادي، هنا من الصعب أن تكون لها إمكانية التلقي إلا ما تيسر.

وإذا كان الناس يختلفون في تحصيل ما يتعلق بالجسد (فالبعض يعيش حياة ملؤها الشقاء، بخلاف آخرين يعيشون في رغد من العيش) فإن تحصيل ما يتعلق بالروح يتساوى عند

جميع البشر، بمعنى أن أي إنسان بمقدوره أن ينمي ويطور آفاقه الروحية والنفسية، ولا سلطة للآخرين أو الظروف الخارجية أو العوامل المعيشية عليه، بغض النظر عن عمله ومكانته وما يتحمل من مشقة في الحياة.

إن ما يقع على الجسد ليس بذات أهمية إذا كانت الروح تعيش حياتها الحقيقية، متعلقة بأنوار الوجود، متشربه من لمعان الخير والبركة، لأنه حينئذ سيعرف لماذا تحدث له مثل هذه الأمور التي يعتقد أنها مأساوية.

فالعدالة الروحانية تتجسد في تساوي العطاء الروحاني، وفي قابلية الترقي الروحي، والعروج النفساني. وبالتالي يشترك جميع الناس بلا استثناء في قدرتهم على تحقيق ما يريدون تحقيقه، ولا عذر لمن أغلق هذا الباب على نفسه، وعاش في أراذل الضنك، وأسافل العيش، يحسب أن الله لم يرزقه النعيم، ولم يوفقه للهناء..

وبالتالي فإن ألم الجسد (فقر، تعب، إرهاق، مشقة، دمار.. الخ) ليس مقياساً حكيماً نقيس به أنفسنا بالآخرين. المقياس الحقيقي هو ما جنته الروح من معارف، وتقربت بهذه المعارف تجاه الخالق.

قد تلتقي بأناس حفاة لا يملكون سوى قوت يومهم ولكنهم في قمة السعادة والفرح، والاكتفاء الذاتي، ولا يطلبون الناس إلحافاً. ولا يقتنون ما ليسوا بحاجته، يعيشون يومهم بقناعة تامة وبيقين أن الغد سيكون أفضل من الأمس.

رحى الحاجات والمتطلبات التي وقعنا أسرى لها، والأنظمة الفكرية التي بنينا منظومتنا الفكرية من خلالها، ونفسية الصراع والغلبة التي انصهرنا فيها منذ نعومة أظفارنا، وغلبة الأنا على كل تصرفاتنا، كل هذه الأمور وغيرها سببت حجبا

كثيفة حالت بيننا وبين تلقي الرحمة والبركة من السماء. وبالتالي قبل أن نخوض في موضوع العدالة ينبغي أن نسقط كل هذه الأمور، بعدها نعي حقيقة العدالة الإلهية الحقة، نعيها حتى في أبعادها المادية.

كآبة ألم.. أم بهجة الحياة

يناقش البعض جدلية الحياة، أهي حقاً حزينة وكئيبة ومؤلمة، كما يراها البعض، سجن المؤمن، ساحة للآلام والهموم، مسرح للعذاب والغموم، ديدنها المكابدة والوجوم.. وهل الكآبة والحزن من طبيعة الحياة أم من طبيعة البشر؟ فإن كانت الحياة مشمولة بالحزن والويلات، فلم أراد الله لنا هذه المعاناة..؟ وإن كانت على عكس ذلك، فلماذا يعكس البعض الصورة المأساوية في أذهاننا وعقولنا عن الحياة؟

لو راجعنا مجمل النصوص الشرعية التي تتحدث عن الدنيا، لا نجدها تذم الدنيا كفترة زمنية نعيشها في أجساد بشرية، ولكنها تذم السلوك الدنيوي الذي يتعلق بالماديات حين ينسى الإنسان نفسه وذاته الحقيقية ويتعلق بكينونته الجسدية أو بوعيه الجسدي، فتكون الحياة بالنسبة إليه مرتعاً للعب واللهو وسد حاجاته الذاتية والمادية فقط " الكائن في الكون، ولم يفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته، ومحصور في هيكل ذاته" أي من يحصر نفسه في ثناياها وينبهر في معطياتها، ويذوب في لهوها ومتاعها فإنها تعميه عن رؤية الحقيقة، بينما من ينظر إليها من بعيد، ويعيش بها كعابر سبيل، أو كممثل يؤدي دوره على المسرح ثم يعود إلى بيته..

هنا تتحول الحياة إلى مدرسة روحية نتعلم فيها فنون السعادة للحياة القادمة التي سننتقل إليها..

دعنا نقول أن الحياة ساحة النفوس، تمارس فيها أدواراً مؤقتة ومحدودة، لها حرية الاختيار في أن تتثاقل إلى الأرض وتنجذب إلى عنصر المادة، أو تنفلت من الجاذبية عبر التصاقها بالروح التي تفتح لها سبل العروج إلى عالم ما فوق الطبيعة أو العالم الروحي..

النفوس التي تنجذب وتتثاقل إلى الأرض ترى الحياة بصورتها المأساوية الحزينة، مليئة بالمعاناة والألم، لأنها تتعلق بالأشياء والأموال والأولاد والأنا، وتخلق لنفسها أقنعة مزيفة وأدوار مصطنعة، ومع الأسف الشديد هناك الكثير من المؤمنين على الرغم من إيمانهم والتزامهم الشكلي إلا أنهم يقعون في شرك التعلقات والأقنعة والأنا المزيفة، فيشعرون بالحزن حين يتطاول أحد على أناتهم أو يفقدون احترام الناس لهم أو يُسقط أحدهم جزءا من قناعهم.

أما النفوس التي تتحرر من جاذبية الأرض وتحلق عالياً باتجاه السماء، فترى الحياة سعادة لأنها تدرك حقيقة الأشياء، فلا تتعلق بشيء إلا ما كان هادياً لها في العروج.

لذلك يخطئ من يعبر عن الحياة بأنها حزينة كئيبة.. وكيف يحزن من يكون الله معه ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾.. حتى الابتلاءات والنكبات والأزمات التي نمر بها إن لم نكن فيها مبتهجين ومنشرحين فلا تمثل لنا أية قيمة، فالله عز وجل حين وضع سنن الابتلاء لم تكن من أجل تعاسة الإنسان أو حرمانه أو شقائه بل من أجل تطوره ورقيه، ولن يحظى بهذا الرقي إلا حين يكون راضيا كل الرضا عما يصيبه.. بل لابد أن يكون مبتسماً بما ينزل به لأنه يكون بعين الله ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فلا طائل ولا جدوى من ابتلاء يجلب لصاحبه التذمر والحزن والكآبة.

لذلك حين نقرأ الحديث "إذا أحب الله عبداً ابتلاه" لابد أن نعي أن من يحب أحداً يكرمه ولا يبتليه، فالحب هنا إذن ليس لذات الابتلاء ولكنه لحالة الرضا والقناعة والانشراح التي يتسربل بها المبتلى، وكأنه يقول لحبيبه وهو يبتسم: "مهما عانيت وشقيت لن أتركك ولن أتخلى عنك، مهما واجهت من مصاعب في الحياة، فابتسامتي لك لا تذبل أبداً"..

وهنا ندرك عظمة كلام أمير المؤمنين (ع) حين قال: "ماذا وجد من فقدك وماذا فقد من وجدك" حين تجعل لله مكاناً في حياتك حينها لا تبالي إن وقعت عليك المصاعب والابتلاءات والمحن فأنت في عين الله وهو من يتولى رعايتك وسياستك.

هل جربت أن تبسم حين تعصف بك الأمور، لا أقصد ابتسامة غير المبالي، ولكن ابتسامة الحبيب الراضي بكل ما يقع عليه، الموقن بأن هناك من يرعاه ويراقبه ويغدق عليه من فضله في كل وقت.

اختبر واقع وحقيقة الرضا كل يوم مع نفسك، اختلى بنفسك لحظات وأغمض عينيك، وردد هذه الكلمات: "يا نور يا حق يا مبين، أحي قلبي بنورك، وأقمني لشهودك، وعرفني الطريق إليك" كرر اسمه النور مراراً ستشعر بقشعريرة الرهبة تنتابك، استشعر كلمة المعية الحقة مع الله، إنه معك يرعاك في كل أمورك، لا شعوريا سترتسم ابتسامة على شفتيك وراحة في قلبك واطمئنان في نفسك، سيعبر هذا الشعور عن معنى السعادة..

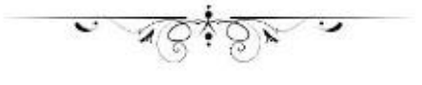

فن المحبة في الحياة

يخطئ من يظن أن الدعوة إلى المحبة والسلام وهن واستكانة وأنها وسيلة الضعفاء في العيش.. وأن العنف والصرامة وإثارة الأحقاد والنزاعات هي طريق الحق والغلبة والقوة. فلو أرجأنا كل مآسي العالم لوجدناها تنحصر في انعدام الحب وغلبة المصالح المادية والأنوية (الأنا)، فالحاكم الذي لا يحب شعبه يقهره، والمتدين الذي يكره الناس ينتقم منهم، والطائفي الحاقد يتآمر على إخوته ويشنعهم، والقبلي ذو الفزعة الجاهلية ينظر إلى الآخرين باحتقار ودونية، والمتحزب المعبأ بالأفكار يرى أهليته فوق الجميع.

عالم يعيش على صناعة الأحقاد، فهي صناعة رابحة تجلب الكثير من الأتباع والمريدين لأنها تدق ناقوس العواطف وتشحن النفوس بالغضب والكره، والأتباع يجلبون المال والقوة والغلبة، أجل هناك من يعتاش على الأحقاد عبر التجريح والمساس بمعتقدات الآخرين والاستهزاء بهم وإسقاطهم. ويا لها من طريقة بائسة وتعسة في الحياة أن تكون التفرقة وإثارة الأحقاد والنعرات الطائفية والدينية أسلوب حياة.

إن سقوط الأمم والمجتمعات بدأ حين اختلقت وابتدعت سنناً ما أنزل الله بها من سلطان، ورفعت شعار التعصب والقوة ونسفت الأقليات والأطراف الأخرى وقالت (لا نغلب من قلة) فتفرقت وانتكست، ومن ثم سقطت. وهذه سنة الله ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

قتل ستالين 40 مليون إنسان من بينهم 11 مليون مسلم، ليشكك الناس في وجود الله كما يقول، فماذا كانت النتيجة.. من رائحة الدمار والدماء ولدت الأمهات رجالا وعلماء أصبحوا فيما بعد من أقوى الدعاة إلى الروحانية حين تكلموا عن سنن الخلق والوجود بعلم لم يسبقهم إليه أحد من علماء الشرق والعالم العربي. لذا من يظن أنه سينتصر بالأحقاد والضغائن والقتل والتفجير والإرهاب، قد يربح جولة مؤقتة زمنياً ويعلو قليلاً ولكن لا يلبث أن تدور عليه الدوائر ويسقط من علوه لأنه كان عامل فرقة في أرض الله.

الغريب.. أننا حين نتكلم عن مآسي الواقع وكأننا في بلد لا يدين بالإسلام ولا ينتهج نهج المصطفى (ﷺ) الذي قام دينه على الحب والسلام ونسف القيم الجاهلية من تحزب وعصبية وطائفية وقبلية، ما بالنا رجعنا إلى عصر الجاهلية ونحن قريبون من عصر النور والوعي والازدهار.

لقد أخبرنا رسول المحبة عن هذه الفتنة قبل أكثر من 1400 سنة فلماذا نصبح أحد أطرافها المتسببين بها والمشعلين لفتيلها والمؤججين لنيرانها ونحن ندعي الإسلام. الإسلام قام على شهادة التوحيد لا إله إلا الله، فلا إله القبيلة وفزعتها، ولا إله الأحزاب وتنظيمها، ولا إله الطائفية ورموزها، ولا إله المصالح وزخرفها..

الإسلام يعني المحبة الخالصة لجميع أهل الأرض على اختلاف معتقداتهم، يعني احترام الإنسان والطبيعة والحياة، يعني الإخوة الصادقة، التعايش السلمي مع كل الديانات، يعني أن تعطي البعيد قبل القريب وأن يكون قلبك واحة يستقي منها الجميع.

في إحدى الأمسيات تناولنا مفهوم الحب بعمقه الروحي في الإسلام، الأمر الذي أثار دهشة الحضور من المسلمين وغيرهم،

وكان السؤال الذي ارتسم على الوجوه وتناقلته الألسن هل جاء في النصوص الإسلامية كل هذا العمق الروحي عن الحب وعن علاقة الإنسان بربه والمحب بمحبوبه..؟ وإذا كان موجودا، فلماذا لا نرى آثاره في الواقع التطبيقي والعملي. فالديانات التي تتخذ الحب وسيلة لبلوغ درجة التسامي والروحانية والقرب من الخالق عادة ما تتصف بطبيعة سلوكية تتمحور حول السلام والألفة والوداعة والخير والتعاطف وحب الناس والطبيعة والعالم، ولكن ما بالنا لا نرى هذه الأمور في المسلمين على الرغم مما طرحه الدين الإسلامي من عمق في مفهوم الحب قل نظيره بين الديانات الأخرى؟

فأشرنا إلى أن التوجهات الوصولية والمصلحية استبدلت أقوى رابطة تجمع بين العباد وخالقهم بأطر تشريعية جامدة أو بطقوس فارغة المحتوى أو بتاريخ مزور لا تعرف حقيقته، أو بشعائر خاوية الجوهر. لقد أفرغوا دين الله الذي جاء على فترة من الرسل ليجعلوه في قوالب صماء محدودة الأبعاد وجعلوا الخروج عنها خروج عن دين الله سبحانه وتعالى..

حتى أننا حين نحاور المسلمين عن أصل دينهم الذي قام على الحب والمحبة نرى وجوه البعض تكفهر حنقاً وغيضاً وكأننا نتحدث عن دين آخر غير الإسلام، أو أننا نلج باباً غريباً عن التشريع.. باباً مشوباً بالمفاهيم الغامضة مخلوطاً بالأفكار المبهمة التي يعجز عن إدراكها.

لقد تمسكنا بظاهر الأعمال وأهملنا جوهرها، تمسكنا بالطقوس والشعائر ونسينا عبرتها وغايتها.

دعونا من وهم الأكثرية والغلبة والانتصار، دعونا من فتنة الدجال التي غرست في عقولنا منذ مئات السنين وورثناها عن آبائنا، فالأرض تتسع للجميع، فلنغرس فيها بذور السلام.

غدا سنقف بين يدي الله عز وجل، وسوف تتجلى أعمالنا فتظهر أغلال الأحقاد حول أعناقنا كقطع الليل المظلم، فما يكون جوابنا حين يقول لنا الله تعالى أنا الرحمة الشاملة غرست يسيرها في قلوبكم فماذا صنعتم بها؟ بعثت إليكم أنبياء ورسلا وصالحين ليدعوكم إلى نشر السلام والمحبة في العالم، لأنكم بدون المحبة لم ولن تصلوا إلى معرفتي ومحبتي والتقرب إليَ، كونتم الأحزاب والفئات والجماعات والكثرة، ولكني قلت لكم ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ ولم تفقهوا قولي.. جمعتم الناس على الأحقاد وظاهرتموهم على الاختلاف.. كان الأجدر بكم أن تجمعوهم على المحبة والهـدى إصلاح الفـساد الذي ظهر في البر والبحر بأيديكم.

تكمن مآسينا في جهلنا بفنون المحبة.. والجاهل بفنون المحبة لا يعي حقيقة الدين وأصوله. "وهل الدين إلا المحبة" وقال رسول الحب: "الدين هو الحب، والحب هو الدين".. وقال: "أحب عباد الله إلى الله جل جلاله أنفعهم لعباده".. وقال: "الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله"..

كلمات تجمع ديانات السماء وحكمة الحكماء.. كلمات مقدسة لشخصية هي الأولى من بين جميع عظماء العالم.. شخصية نحن ندعي الانتماء إليها والانتساب لشريعتها، ولكن مع الأسف الشديد ما أبعدنا عن بصائرها وتوجهاتها وتعاليمها..

طائف شيطان

يتساءل بعض الإخوة لماذا نركز في مقالاتنا وأبحاثنا على مفهوم الحب والمودة والتآخي ونبذ الحزبية والفرقة والطائفية التي أصبحت سمة طبيعية في الحياة..

في إجابتنا لهم نرشدهم إلى قراءة سورة الكهف.. فهذه السورة تمثل ملجأ الحقيقة والحصن الحصين لكل سالكي

دروب عالم النور، فالحق يميط اللثام ويكشف الستار عن حقيقة النزعة البشرية من حيث اهتمامها بتوافه الأمور وقشورها وتركها لأصل الحقيقة ومنبعها.

يبين الحق كيف اهتم الناس وانشغلوا في إحصاء وحساب عدد أصحاب الكهف وتناسوا العبرة من الإحياء.. كيف انشغلوا بأمر الكلب وتناسوا الحقيقة المهمة وهي مبدأ التوحيد والإيمان.

إن الحياة كالوعاء ما أن تشرب منه حتى يمتلئ النصف الآخر بالهواء، فالطبيعة ترفض العدم أو النقص، فما زاد شيءٌ إلا ونقص من طرف آخر، وحين يهتم الإنسان بالقشور لابد أن يكون على حساب المهم والجوهر..

وهكذا هي السنن والقوانين الإلهية، التي تؤكد أن اقترابك من الباطل سوف يبعدك عن الحق، وبقدر حجم خوضك في الباطل يكون حجم ابتعادك عن الحق والحقيقة وعالم النور. ومن هنا استغل الشيطان هذه النزعة للولوج بمكر في قلوب المؤمنين الذين خُيل لهم أن ما يقومون به هو الحق بينما هم ارتكسوا وتعثروا في حبائل الشيطان من حيث لا يعلمون.

فالشيطان ينفث وساوسه ويحيك حباله ويسترسل بخطواته في مشروعه الاستراتيجي (الطائفية) من باب الغيرة والحمية على الدين والدفاع عن العقيدة والحق، والقرآن يكشف زيف هذا القناع بأروع صوره حين يصور الشيطان كالطائف الذي يطوف حول الكعبة متلبسا بالدين مدعياً الحق متظاهراً بالتقوى والصلاح ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا..﴾ فالشيطان حين ييأس من إغراء المؤمن بالملهيات والجنس والقمار والتسكع والمحرمات الأخرى يأتي إليه كالطائف متلبساً بالدين، متخفياً برداء الصالحين، متخلقاً بآداب المتقين داعياً إلى أخذ الثأر من كل المعارضين والناقدين والناقمين..

وهذا ما نراه على شبكات الانترنت من واقع مأساوي تقشعر له الأبدان، حيث السباب واللعن والطعن الذي ينهال من طوائف المسلمين وتكفير بعضهم لبعض والكل يشهد بربوبية الله تبارك وتعالى..

والجميع يقسم بالله أنه على حق ويستنبط صوابه وصدق أقواله من القرآن الكريم. فيصرف البعض ساعات طويلة من يومه وهو يتصفح مواقع الانترنت مبشراً لطائفته، أو رادا على رأي يخالفه، أو شاكاً في كلام قرأه، أو ساباً لرأي استهجنه، أو ناقلاً لمقطع صوتي أو فلم يفضح مخالفيه في العقيدة والرأي..

ولنا أن نتساءل إذا كانت طاقة ملايين من شباب المسلمين ومفكريهم وعلمائهم تهدر في تأجيج فتن الطائفية، فماذا بقي لنا للإبداع والتقدم وكشف أسرار الطبيعة والتأمل في آيات الله والتطلع إلى ملكوته.

لقد كسب إبليس الرهان حين استطاع أن يبسط نفوذه وسيطرته من خلال حبائله واستطاع تأطير الوعي الإنساني وتحجيمه في أمور هامشية بعيدة كل البعد عن منطق الحق والصواب، فالعقول المسخرة والجهود المبذولة في تأجيج نار الطائفية بمقدورها أن تحقق إنجازات علمية متقدمة تخدم البشرية والإنسانية.

كما أن الأموال التي تصرف في هذا الشأن كفيلة بأن تقضي على شبح الفقر والموت في العالم كله، ولكن هيهات هيهات أن يترك الشيطان شبابنا المؤمن يتمتع بهذا الطموح الملائكي.

من يدخل كهف التوحيد الخالص من الشوائب لا يكون له وقت للقيل والقال ولا للتعصب ولا للاهتمام بالعدد فكل ذلك رجماً بالغيب، وهذا هو نهج أصحاب الكهف.. فهل سنكون منهم.

النوم.. رحلة روحية قصيرة

كثيراً من الإخوة والأخوات يتساءلون عن الاضطرابات التي تحدث لهم أثناء النوم أو حين الاستيقاظ، فالبعض يشعر وكأن شيئاً ينبهه ويوقظه ويفزعه بمجرد أن يبدأ بالنعاس أو حين يكون في بداية النوم، البعض يستيقظ بشكل مفاجئ في حالة من الخوف والذعر والفزع، كما يسمع البعض من ينام بقربه يتكلم بلغة غريبة أو تنتابه حالة من الصراخ والبكاء، وآخرين يشعرون كأنهم خشب مسندة لا يستطيعون تحريك أجسامهم وكأنهم في حالة شللية، وغيرها من حالات مختلفة يعاني منها البعض أثناء النوم.

لذا سنلقي في موضوعنا هذا بصيصاً مقتضباً من الضوء على هذه الأمور بصورة مجملة.

في البدء ينبغي أن نعلم جيداً أن النوم واحدة من أعظم هبات الخالق الذي جعل الليل لباساً حتى تهدأ فيه النفوس وترتاح الأبدان من عناء النهار الذي جعله معاشاً، ولكن لأن النهار لم يعد معاشاً حقيقياً اختل نمط لباس النوم الليلي.

فالله عز وجل خلق الكائن البشري بهذه الصورة لكي يعمل، يتحرك، ينجز، يسعى، يبدع، يصنع، يكدح، يكد.. بمعنى آخر أن يقضي نهاره في الحركة والعمل الجسماني والفكري والعقلي، حتى إذا أقبل الليل شعر أنه بحاجة إلى الفراش ليرتاح ويهدأ جسده فيغط في نوم عميق يتم خلاله تنقية الجسم من السموم

التي أفرزتها أعضاؤه أثناء النهار. ولكن لأن حركة الإنسان بدت شبه معدومة عند البعض فالوظائف المكتبية المكيفة والكراسي المريحة والتنقل بوسائل النقل المريحة مع تزامن وفرة الغذاء غير الصحي والهواء الملوث كل هذه الأمور وغيرها جعلت من النوم كابوساً مؤرقاً.

ينبغي احترام هذه الهبة الربانية.. يجب احترام النوم وتقديره. حين تستعد للذهاب للنوم، ضع في ذهنك قدرة الله التي ستتجلى فيك بعد دقائق، فهناك أمران مهمان يحدثان: عمل داخلي في أعضائك الجسمانية، وعمل آخر في نفسك، عمل في الداخل وعمل في الخارج. في الداخل جعل الله الليل كمنبه حماية وكجرس إنذار للأعضاء الداخلية وعلى الخصوص الكبد الكليتين والرئتين ليقوموا بأعمالهم في تخليص الجسم من السموم.. ولكن هناك أيضاً سموم عالقة في النفس، هناك طاقة استنزفت أثناء النهار بحاجة لردم النقص فيها. فالإنسان يتعرض أثناء النهار لشتى أنوع المؤثرات النفسية والروحية السلبية، سواء التي يولدها شخصياً في نفسه كالغضب والعصبية والتوتر، أو التي تعرض له من قبل الآخرين كنظرة حاقد أو وجوده في مكان تنبعث منه رائحة الغيبة والنميمة وما أشبه. وهذه الأمور تعمل خللا في الإيقاع الذبذبي والطاقي والروحي للجسم.

لذلك ينبغي أن نعلم ما الذي يحدث أثناء النوم حتى نعلم لماذا تنتابنا الحالات المذكورة آنفاً.

تخرج النفس البشرية (الأنا) بجسمها النجمي وهي مدركة، أي أن لها شعوراً عقلياً لاتصالها بالجسد أثناء النوم، فلا يبقى مستلقياً على السرير سوى الجسد المادي والأثيري. لذلك يقول الحق: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا..﴾ وخروج النفس لا يكون خروجاً كليا وإنما ترتبط

بخيط نوراني رفيع بمقدوره أن يتمدد ملايين الكيلومترات ما بين الجسد المادي والأثيري المسجى على السرير.. وفي حال انقطع هذا الخيط يحدث الانفصال الكامل وتحدث الوفاة ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ..﴾ أي لا تعود إلى الجسد مرة أخرى، ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي ترجع إلى الجسد فيحدث الاستيقاظ.

إذن.. أثناء النوم يحدث انفصال مؤقت بين الجسد المادي والأثيري من جهة والنفس من جهة أخرى.. وفي الوقت الذي يعمل فيه الجسد للتخلص من السموم تقوم النفس كذلك بالتزود بالطاقة الكونية والأثيرية من المستويات العليا، وقد تلتقي بأرواح سامية تدرك من خلالها بعض الحقائق أو تنبهها لبعض الأمور أو تنقل لها بعض البشارات. ولكن حين يكون الوعي النفسي والأنا التي تسيطر على الجسد خارجه فإنه يمكن لكائنات دنيا أو لتأثيرات سفلية أن تخترق الجسد المادي وتؤذيه. الأمر أشبه بالإنسان الذي يترك سيارته مفتوحة الأبواب كي يدخل متجراً أو محلا يبتاع منه بعض الأغراض، فمن المحتمل أن يتجرأ أي لص يمر بالقرب من السيارة أن يعبث بها أو يحركها من مكانها، وعادة ما تحدث مثل هذه الأمور حين تنام في مكان جديد لم تعتد عليه. فالكائنات غير المرئية تملأ كل الأماكن وتكون معتادة ومتعايشة مع سكان المكان بعلاقة من المودة والألفة، ولكن حين تنام في مكان آخر لم تعتد عليه فهي تحاول أن تستكشف هذا الجسد الذي حل عليها واستقر حديثا بالقرب منها. لذلك نجد في جميع الديانات السماوية وحتى الأرضية أدعية وصلوات وتوكيدات خاصة لحماية الجسد من عبث المؤثرات الخارجية.

لذا من الضروري قبل الذهاب للنوم أن يحمي الإنسان جسده المادي ووقايته من هذه التأثيرات التي تسبب له الخوف والفزع

أو الشعور بالسقوط من مكان مرتفع. هناك آيات وأدعية للحرس والحفظ، وبمقدورك بعدها أن تقول: "إلهي ستذهب نفسي إلى عالم آخر كي تتزود من نورك وبهائك، تتعلم من علمك وتترنم بذكرك وتتزود من معينك الصافي، فاجعل جسدي في عنايتك وأحطه بقوتك ونورك وأحمه من كل التأثيرات السلبية خلال فترة رحيلي عنه" بهذه الكلمات القليلة أو غيرها ممن تجده مناسباً تخلق هالة من نور تحيط الجسد، هالة لا يمكن اختراقها أو النفاذ منها.

خلو المعدة من الطعام إلا القليل جداً يجعل عملية تحليق النفس في المستويات أسهل وأسرع، فالأكل قبل النوم بفترة قصيرة لا يجعل انطلاقة النفس بعيدة في المستويات المتألقة حيث النور الأرواح الراقية إنما تقيد وتمسك في المستويات القريبة من الأرض والتي تتخللها العديد من النفوس الشريرة والطاقات السلبية التي تنعكس على شكل أحلام مزعجة أو كوابيس مؤرقة أو حالات من الهيجان.

حين نخلد للنوم ينبغي أن نضع في اعتبارنا أننا في رحلة روحية عميقة.. ولا أقصد هنا ما تطرحه خرافات وخزعبلات تفسير الأحلام التي طالت المنظومة الفكرية الإسلامية عبر قنواتها الفضائية السمعية والمرئية.. ولكن لأن النوم يدخلك في تجربة روحية خاصة بك أنت، فأنت وحدك من له الحق في التحقق مما يحدث فيه.

تدخل في النوم وأنت تعلم بحدوث هذا الانفصال النفسي عن جسدك، لذا اجعل وعيك يقضاً حال الخروج، واطلب من الله أن تكون في كامل وعيك النفسي، بمقدورك أن تقول: "إلهي أريد أن أكون واعيا مستيقظا حين ارتحالي للعالم الروحي وأن أكون بوعي يمكنني من معرفة أحداث وتفاصيل رحلتي".. لذلك لا تجعل النوم مجرد عادة تقوم بها كل يوم.. فالنوم ليس مجرد راحة، إنه

أكثر من هذا بكثير، إنه رحلة روحية تخترق من خلالها العديد من العوالم كل يوم، قد لا تتكشف معانيها بادئ الأمر، ولكن إن وضعت في عقلك وذهنك أن ثمة أمر كبير يحدث أثناء النوم فسوف تجني ثماره حتماً.

في النوم أنت تموت الموت الأصغر.. ألا ينبغي أن يلفت نظرك هذا الأمر؟ ألا يلفت نظرك أنك ستذهب إلى عالم آخر؟ ألا تريد أن تدرك إلى أين تذهب؟

بدون مقدمات سليمة لا يمكنك إدراك شيء من ذلك، ولهذا ينبغي أن تعمل على ثلاثة مستويات في آن واحد:

1- أن تحافظ على جسدك من عبث المؤثرات السلبية، حتى تعود النفس للجسد بيسر وسهولة دون عوائق، فحالة التخشب أو ما يعرف بالجاثوم تحدث نتيجة هذا العبث، فهناك من يريد الاستحواذ على الجسد الذي تكون أغلب طاقته خارجه أثناء النوم، ولا يملك إلا القليل والذي بالكاد يستطيع أن يحرك عينية أو يحرك لسانه الذي يشعر وكأنه متخشب أو في حالة شلل. وحين تبدأ النفس بالرجوع عبر الحبل الأثيري تبدأ قوى الإنسان تزداد فيكون بمقدوره التخلص من هذه الاستحواذ.

2- تجعل النفس تنطلق إلى مستويات عليا في العالم الروحي ولا تقيدها بأعمالك في المستويات الدنيا. فالتفكير المتدني والذبذبات الإلكترونية المشوشة من الأجهزة وإشغال الفكر بالمشاكل والهموم وتقليب المواجع، والأكل الزائد في المعدة من شأنه بقاء النفس في المستوى الأرضي.

لذلك ننصح بالتأمل قبل النوم ولو لعشرة دقائق حتى تنام وأنت خالي الفكر والذهن من تشويش الحياة، وتهيئ نفسك لرحلة مشوقة.

3- أن تكون واعياً أثناء رحلتك.. قد لا يكون هذا بالأمر السهل في البداية ولكن ضعه في اعتبارك.

لذا لا يكفي أن نتخلص من حالات اضطراب النوم.. بل ينبغي أن نجعل من النوم رحلة روحية بكل معانيها.

دعوة عوالم السماء

تسمع طرق الباب فتفتحه فإذا به صديق لك يسلم عليك بحرارة ويدعوك لتأتي معه لأمر مهم، تعتذر منه لانشغالك بالعديد من الأمور هذه الليلة، ولكنه يصر إصراراً كبيراً على خروجك معه، تستخدم كافة الوسائل والحيل للتملص من الخروج ولكنها تبوء جميعها بالفشل، وأخيراً تذعن لطلبه وتخرج معه، وما أن تطأ قدماك عتبة منزله وإذا بهتافات من هنا وهناك تبارك لك وتهنئك على عودتك من السفر وحصولك على شهادة الدكتوراه، ما حدث كانت مفاجأة مبهرة أسعدتك كثيراً، وحينها ستعلم لما كان صديقك مصراً على حضورك إصرارا لم تعهده منه قبلاً، والسبب أنه كان يعلم بسيناريو ما سيحدث وما سترى، يعلم أنك ستفرح كثيراً بهذا الجمع وهذا الاحتفال، أما أنت فكنت لا تعلم، لذلك امتنعت عن تلبية الدعوة بادئ الأمر لولا إصراره المستمر الذي جعلك تغير رأيك أخيراً..

أكرر العبارة مرة أخرى.. هو يعلم.. وأنت لا تعلم، لذا كان مصراً على وجودك أما أنت (لأنك لا تعلم) فقد حاولت الاعتذار.

هل نعلم لماذا تصر رسالات السماء على دعوتنا إلى عالم النور؟

هل نعلم كم من الأرواح الراقية زُهقت وعُذبت ونُشرت بالمناشير وقطّعت من أجل دعوتنا، أو من أجل إيصال (بطاقة) الدعوة إلينا؟ هي دعوة.. قد نلبيها أو نرفضها، قد نلبيها كاملة أو ناقصة..

وهل نعلم إن قمنا بتلبيتها كم هو الفرح الذي سيعم عالم الملائكة والنور نتيجة لذلك؟

فهي تعلم.. ونحن لا نعلم..!

إن هذا الإصرار نابع من معرفة أرواح ذلك العالم من أنبياء وملائكة ومرشدين روحانيين ومقربين بما أعده الله لنا في احتفالية الاستقبال، أما نحن فلا نعلم، وإن توهمنا أننا نعلم ولكننا في الحقيقة لا نعلم ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الله يعلم، والملائكة تعلم، والأنبياء يعلمون، لذلك يصرون على تلبية دعوتهم ليفرحوا بقدومنا معهم.

إن فرح عوالم السماء وسعادتها بتلبية دعوتها ناشئ من المحبة الخالصة التي استقتها من معين فيض الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء. فهذه العوالم مشربة بمعين الحب الخالص، نقية من ظلمة الغل والحسد والبغض والكراهية، هي تفرح لما سيلاقيه الإنسان في ذلك العالم وكأن الأمر يخصها بذاتها، وكأن عودته تعني لها الكثير، ولذلك تصر على دعوته ومناداته مراراً وتكراراً.. لأنها تعلم أما نحن فلا.

لذا.. لا نستغرب أو نُكذب إنساناً فتح الله عين قلبه على عالم السماء وكشف عنه غطاءه حين يقول لك: "لو جئتني بملء الأرض ذهباً ما تركت أنس ولذة الحالة التي أعيشها".. لأنه رأى بيقين قلبه بعض رذاذ ذلك العالم وتلمس آثاره.

ومن هنا نعلم لماذا قال النبي محمد (ﷺ) قولته المشهورة: " والله لوْ وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركتُه". قال هذا لأنه رأى من آيات ربه الكبرى، وتشرب من فيض القدس.

ولذلك تركز تعاليم الأديان على ضرورة أن يرى الإنسان، وأن يدرك، وأن يعي ولو بصيصاً من ذلك العالم الذي يعد من أهم القضايا التي أراد الخالق لبني البشر معرفتها.

الصلاة، التأمل، الحج، العبادات أدوات ووسائل مهمتها الأساسية أن تفتح قلبك وتوجه عدسة وعيك لتنفذ إلى هناك ولتعرف لماذا تصر عوالم السماء على دعوتها هذه.

ما أعظمه من إله يدعونا إليه بكل حب ورأفة ورحمة، يدعونا إليه لأجلنا نحن، لأجل سعادتنا ورقينا وهنائنا لنكون أرواحاً خالدين مخلدين.

ليعلم كل إنسان أن هذه الدعوة بين يديه الآن، استلمها منذ سنوات عديدة، بعضنا أهملها وركنها، وبعضنا استصعبها ولم يفهمها، وبعضنا فهمها فهماً قشرياً، وبعضنا فهمها فهماً مغايراً، وقليل من لبى نداءها ورأى احتفالية وروعة هذه الدعوة وسعادتها.

الدعوة لا تزال بين يديك، حاول قبل فوات الأوان أن تفتحها وتعرج بروحك إلى عالم السماء لتشهد مفاجأة وروعة الاحتفالية التي ستكون بانتظارك.

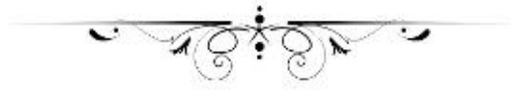

لماذا تلاحقنا الابتلاءات والمحن؟

لماذا يعاني الإنسان في حياته من الابتلاءات والصعاب والأزمات، فكلما تجاوز أزمة دخل في أخرى جديدة، أما آن لهذه الابتلاءات والمحن أن تنتهي من حياته؟ ولماذا تتجلى بوضوح في حياة المؤمن أكثر من غيره، هل هناك علاقة بين الإيمان والابتلاء؟ متى نعلم أن ما يحدث لنا هو ابتلاء وليس شيئاً نستحقه؟

قبل الإجابة ينبغي التنويه إلى رؤية في منتهي الأهمية أشارت إليها الفلسفات القديمة وأكدتها الديانات السماوية وهي أن السعادة في الحياة لا تعني غياب وتوقف سيناريو المنغصات والمحن والعراقيل والصعوبات التي يمر بها الإنسان، فالسعادة لا تعني خلو الحياة من هذه الأمور وإنما في طريقة تعاملنا معها. أو دعنا نقول إن هناك بعدين مهمين في الحياة:

1- العوامل والأحداث الخارجية والظروف والتغيرات التي يعايشها كل واحد منا.

2- الكيان الداخلي والباطني للإنسان الذي يتعامل مع هذه الاحداث.

طريقة تعامل الكيان الباطني النفسي والروحي والعقلي تجاه الأحداث الخارجية فهماً وقبولاً هو ما يحدد سعادة الإنسان أو شقاءه، فرحه أو حزنه، لذته أو ألمه..

فالناس يختلفون نفسياً وعقلياً وإدراكياً وهذا ما يجعل الأحداث والمتغيرات التي تتجلي في حياتهم تظهر بمظاهر

مختلفة، فإدراكنا لما يحدث حولنا يعتمد بشكل كبير على طبيعتنا النفسية وحالتنا العقلية وإدراكنا لها، ومن هنا اهتم المفكرون والفلاسفة والأنبياء والمرشدون على مر العصور في صياغة أنماطٍ سلوكية وروحية وعقلية تجعلهم ينتصرون على الظروف الخارجية والقضاء على الرعب والخوف والقلق الذي تولده الظواهر والأحداث التي يمر بها الإنسان، مما يعود عليه بسلامة العقل وطمأنينة النفس.

فحدث طبيعي كغروب الشمس قد يعكس شعوراً مفعماً بالرومانسية والهدوء والراحة النفسية.. منظرٌ يجده البعض ملهماً باعثاً على الشوق والعودة إلى الذات والراحة من ضجيج الحياة. بينما يجده البعض غياباً للبهجة وإثارة للأحزان وتذكر لشجون الماضي. يجده تعبيراً عن الرحيل والغربة وتضييع الأحلام.. فالغروب هو الغروب ولكن انعكاس مشاعرنا وأفكارنا الداخلية تجاه الحدث هو الذي يعطي معنى مختلفاً للغروب لكل واحد فينا..

لا زلت أتذكر درس اللغة العربية في فترة الثانوية كيف أن شاعرين وقفا على شاطي البحر ينظران إلى زبد البحر وهو يلقي بنفسه على الشاطئ، حين صور أحدهم الزبد بالبياض والنقاء والطهارة والصفاء بينما الآخر عبر عنه بالأكفان البيضاء التي يلف بها الميت قبل دفنه.. فالزبد ذاته لم يتغير ولكن كلا الشاعرين كان لهما معنى مختلف تجاهه.

كل ما نراه في العالم الخارجي يخضع لمخزون المعارف والتصورات والآفاق النفسية ويمر عبر الفلاتر النفسية والعقلية والإدراكية التي نحملها داخلنا.. أي أن العالم الخارجي يبقى كما هو لا يتغير بتغير انطباعاتنا وخبراتنا وتجاربنا ونفسياتنا ووعينا، وإنما ما يتغير هو رؤيتنا تجاه هذا العالم وكيفية تحليل مفرداته.. وبالتالي نرى العالم جميلاً حين يكون في أعماقنا

وفرة كبيرة وعظيمة من الجمال بمقدورها أن تفسر كل ما نراه بمفردات الجمال.

وهذا لا يعني أن يتحول العالم إلى صورة من صور الكمال والجمال، فلا تزال تكتنف هذا العالم صور البؤس والشقاء والحزن والأسى وغيرها من مكدرات ومحبطات، ولكن حين يعبق الباطن بأريج الجمال الداخلي فإنه يرى كل هذه الأمور جميلة لأنها تسير نحو غاية وهدف ما ينبغي اكتشافه أو معرفته، كما قالت السيدة زينب حين سألها: كَيْفَ رَأَيْتِ صُنْعَ الله بِأَخِيكِ وَأَهْلِ بَيْتِكِ؟ فَقَالَتْ: "مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً".

ومن هنا ندرك سر الابتسامة التي ترتسم على محيا إنسان تكالبت عليه المشاكل من كل حدب وصوب دون أن يعبأ بها ودون أن تمس سلامه الداخلي قيد أنمله، الذي يرى الوجود بما فيه جميلاً لأن باطنه مشبع بالحب والجمال اللامتناهي.. الجمال الذي يغير نظرته لكل العالم، والحب الذي يقرب إليه كل العالم.

والآن.. دعونا نلقي نظرة متفحصة مسهبة نحلل من خلالها ما يعترض طريق الإنسان من ابتلاءات ومنغصات ومشاكل وأزمات وعلة حدوثها في حياته؟

ما يُنظر إليها على أنها ابتلاءات ومحن وشدائد يمكننا إرجاعها لعدة أمور منها:

1- أمور تحدث كضرورة لحياتنا الأرضية.

2- أمور تحدث نتيجة قرارات خاطئة.

3- أمور تحدث نتيجة الحوبة.

4- أمور تحدث نتيجة الوعي الجمعي.

5- أمور تحدث لنرجع إلى ذواتنا.

6- أمور تحدث لأنها من اختيارنا.

7- ابتلاءات وأحداث تحدث للرفعة والعبرة.

ولنأتي على تفصيل كل واحدة من هذه الأمور على حدة:

أولاً: أمور تحدث كضرورة لحياتنا الأرضية

وهي الأحداث العامة الطبيعية أو ما نعتقد أنها طبيعية التي تتعلق بقوانين الخلق الذي يسير وفق منظومة وسنن كونية، هذه السنن التي تحتضن الوجود البشري، والتي تتطلب أموراً لابد منها كتغير فصول السنة، وكموت الأحياء وكمشقة العمل البدني وغيرها من أمور، فالله سبحانه خلق الإنسان في عالم متغير في أحداثه الطبيعية من حرارة ملتهبة إلى برودة شديدة، من نسيم عليل إلى أعاصير مدمرة، من مياه عذبة رقراقة إلى فيضانات كاسحة، هذه التغيرات الطبيعية قد يجدها البعض مؤلمة ومدعاة للتذمر والسخط والاستياء، ويعتبرها نوع من أنواع الابتلاءات الطبيعية.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن عالم الطبيعة يتطلب العمل البدني والمشقة والكد والاجتهاد. لذلك يقول الحق: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي أن طبيعة الحياة ترفض الكسل والجمود والثبات، فمن صرخة الميلاد الأولى تنتاب حياة الطفل العديد من صور المشقة والمعاناة، فالفطام ضرورة صحية طبيعية قد يجدها الطفل أمراً مؤلماً حين يمتنع عما تعود عليه.. ابتعاد الوالدين عنه فترة من الزمن، عدم إعطائه أو منحه ما يريد، إدخاله في مؤسسات التعليم، مروره في صعاب فترات المراهقة والشباب، إلى مرحلة البحث عن عمل ووظيفة والاستقلال بنفسه، والزواج، وتربية الأبناء، إلى معاناته لأمراض الشيخوخة ومن ثم الموت..

ومحاكاة هذه الصعاب لا يتعلق بالجانب الإيماني للإنسان، فكونه مؤمناً ملتزماً، أو سالكاً مبحراً، أو زاهداً متقشفاً، أو ذاكراً

محباً، لا يمنع تعرضه لمثل هذه التقلبات، وتجرع صعابها أو تجنبه الوقوع في المشاكل والأزمات والصعاب والمحن. فالإيمان والروحانية لا تعفيه من هذه الأمور ولا توفر صكوك الحياة الطيبة الهانئة التي تبعد عنه المكابدة والألم أو الشقاء.

فحياتنا سلسلة من الأحداث الرتيبة منها أو الفجائية، قد تستيقظ فرحاً وبعد قليل تغتم لأمر ما لم ينجز بشكل جيد، وقد تستيقظ مثقلاً تعباً ويفرحك بعد قليل خبر نجاح ابنك.

تخرج من بيتك فرحاً فترى موقفاً يكدر صفوك. أو تخرج مغموما فتلتقي بجارك الذي تأنس معه ببعض الكلمات. وهكذا هي الحياة مد وجزر، رخاء وشدة، ألم وفرح، معاناة وغبطة، حالة نفسية مستقرة وحالة نفسية مضطربة، الحياة بين بسط وقبض. وهذا هو الوصف الطبيعي لحياتنا الأرضية. فما دامت أرواحنا لا تزال في مساكن أجسادنا فتقلب أحوالنا هي الحالة الطبيعية.

سيناريو الكبد والمشقة والجهد الذي يعيشه الإنسان مطلب أساسي من مطالب الحياة، ولكن ما ينبغي أن ندركه هو أن الاحداث الطبيعية لا تخرج عن قدرة الإنسان على التحمل، لأن الله خلقه في طبيعة تمكنه من تحمل متغيراتها ومتطلباتها، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها. لا يمكن أن تكون متغيرات الطبيعة بسننها الكونية فوق قدرة تحمل البشر، بل جعل الله قدرة الإنسان وتحمله للمتغيرات متناغمة وأعلى قليلاً من متطلبات الطبيعة. بمعنى أن الطفل حين يسنن (تنمو أسنانه) فإنه يتألم ويجد صعوبة في الأكل، وقد يتأثر الوالدان ويتذمرون من حالته على الخصوص حين يكون طفلهم البكر، ولكن من الناحية الفيزيائية والمادية لجسم الطفل فإنه قادر على تحمل هذا الألم، أي أنه لا يشكل خطراً على حياته.

وكما أن تعثر الطفل وسقوطه حين يبدأ المشي أمر طبيعي لا ينبغي أن نبالغ فيه، كذلك نظرتنا إلى الأحداث الطبيعية ينبغي أن تكون طبيعية. فكثيراً من الناس يتذمرون من العمل الشاق والمجهد في حين أن البناء الجسدي للإنسان مصمم لأجل أن يتعرض يومياً لأشعة الشمس، مصمم لأجل الحركة التي تبدأ في اللعب منذ أيام الطفولة، وتستمر حتى نهاية عمره، وأي توقف للحركة والعمل وبذل الجهد يعني بداية تفشي الأمراض في الجسم. لذلك تشير الدراسات إلى أن الاعمال المكتبية والرفاهية والجلوس ساعات طويلة دون حراك سبب رئيسي في الإصابة بالعديد من الامراض المزمنة. العمالة المنزلية التي أضحت تقوم بكل أعباء البيت وجعلت المرأة لا تحرك ساكنا إلا ما ندر فاقم من تفشي الأمراض المزمنة التي لم نكن نسمع بها إلا نادراً.

حين نعتقد أننا ككائنات بشرية خُلقنا في وسط مادي بقدرات وسعة متناغمة معه، أو أعلى منه قليلاً عندها تكون لنا قدرة كبيرة في السيطرة والتحكم وقبول هذه المتغيرات لأنها لن تنال من إرادتنا التي أودعها الله فينا.

عبث الإنسان بالطبيعة وبقوانينها في محاولته للسيطرة عليها واستغلالها جعل ردة فعلها عنيفةً على المملكة البشرية، فالحر اللافح، والبرد القارص، والأعاصير المدمرة، والزلازل المهلكة، والتسونامي الكاسح، والتغير المناخي المفاجئ الذي يشهده العالم، ليس من صنيعه الطبيعة الاولية وإنما هو نتيجة ردة فعل لما يقوم به الإنسان من انتهاك لحرمتها والعبث بنظامها الطبيعي.

فالمصانع العملاقة التي تبث آلاف الاطنان من الغازات السامة، وتطعيم الأرض بآلاف الأطنان من المواد المشعة أو الكيماوية، وسحب كميات كبيرة من البترول من باطن الأرض يفوق حاجة الإنسان، وحصر التجمعات السكانية المليونية في مساحات

صغيرة وغيرها من أمور كثيرة تجعل ردود أفعال الطبيعة التي تُعتبر كالكائن الحي - إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى - قوية وحادة ومؤثرة في المملكة الإنسانية.

الله بريء مما يدعيه البعض سواء الملحدين في كتبهم ومواقعهم أو من رجال الدين على منابرهم الإعلامية الذي يروجون أن الكوارث المدمرة ما هي إلا ابتلاءات من الله.. الله خلق طبيعة متوازنة تسير وفق نظام دقيق محكم، وأي تلاعب في هذا النظام تكون له ردة فعل معاكسة وقوية، قد لا تحدث في ذات المنطقة ولكنها تحدث لا محاله. فالفساد وفق البصائر القرآنية والذي يعني العبث والتغير لا يحدث من تلقاء نفسه ما لم تكن هناك يدٌ تعبث به ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهذا الفساد قد يخلق أحداثا درامية لبعض المجتمعات ينتج عنها العديد من المآسي والآلام والمنغصات.

إذن..

هناك مشاق وشدائد ومحن يصطدم بها الإنسان لا لشيء إلا لأنها مطلب طبيعي في حياتنا الأرضية القصيرة والمحدودة، فالحياة أشبه بجامعة يدخلها الطالب كي ينهي دراسته الجامعية، هذه الجامعة فيها من القوانين والنظم ما لا يستطيع الطالب تغييره، لذا ينبغي أن يتعايش مع هذه النظم ولا يعبث بها أو يعارضها أو يخالفها، فهو لا يعلم أن هذه القوانين أنما وضعت لأجل مصلحته ومنفعته، وكلما ازداد وعياً ونضجاً كلما علم أن هذه القوانين لصالحه، وفي نفس الوقت لا يمكن أن تكون هذه القوانين فوق طاقته، فلا أحد حينها سيدخل هذه الجامعة ويدرس فيها.

ثانياً: أمور تحدث نتيجة قرارات خاطئة

حياة الإنسان سلسلة من القرارات والاختيارات التي يقوم بها في كل لحظة من لحظات حياته، منها السليم ومنها الخاطئ، ولطالما كانت القرارات الخاطئة هي التي تسبب له المنغصات والعذابات والتي يطلق عليها هو الابتلاءات.

من البديهي أن القرار الخاطئ يتمخض عنه نتيجة خاطئة تجر عليه الويلات فيما بعد. حين تنتاب الإنسان شراهة في الأكل حتى يزداد وزنه ويصاب بداء السكري أو التلكؤ المعوي أو القولون العصبي.. حين يحملق لساعات طويلة في شاشة الكمبيوتر أو التلفاز فتصاب عينه بمضاعفات النظر.. حين يتكاسل عن القيام بتمارين رياضية ويفضل الركون للدعة المخملية فيصاب بترهل العضلات أو الهشاشة.. حين يعيد سيناريو أحداث الماضي في مخيلته كلما وضع رأسه على الوسادة ليلاً فيجافيه النوم ويصاب بالأرق.. حين يهمل عمله ولا يؤديه بالشكل المطلوب فيفصل من وظيفته.. حين يتجرأ على الغش في الامتحان فتُرفض ورقته.. حين يقود سيارته بسرعة جنونية فيتسبب بحادث ينتهي بإعاقة مستدامه.. حين يتكلم عن شيء لا يعلمه، ويفتي بأمر يجهله فيُحرج أمام الآخرين.. حين لا تقوم الزوجة بأداء مهامها كما ينبغي فيتسبب تقصيرها في طلاقها.. كل هذه قرارات واختيارات خاطئة تنتهي بنتائج سلبية..

كثيراً من المرضى يدعون الله ليل نهار أن يشفيهم كانوا هم السبب في أمراضهم وعللهم، كثيراً من أصحاب الإعاقات نتيجة للسرعة الجنونية التي كانوا يسيرون بها يعتقدون أن ما حدث لهم ابتلاء من الله، بينما هم من ارتضوا لأنفسهم هذه الحالة، كثيراً من مدمني المخدرات الذين وافاهم الأجل وانتقلوا إلى العالم الآخر يعتقد البعض أنه ابتلاء لأهلهم أو تكفير لسيئاتهم، لقد كان مجرد قرار واختيار خاطئ ليس له أية علاقة بالابتلاء أو التكفير عن السيئات.

قراراتنا الخاطئة إما أن تكون عن جهل أو عناد أو تسرع أو طغيان لسلطان الأنا في النفس، فجهل الإنسان قد يرديه سبل المهالك. فحين يبتلع أقراصا من الدواء لا يعلم مكوناتها أو يجهل طريقة استخدامها قد تتسبب في موته، وبالتالي فكثيراً من الأزمات والمشاكل والأحداث المؤلمة في حياتنا سببها اختيارات خاطئة نتيجة جهلنا بالشيء. فكثيراً من الأمراض سببها الجهل بالتغذية الصحية، وكثيراً من حالات الطلاق سببها الجهل بفنون الحياة الأسرية، وكثير من الأمراض النفسية سببها جهلنا بالمكونات النفسية وعلاجها، وكثيراً من الخلافات الاجتماعية سببها جهلنا بفنون المداراة وحسن الإصغاء والحب، وكثيراً من الكره والأحقاد الطائفية سببها جهلنا بأصول الدين وغاياته، وكل أنواع الجهل هذه يستتبعها قرارات واختيارات خاطئة تؤدي إلى أحداث مؤلمة في حياتنا.

ومع الأسف الشديد كثيراً ما ندرج هذه القرارات الخاطئة ضمن خانة الابتلاء، وأن الله هو المتسبب بها، ونجعل فكرة الابتلاء شماعة نعلق عليها أخطاءنا التي لا نريد الاعتراف بها أو تغييرها.

لذلك ينبغي أن ننتبه لكل خطوة نخطوها في حياتنا، وأن نجتهد لتكون حركاتنا وأفعالنا واعية فاحصة متأنية، فما من حركة إلا يتوجب أن يسبقها علم ومعرفة. أن نتفكر ونتعلم وننتبه ونفهم ونوازن الأمور بحكمة وبصيرة قبل اتخاذ أي قرار من الممكن أن يسبب لنا ألماً أو تعاسة في الحياة.

ثالثاً: أمور تحدث نتيجة الحوبة

كل نية تراود ذهن الإنسان، وكل خيال يتصوره بفكره، وكل كلمة يتلفظها، وكل عمل يقوم به، تبقى محفورة في ذاكرة الزمن أو الذاكرة الكونية. فكل هذه الأمور لها صورة أثيرية لا تنعدم

ولا تزول في البعد الاثيري، فقد ينسى الإنسان الكثير من الأحداث، وقد لا يعبأ بالعديد من المواقف التي يمر بها، إلا أن تفاصيل هذه الأحداث تبقى عالقة بجسده الأثيري، تتحين الفرصة لكي تظهر بذات الصورة، أو بصورة أخرى في حياة الشخص نفسه، وهذا ما يشير إليه القرآن بالحوبة، وما تطلق عليه العلوم الحديثة بالكارما..

ومفهوم الحوبة بأبسط معانيه يشير إلى العاقبة الأخلاقية، أو تجلي نتائج أعمالنا التي نقوم بها تجاه الآخرين أو تجاه الطبيعة في حياتنا، وبالتالي فهي انعكاس للصور الأثيرية ونتائجها التي علقت بنا من خلال أعمالنا، فحين نكون سبباً في أذية إنسان ما، فإن الصورة الاثيرية لهذا العمل تلصق بمحاذاتنا وتجاورنا ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وتتحين الفرصة لكي تظهر وتتجلي، أي أن هذه الصورة تحرر نفسها من مكمنها وتظهر في صورة مشابهة، أو بصور أخرى، فالإساءة أو الأذية التي تسببنا بها سوف ترجع إلينا، فيقوم أحد ما في التسبب في أذيتنا أو الإساءة إلينا. لذلك يؤمن كثير من الناس أن الحوبة سنة كونية أو قدر لا مفر منه يلاحقنا مهما طال الزمن، لذلك قالوا: "الحوبة لو تبطي ما تخطي" كما أشارت الأحاديث أن السبيل الوحيد للخلاص من الحوبة يكون عن طريق الاستغفار والتصالح مع المخطئ بحقه وطلب رضاه، فالتوبة تغسل الحوبة، كما جاء في الحديث: "حسن التوبة يمحو الحوبة".

يعيش البعض في عالم من المشاكل والمعوقات والأزمات والشدائد ويتساءل لِمَ يفعل الله بي ذلك؟ وهو لا يعلم أن كثيراً من مسببات هذه الأزمات والمعوقات سببها سوء تعامله مع الآخرين أو ظلمهم أو التعدي عليهم..

قرأت قصة قبل 25 عاماً لعالم روسي متخصص في هذا المجال عن امرأة تزوجت ولم تنجب أطفالا لعدة سنوات ولا تعلم السبب، ذهبت إلى العديد من الأطباء الذين أكدوا أنها سليمة ولا تعاني من أي مرض عضوي. لجأت بعدها إلى المشعوذين الذين وعدوها باستخدام بعض الأمور ولكنها لم تفلح معها كذلك، إلى أن شاءت الأقدار والتقت بأحد العارفين المتبصرين وأخذت تشتكي حالها. فنظر إليها وقال لها: "أنت لا تعانين من أي مرض عضوي، وعدم الانجاب سببه موقف خاطئ قمت به منذ زمن بعيد" استغربت المرأة من هذا الحديث وقالت: "وأي موقف هذا، فأنا لا أتذكر شيئاً، ولا أتذكر أني أسأت إلى أحد" فقال لها: "تذكري جيداً.. يوم زفافك حين كانت الخادمة تلبسك ثوب العرس فأخطأت في وضع قطعة ما في مكانها فصرخت عليها وقمت بتوبيخها بعنف، فتضايقت وبكت وتركت المكان". فقالت وهي مستغربة: "نعم أتذكر هذا الموقف، ولكنه شيء مضى منذ أكثر من 10 سنوات". فقال: "إن هذا الموقف السيئ تحول إلى صورة أثيرية علقت في الرحم وسببت له انسداداً أثيرياً أوقف عندك الإنجاب". فقالت: "وهل من حل لهذه المعضلة، فأنا أتوق إلى الانجاب".. قال: "الأمر بسيط إذهبي إليها واطلبي منها السماح واعتذري لها". قالت مستغربة: "فقط أهذا كل شيء" قال: "نعم.. هذا كل شيء" قالت: "ولكنها في منطقة أخرى بعيدة، وينبغي عليَّ أن أبحث عنها لأني لا أعلم أين تسكن الآن". فقال: "إن شئت علاجاً فهذا علاجك، عليك أن تذهبي إليها وتطلبي العفو والسماح منها".

تهيأت المرأة للسفر للبحث عن المرأة التي أساءت إليها يوم زفافها، وبعد بحث طويل وجدتها، استقبلتها وجلسوا يتذكرون الأيام التي مضت، وذكّرتها بما حدث في يوم زفافها، فقالت الخادمة: "أجل أتذكر هذا اليوم وقد حزنت كثيراً وقتها، لأني

لم أتوقع منك هذا التصرف" فطلبت المرأة أن تسامحها على ما بدر منها وأن تعفو عن خطئها، فقبلت الخادمة أسفها وتصالحا. رجعت من عندها فرحة مسرورة وكأن ثقلا كبيراً قد أزيح عن صدرها، وبعد ثلاثة أشهر تبين أنها حامل لأول مرة منذ أكثر من عشر سنوات.

لذلك حين نظلم، نغتاب، نحسد، ننهر، نتسبب في فرقة الأحباب، نسب ونشتم، نلعن، ننافق، نأكل أموال الآخرين، نتمنى لهم السوء.. كل هذه الأمور وغيرها لا تذهب أدراج الرياح، فما نتسبب به من أذى لغيرنا سيعود إلينا بقوته وشدته سواء بصورته أو بصور أخرى..

لذا ينبغي أن نراقب أنفسنا جيداً في كل ما نفعل وعلى الخصوص في علاقتنا مع الآخرين، وعلى الخصوص في علاقتنا مع الوالدين والأقربين والأحبة. قبل أن نتفوه بأية كلمة نضع أنفسنا مكان الطرف الآخر ونفكر هل سيؤلمه ما سنقول أم نختار صيغة أخرى هي الأقرب إلى قلبه.

كلماتنا.. أفعالنا.. سهام تخترق مسارات القدر، قد تخلق مساراً آخر حين تجد أن هناك كثبانا عالية من ردود أفعال سيئة قمنا بها تعترض طريق تقدمنا، أو حتى صحوتنا. كثيراً من الناس تتأخر صحوتهم الروحية لوجود كم هائل من التركات والمخلفات القديمة ينبغي أن تتجلى حتى يتم التخلص منها.

رابعاً: أمور تحدث نتيجة الوعي الجمعي

ليست أرواح البشر وحدها تكون في حالة تواصل مع بعضها البعض، إنما يشمل التواصل كل شيء في العالم ولكن بشكل أقل من تواصل الأرواح. وبالتالي إذا كان هناك مجموعة كبيرة من الناس على شاكلة واحدة وأفكار متناغمة ونوايا مشتركة فإن

المحيط المادي سوف يتأثر بشكل كبير بهذا الوعي الجمعي المشترك.

لذلك نجد بعض المجتمعات المتمرسة في الأحقاد والكراهية لن ينصلح حالها مهما طال الزمن، فالوعي الجمعي يخلق المشاكل ويسد الآفاق ويعمي البصيرة ويحول الكراهية من الخارج إلى الداخل.. أي يحول الكراهية ضد الغير إلى كراهية داخل الحزب وداخل العشيرة وداخل الأسرة الواحدة ومن ثم داخل الإنسان نفسه. تتحول الرغبة في التخلص من الغير إلى التخلص من أحد أفراد الأسرة، من الزوجة أو الأولاد. لذلك لا نستغرب حين نسمع عن أم تلقي بأولادها في النهر، أو أم تنحر ابنتها الرضيعة، أو أب يتخلص من أبنائه ويضعهم على قارعة الطريق. تحدث كل هذه الأمور في دولة مسلمة جارة وليست في دول الغرب.

فماذا نتوقع من ملايين البشر تغلي الأحقاد في قلوبهم ليل نهار، أناس فتحوا أعينهم على كم هائل من مفاهيم اللعن والسب والشتم، يعتقدون أنهم يلعنون أناساً في بطون التاريخ، بينما لا يلعنون إلا أنفسهم وواقعهم وأهلهم وذويهم، ولكنهم لا يشعرون. ماذا نتوقع من أناس تجري كلمة اللعن عندهم مجرى الدم في الشريان يحسبون (مبرمجين) أنهم يؤجرون عليها، وهم لا يعلمون أن ما يتفوهون به يحيطهم وسيرتد إليهم ولو بعد حين.

الحقد تجاه فئة معينة من المجتمع تولد أمراضاً مزمنة، وانتكاسة في مشاريع التنمية العامة، وتولد خللا في نظام الطبيعة وانعدام الأمان.

يضرب الله مثلاً في ﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ

وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ لأنها خرجت عن قوانين الحق وكفرت بالنعم التي أنعمها الله عليها، ولم تراع حقوق الآخرين وحرياتهم ومكانتهم الإنسانية.

آلاف المنتديات ووسائل التواصل الاجتماعي تروج للطائفية وتزرع الأحقاد بين الناس. آلاف المواقع الإلكترونية مجندة للنيل مع بعض فئات المجتمع ووصفهم بالدونية والترويج للعنصرية والقبلية والعصبية والعرقية.. يعتقدون أن هذه الأفعال تمر مرور الكرام، ولا يعلمون أن هذه الأعمال ترفع الرحمة وتقلل البركة وتوقف مدد النعم الإلهية. لذلك يقول الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ونتيجة تدني هذا الوعي الجمعي المفعم بالحقد والكراهية وحب السيطرة وإذلال الآخرين والنظر إلى الفقراء والمعوزين والأجانب نظرة دونية من شأنه أن يخلق أزمات في حياة الفرد والمجتمع. آلاف الدعوات التي تبث شكواها في جوف الليل وتئن من الظلم والاستعباد والجور والتعسف ألا يكون لها تأثيرٌ في عالم التكوين..!؟ الانحراف السلوكي الذي بدأ يصل إلى درجة ازهاق النفس المحرمة وقتلها، وانتشار المخدرات التي حرفت مسير الكثير من الشباب دون رادع أو وازع ألا يكون له تأثيرٌ على الآخرين سواء بشكل مباشر أو غير مباشر؟!.

شعور الناس بالقلق والاضطراب من تخبط القرارات، الإشاعات المغرضة حول اندلاع أزمة في المنطقة، التصريحات التي تنذر بانهيار الاقتصاد، ناهيك عن الذباب الإلكتروني الذي يعبث بضمير وروح الهيكل الوطني عبر إثارة النعرات الطائفية من جانب والدعوة إلى التخلص من الدين والتبشير بالعلمانية من جانب آخر، كلها تنبئ بأخطار غير محمودة العواقب ما لم

يعمل الحكماء وأصحاب الضمائر الحية على تداركها وتقويمها وإصلاحها.

نحن لا نعيش بمعزل على الآخرين، ومن يعتقد هذا فالأولى له أن يتفقه في أسرار الحياة.. ليس فقط أعمال الآخرين ولكن كذلك أفكارهم ونفسياتهم، فالقرية الآمنة المطمئنة يكفيها أن تحوي قلوباً نقية طاهرة مفعمة بالحب والشفقة والرحمة على العالم ليتحول فيها المجتمع إلى واحة أمن وسلام وراحة واطمئنان وتنمية وعطاء وبناء.

قبل أن نقول لماذا يفعل الله بنا ذلك؟ ينبغي علينا ان نلقي نظرة على وعي المجتمع وعلى ما يطرح في الساحة الاجتماعية والثقافية وفي المنتديات ووسائل التواصل الاجتماعي، نبحث عن تفشي صور الظلم والاضطهاد، نعالج الظواهر التي تمس ذات الإنسان وتنال من حريته وكرامته، نعالج تفشي الواسطة التي تنتهك حقوق الآخرين، ندافع عن الفقراء والمعوزين الذي لا يستطيعون تعليم أبنائهم في المدارس، ولا معالجتهم في المستشفيات، لأنه حين يسكت أهل الحق عن الباطل يظن أهل الباطل أنهم على حق. وما أكثر العبر وأقل المعتبرين.

لا يقل الوعي الجمعي المتدني السلبي خطورة من الحوبة أو الكارما على الإنسان في تجلي السلبيات الأثيرية في العالم الواقعي.

خامساً: أمور تحدث لنرجع إلى ذواتنا

العالم الروحي الذي يحوي على مليارات الأرواح المرشدة يستخدم العديد من الوسائل والأدوات لتنبهنا وترشدنا وتعيدنا إلى رشدنا من جديد بين فترة وأخرى، ولكن كثيراً من الناس لا يستمعون وأكثرهم عن إشاراتهم غافلون وعن رسائلهم

شاردون فيستمرون في مسيرتهم إلى أن تتكالب عليهم الآلام والأحزان فيعجزون بالتالي عن الخروج منها إلا بشق الأنفس..

بعض الأمور التي تحدث في حياتنا والتي نعتبرها منغصات أو آلام هي أشبه بصدمة صاعقة تنبهنا وتوقظنا من الغفلة التي نكون فيها ومن انشغالاتنا بأمور تافهة لا تعود علينا بالنفع أو الفائدة. فما نعتبره حدثاً مؤلما قد يتحول فيها بعد - فيما لو أدركناه جيدا - إلى محطة نتوقف فيها لنراجع أنفسنا من جديد نتعرف فيها على ذواتنا الحقيقية أو لنصغي لتوجيه وإرشاد الله لنا. فنحن أشبه بمسافر ذهب إلى المطار بانتظار موعد إقلاع طائرته، ولكنه انشغل بترتيب حاجياته وأغراضه وبالحديث مع شخص آخر. وفجأة يثير انتباهه صوت التنبيه بالميكرفون يعلن عن الاستعداد لدخول الطائرة. لولا صوت التنبيه لأخذه سيل الحديث ومضى به الزمن دون أن يلتفت إلى إقلاع الطائرة.. كثيراً من الأحداث التي تمر بحياتنا هي أشبه بصوت تنبيه إقلاع الطائرة.

دون أزمات ومنعطفات ومنغصات ومشاكل نكون أشبه بالمسافر المنشغل بحاجياته وأغراضه دون أن ينبه بضرورة توجهه لبوابة الإقلاع.. الملائكة والأرواح المرشدة التي أخذت الإذن من الله لتقوم بهذا الدور تنبهنا بالعديد من الطرق والوسائل - عن موعد الإقلاع - والرجوع إليه والتواصل معه لحل هذه الأزمات. الله يطرق أبواب قلوبنا وأرواحنا من خلال الأحداث التي نمر فيها، ليقول لنا ها أنذا فإني قريب أسمع دعوة الداعَ إذا دعان.

دون المنغصات سنمضي قدما بسرور ظانين أننا ذاهبون إلى مكان ما، ولكننا في الحقيقة ندور في رحى لا نحرز أي تقدم نحو الأمور الأعمق التي يريدنا الله أن نختبرها في الحياة. نسير وفق متطلبات النفس والأنا لا وفق متطلبات ذواتنا وأرواحنا، وهذه الأحداث تجعلنا نلتفت مرة أخرى إلى حقيقتنا.

فقد يرى البعض نفسه وقد حقق إنجازات باهرة، تسير أموره على أكمل وجه وكما يريد ويخطط، حياته آخذه بالنمو والازدهار، وفجأة يحدث ما لم يكن في الحسبان وتنقلب الأمور رأساً على عقب، ويكون وقع الحادثة عليه كالصاعقة أو الكارثة التي أفسدت كل شيء قد بناه. يبدأ عندها بالتذمر والسؤال: لماذا يا رب حدث ذلك؟ لماذا حدث هذا الأمر لي أنا شخصياً دون غيري؟ لماذا الآن وفي هذا الوقت؟ لماذا وقد كانت حياتي كأفضل ما يكون؟

الله يسمح لنا أن نتعثر في طريق رحلتنا الحياتية، حتى نكون كالجرحى والألم يغمرنا، غير أن ما نظن أنها جراح هي عكس ما تبدو عليه، فكم وكم من أحداث كنا نعتقد أنها سلبية وقاسية ومؤلمة شكرنا الله آلاف المرات بعد أن عادت علينا نتائجها النهائية بالفائدة غير المتوقعة.. فقد نحزن ونتألم على ضياع شيء ما.. نهاية شراكة في العمل.. أو عدم نجاح مشروع ما.. أو تأجيل سفر للخارج.. فشل في الزواج.. تمرد الأبناء.. ولكن بعد فترة نشكر الله كونه أوقف سريان القدر في هذه الأمور التي كانت تحتاج إلى إعادة نظر ودراسة متأنية.

تنبهنا الأحداث والمنغصات التي نمر بها أن ثمة شيء آخر يلعب دوره في حياتنا المادية، فالحياة ليست ذات وجه واحد، فأنت تخطط وتصمم وتعزم وتهيئ كل المستلزمات ولكن فجأة يحدث غير ما خططت له وبنيت آمالك وعقدت العزم عليه.. هناك من يتألم ويتأوه ويكتئب ويحزن حين لا تسير أموره وفق ما يريد، ولكن هناك من يتوقف ويعي حقيقة أن المتغيرات في الحياة لا تعتمد على البعد المادي، فثمة شيء آخر مهيمن ومحيط ومكتنف حركتنا في الحياة. الله يساعد الإنسان عبر كل وسائطه الروحية كي يعيده إلى حقيقة نفسه من جديد.

الأزمات توقظنا من غفلتنا وتنزعنا من براثن الأنا التي تعتقد باكتفائها وزهوها وجبروتها عن التعلق بالله وبالعالم الروحي. لا يمكن لقوة الله أن تلامس أرواحنا وكياننا الداخلي مادام وهم الأنا يقنعك بأنك قد كبرت وقادر على المشي وحدك وبمقدورك أن تسلك طريق الحياة وحدك. شعورنا بالحاجة الملحة لمن يأخذ بأيدينا هي القوة الحقيقية..

سادساً: أمور تحدث لأنها من اختيارنا

هذه النقطة مهمة ينبغي التركيز عليها جيداً..

قبل أن تستوطن أرواحنا العالم الأرضي وتتجسد في اللباس البشري قمنا باختيار الصورة الأولية للسيناريو الذي سوف نعيشه، وكتبنا عهداً وميثاقاً بأننا سوف نجتاز العديد من الأمور التي سوف تدرج فيما بعد ضمن منجزاتنا الكلية وتُدون في الكتاب الذي سيحفظ في الذاكرة الكونية في العالم الروحي. والسيناريو الذي يتم اختياره أو يتم انتقاؤه ليس عشوائياً وإنما يهدف إلى تثبيت بعض المفاهيم والحقائق النظرية التي عرفناها في عالم الروح بهدف تجسيدها عملياً على أرض الواقع المادي، فيتم اختيار أفضل سيناريو بمقدوره أن يحقق وينجز هذه الأهداف. وعلى هذا الأساس يتم اختيار مكان ولادتنا وأسرتنا ومحيطنا ومجتمعنا ومن له علاقة قدرية ومصيرية بتحقيق هذه المطالب الروحية.. فحياتنا ليست عبثاً إنما تسير وفق خطة إلهية وغاية تهدف إلى تطور ذواتنا الحقيقية لتكون مبدعة وخلاقة في العالم الروحي. وقد ذكرنا هذا بالتفصيل مع ضرب العديد من الأمثلة في موضوع اليقظة الروحية في الجزء الأول.

ومن هنا نجد أن كثيراً من الأحداث التي نمر بها والتي قد تحمل صورة من صورة الألم والمعاناة والقسوة ما هي في واقع

الأمر إلا جزءاً من سيناريو قمنا باختياره سابقاً لنتعلم منه ونختبره في حياتنا العملية، فالحياة أشبه بمختبر لمادة علمية يطبق فيها الجانب العملي والتقني.

لقد خُلقنا في أوساط وأسر ومجتمعات تعكس حقيقة أهدافنا الروحية التي نسعى لتطورها ونموها، فوجودنا في مكان ما وتحت ظروف معينة يعني أن هناك خللا ما ينبغي إصلاحه أو سلوكاً يتوجب تغييره أو أفكاراً ومعتقدات لا تحاكي الفطرة السليمة ينبغي التخلص منها.. لذلك جملة من أهدافنا الروحية تتكشف في عمق المعاناة والأسى والمواقف المحرجة والمؤلمة حين نعيشها بحالة من القبول والوعي والإحاطة والتفكر..

فتارة تظهر صفاتنا السلبية من خلال غيرنا، فنجدها في الزوج أو الزوجة، الأولاد، الأصدقاء، الرئيس في العمل، أي أن الله يريد أن يُرينا بعض صفاتنا بصورة مرئية فيجعلنا نعايش أشخاصاً لهم نفس الصفة حتى نتوقف ونراجع أنفسنا في كيفية التخلص منها بذواتنا.

وتارة تظهر صفاتنا السلبية عبر إثارتها من عوامل خارجية كالمحيط الذي نعيش فيه. فالغضب المغروس بأعماقنا كيف يظهر ويتجلى في الواقع - بحيث نشعر به عن كثب - إذا لم يكن هناك شخص ما يثير فينا هذا الغضب ويحفزه على الخروج والتجلي في الخارج.

حين يريد الله أن يغرس فينا صفة القناعة، كيف لهذه الصفة أن تتجلي دون أن نعيش حالة من الكفاف والتقشف الذي يفرضه الوسط الذي نعيش فيه. حين يريد الله أن يغرس فينا صفة التحمل والصبر والمكابدة، كيف لهذه الصفة أن تتجلي وتثبت دون أن يكون هناك أمور كثيرة تتطلب الصبر والتحمل، فهذه الصفات لا يمكن أن تتجلى فيما لو عاش الإنسان حياة مرفهة من جميع أبعادها.. وهكذا.

الله يريد أن يرينا صورتنا من الخارج عبر الآخرين تارة، وتارة أخرى يجعلنا مع أناس يثيرون صفاتنا السلبية كي تتجلى وتظهر ليتم التخلص منها فيما بعد.

إذن.. نولد في الحياة وفي جعبتنا مجموعة من الأهداف والغايات التي عاهدنا الله بتغييرها في أنفسنا والتي ينبغي تحقيقها، ولكننا بمجرد أن نمر في عملية المخاض أثناء الولادة ننسى كل تلك الغايات والأهداف، حتى كأننا لا نعلم عنها شيئاً ﴿واللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ وحتى ينبهنا الله ويذكرنا بتلك الأهداف يجعل حياتنا تتزامن في أوساط أو نعايش أناس يحملون نفس الصفة أو النمط أو الحالة التي يدعونا إلى تغييرها، أو الصفة التي يريد صقلها فينا.. ليس هذا فقط بل يقرب إلينا الصورة أكثر فأكثر حين نستشعر ونتذوق الألم والإحباط والأوجاع والسلوك غير السوي جراء معايشتنا لهذا النمط من السلوك.

دعونا نضرب مثالا حتى تتضح الصورة العملية لما نقول:

امرأة طيبة مؤمنة تزوجت من رجل تحول مع مرور الزمن إلى متسلط وقاسي صعب المراس فماذا تفعل؟ هل تشتكي وتتذمر من حالها وتطلب الطلاق كي تنهي هذه المأساة؟ هل تجاري سلوك الرجل وتستمر معه على مضض يتملكها الألم وشعور الضحية أم تقف وقفة تأمل ووعي للواقع وتتساءل هل هناك رسالة ينبغي عليّ فهمها من تعسف الحياة التي أعيشها؟ هل هناك سمات في شخصيتي يتوجب عليّ أن غيرها؟ هل أفتقد إلى صفات ينبغي غرسها في ذاتي؟ هل استمر على هذه الحالة أم أن هناك باباً آخر سيفتحه الله لي بعد ذلك؟

المرأة العادية إما أن تجاري الواقع وتندمج فيه وتصبح جزءاً منه، فتفقد هويتنا الذاتية والشخصية التي تذوب في المحيط أو في شخصية الزوج، فنراها متذمرة شاكية نادبة حظها، تستفحل

بها صفة الغضب والعصبية والتوتر والقلق والاكتئاب.. أو أنها تنهي الأمر وتطلب الانفصال. بينما المرأة الواعية تقف وتتأمل حالها، تنفصل عن المؤثرات الخارجية فترة من الزمن كي تعود إلى ذاتها الحقيقية وتتساءل عن حقيقة وجودها في هذا المكان، هل تتملكها ذات الصفة التي تجدها في زوجها؟ هل وضعها الله في هذا المكان لأنها تحتاج إلى تأكيد وتثبيت صفة التحمل والصبر التي لم تكتمل بعد؟ هل تعاني من صفة من صفات الأنا بحيث تعمل قسوة الزوج على تغييرها أو اقتلاعها؟

وبالتالي فإن الزوج أو الزوجة لا تستقيم حياتهما إلا بعد أن يدركا ويعلما الرسالة الموجهة إليهما من هذا الزواج.. وحين يدركا جيداً هذه الرسالة سوف تتغير حياتهما ويصلا إلى حل مناسب أو يتفرقاً ويغن الله كلاً من سعته. تارة يكون الزوج بحاجة إلى تعلم الرحمة والشفقة، فقد تم اختيار هذه الزوجة من العالم الروحي لتساعده وتعينه على أن يكون عطوفاً، حنوناً، محباً، مثالياً. وبالتالي ينبغي أن تعطيه الزوجة هذه الفرصة، أن تكون ردود فعلها مؤثرة ومنسجمة مع هذه الغاية، وألا تكون صدامية أو متعنتة أو متذمرة. ومن هنا نعلم أن كثيراً من حالات الطلاق سببها التهور والتسرع في القرارات وعدم التفكر في المقاصد الإلهية من هذا الزواج.

فإذا كانت الزوجة أو الزوج يعتقدان أن هذا الزواج جزء من السيناريو الذي تم التخطيط له في العالم الروحي بحيث يكون له هدف ما، ينبغي إذن عليهما أن يعرفا ويتفكرا ويصلاً إلى حقيقة الدروس التي يتعلمها كل طرف من الآخر.

وقس على ذلك الكثير من الأحداث الدرامية والمؤلمة التي نعيشها في حياتنا، فالأحداث المؤلمة التي نمر بها إشارة إلى أن ثمة خلل فينا ينبغي إصلاحه وتعديله، أو خللٍ في الآخرين ينبغي علينا مساعدتهم لتقويمه وتحويله، أو صفة ما ينبغي أن

نتعلمها ونمارسها عن كثب، وبمجرد أن نفهم هذه الرسالة ونعيها ستختفي المعاناة وتُحل المشكلة ونصل إلى نتيجة لم نكن نتوقعها.

فالله لا يريد عذابنا أو يتفنن في بؤسنا وشقائنا، فما نعانيه من آلام هو من اختيارنا بالدرجة الأولى، قمنا باختياره لكي نتطور روحياً ونضيف رصيداً لذاتنا الحقيقية الكامنة في عالم الروح. كمادة نجتازها في الجامعة حتى تزيد من معدلنا النهائي.. ولكن غفلتنا عن وعي هذه الفكرة والنظر بعشوائية لما يواجهنا من أحداث في الحياة تجعلنا نعتقد أنها نوع من أنواع العذاب أو الشقاء المستمر.

ومن هنا تأتي أهمية التأمل والتمعن والتفكر في استقراء مفردات حياتنا، أن نتوقف بين فترة وأخرى لنقيَم ما تعلمناه وما أعطيناه وما قمنا به من أدوار على مسرح الحياة. حين نعي الدرس ونقبله سوف نجتاز الاختبار ونتخطى المحنة، بينما الصدام والتعنت معه سيبقيه فترة طويلة من الزمن قد لا تنتهي لأننا لم نع الدرس ولم نتعلم المراد منه.

إذا لم نع الدرس فإن هذه الأحداث سوف تتكرر في حياتنا تباعاً ولن تتوقف، فنقول: "لماذا كلما خرجنا من مصيبة أو مشكلة نقع في أخرى" لسبب بسيط أننا لم نفهم الدرس - من مصيبتنا الأولى - ولم نقبله ولم يغير شيئاً فينا.

حياتنا جملة من الممكنات والاختبارات التي ينبغي اجتيازها، فقد يمنعنا الله من المال لأنه يريدنا أن نختبر حالة التقشف والحرمان لينظر ماذا نفعل، هل سنبقى على عهدنا معه أم ننقضه. قد يضعنا في مكان نصطدم فيه مع شخص غضوب سريع الانفعال لينظر ماذا تكون ردة فعلنا تجاهه وكيف سنتعامل معه. قد يرزقنا بطفل مريض لينظر قدرة تحملنا وصبرنا وطريقة رعايتنا له.

لذا ينبغي أن ننظر لكل حدث في الحياة على أنه مسرح تمثيل وقاعدة اختبار، فهناك دور ينبغي أن نقوم بأدائه، وقيمة معنوية ينبغي أن نكتسبها من واقع ما نحن فيه. فكل مشكلة وكل أزمة وكل ألم يريد أن يعلمنا شيئاً ثمينا في الحياة، لا نتخلص منه أو ينفك عنا إلا حين نتعلم الدرس جيداً..

سابعاً: ابتلاءات تحدث للرفعة والعبرة

هناك أرواحٌ اجتازت المراحل السابقة وعلى درجة عالية من الروحانية الخالصة.. لكننا نلحظ أنها لا زالت تواجه العديد من صور الابتلاء والقهر والحرمان، كالأرواح الطاهرة للأنبياء والرسل والأولياء والصديقين. إذا اجتازت الأرواح كل ما سبق بنجاح فإن وجودها الأرضي إما أن يكون لزيادة مقامها الروحي، أو لتمثل دور القدوة والاسوة للمملكة الإنسانية.. وبالتالي يكون النبي أو الولي أنموذجاً ومثالاً لغيره. فتبتلى هذه الأرواح لنُختبر نحن من خلالهم. حتى إذا ما صادفتنا مثل هذه الابتلاءات نجد في صورهم ومواقفهم ما يشد أزرنا للاقتداء بهم والسير على نهجهم والتحلي بصفاتهم حين عاشوا في خضم هذه الأحداث.

فهُمُ الصورة العملية والفعلية لما ينبغي أن نكون عليه نحن وقت الابتلاءات، فقصص الأنبياء في القرآن ليس لأجل التسلية والقراءة، ولكنها لأجل أن نتمثل بأدوارهم حين نكون في واقع مشابه. فآدم، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، وإسماعيل، ويعقوب، ويوسف، ومريم، ويونس، وأيوب، ونوح، وأصحاب الكهف، ومؤمن آل فرعون.. ومحمد عليه وعليهم جميعا صلوات الله نماذج حية وعملية أراد الله من خلالهم أن يعلمنا كيفية التصرف من خلال ردود أفعالهم في الأحداث والمواقف والمحن.

لقد تجاوزوا مراحل الاختبار وأصبحوا أنموذجاً يختبرنا الله من خلال مواقفهم، فالله يعطينا الجانب النظري من خلال آياته

الكريمة ويتبعها بصور عملية حية حتى نثق أن ما يقوله بإمكاننا تحقيقه.

بعد أن عرفنا من خلال هذه السباعية آلية وكيفية حدوث الابتلاءات لعل سائل يسأل: لماذا ينسب الله الابتلاء إلى نفسه، وأن ما يصيب الإنسان من أحداث لا تخرج عن إرادة الله؟

لثلاثة أسباب جوهرية:

أولاً: لأنه يريدنا أن نلجئ إليه دون تعلق بالحيثيات والأحداث، يريدنا أن نتوجه إليه ليكشف لنا حقيقة ما نمر به من سيناريوهات تعصف بنا في الحياة، يقول: إن توجهنا بقلوبنا نحو مصدر النور فإن هذا النور سيقشع ظلام المنغصات التي نتعرض لها، وسيعرفنا كيف نتحرك في خضم المعوقات والآلام لأنه حينها سيكون معنا يمدنا بالطاقة اللازمة لتخطيها والخروج منها. قد لا يصل الإنسان إلى تفصيل ومعرفة ما أوردناه من تلقاء نفسه، لذلك يدعوه الله ليوثق العلاقة به ويتلقى من أنواره ما يمده بالبصيرة التي يدرك من خلالها هذه الأمور من جانب، ويمده بالعون والقوة والمساعدة على تحمل هذه الابتلاءات من جانب آخر. ومن هنا نعلم سبب عدم لا مبالاة الرجل الحكيم أو المرشد الروحي أو العارف بالله للأحداث التي تجري من حوله، لأن الله يبصره ويعلمه حقيقة وأبعاد هذه الابتلاءات والمنغصات، يجعله ينظر ببصيرته إلى الهدف النهائي منها.

ثانياً: نسب البلاء إلى ذاته المقدسة من أنصح وأجلى صور الرحمة الإلهية، فهو سبحانه يجعل من ذاته مرفأ لكل أخطائنا ومبرراتنا.. الله سبحانه يعاملنا كالأطفال تارة.. حين يقع الطفل في خطأ ما فيقول له الأب أنا من تسبب في هذا الخطأ ليمتص ويسحب الألم النفسي والروحي من الطفل، ولكن حين

ينضج الطفل ويكبر يبدأ يشرح له حقيقة الخطأ الذي يقع فيه، لذلك نجد القرآن يتكلم عن هذا المفهوم الطفولي فيقول "ليبتليكم" و "وليبتلي الله ما في صدوركم" وأنه هو من يجعل على قلب الإنسان غشاوة، أو أنه لا يهدي من يشاء.. وغيرها من آيات عديدة.. ولكن حين يتكلم عن الأرواح الواعية يقول: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ ويقول كذلك: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ ويقول: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ..﴾ نجد هنا كيف ينسب الأحداث الدراماتيكية للإنسان نفسه. فالله أعز وأجل أن يعذب عباده الذين خلقهم ليرحمهم. لذلك يقول أهل الله: "ليخفف ألم البلاء عنك، علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار، هو الذي عودك حسن الاختيار".

ثالثا: لأنه المهيمن الحقيقي والمصمم لهذه السنن الكونية، يريد منا الرجوع إلى الأصل الحقيقي. هل بمقدوره أن يكشف عنا هذه المحن؟.. بالتأكيد بمقدوره ذلك. هل بمقدوره أن يتجاوز فيما لو أراد الإنسان أن يجاري سيناريو الحياة دون أن يستفيد منها في تطوره الروحي؟.. بالتأكيد يستطيع ذلك بل جعل للإنسان حرية الاختيار الكاملة، ولكن حينها سيخرج الإنسان من أعظم تجربة روحية بلا فائدة تعود عليه. لذلك بمجرد أن ينتقل للعالم الآخر يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

حين نعلم أن كل ما يواجهنا هو بعين الله، سواء كان نتيجة جهلنا، أو نتيجة لردود أفعالنا، أو نتيجة لاندفاعنا وتهورنا، أو نتيجة لإدخال أنفسنا فيما لا يعنينا، أو نتيجة لغلبة الأنا والكبرياء في سلوكنا، أو نتيجة لإرادتنا في اختبار شيء ما في

الحياة.. وأن كل ما يحدث لنا يتم تحت إشرافه يجعلنا في حالة اطمئنان أكثر، لأنه أعلم منا بأنفسنا، وارأف بحالنا منا. وهذا الاطمئنان يجعل وعينا أكثر اتقاداً لكي نتدارك الكثير من الأزمات والمواقف والأحداث التي نقع فيها. لذلك يقول: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ يكفينا أن نعلم هذا (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ولكن علمنا هذا ينبغي أن يلهمنا البصيرة والوعي الذي نستطيع من خلاله أن نتجنب كثيراً من المنغصات والأزمات والمحن التي نمر بها في الحياة.

المؤمن والبلاء

ذكرنا سابقاً أن المؤمن غير معفي من جميع الصور التي ذكرناها، بل من الناحية الروحية نقول أن المؤمن أكثر تعرضاً للبلاء، لأن الله يريد أن يصل بالمؤمن الحق إلى درجة النقاء والصفاء وهذا يتطلب أن يستخرج كل السلبيات الكامنة في أعماقه وكل الهفوات التي ارتكبها سنين عمره الماضية، ومن هنا نفهم معنى الحديث الشريف "كلما زيد الإنسان في إيمانه زيد في بلائه" فالبلاء هنا ليس للتشفي والعياذ بالله، إنما لكي يتخلص من بقايا الرواسب العالقة في باطنه والتي تشكل حجاباً بينه وبين الله سبحانه وتعالى..

فنوايانا وأقوالنا وأفعالنا تبقى في السجل الكوني (الكتاب) مدونه لا يمكن شطبها أو مسحها إلا بما يماثلها من النوايا والأقوال والأفعال، فيستبدل السيئ منها بالحسن، ومن هنا نفهم قوله ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ وحتى يتم هذا الاستبدال لا يكفي الاستغفار والتوبة، وإنما ينبغي أن يمر الإنسان بمواقف وأحداث يختبر فيها حقيقة هذا الاستبدال.

وحين يستوعب المؤمن هذه الفكرة تصبح المشاكل والمعوقات أشبه بالنتوءات الصخرية في الجبل والتي تمكن متسلق الجبال من التمسك فيها للصعود لأعلى القمة، وقد تكون هذه النتوءات والمعوقات من أقرب الناس إليه، وهي أشدها إيلاماً، وقد تكون من أصدقائه، أحبائه، أعدائه، زملاء العمل، صعوبات المعيشة، أمراضه.. وغيرها من أمور أخرى.

ولكن بمجرد أن نتوجه إلى الله وتبدأ هذه الآلام والمشاكل والمعوقات في الظهور ثق أن الله سيؤازرك ويكون معك، وسيسخر ملائكته لخدمتك، شريطة أن تدرك مغزى ما تمر به وأنه بعين الله. وأن تثق أن ما من شيء، وما من مشكلة أو ضيق أو محنة أو ألم يمسّك إلا بعد أن يكون قد مر من تحت يد القدرة الإلهية ثم عبر إليك.. فما من شيء يحل بك إلا لغاية وهدف عظيم.. وكما قال في الحكم: "ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك".

فالله لا يريد لنا المعاناة، بل يدعونا إلى الحياة الطيبة الهانئة، وحتى نحظى بهذه الحياة ينبغي أن نتخلص من الرواسب العالقة بنا.

الله يسمح بالألم لأحبائه ومريديه لكي يسهل نموهم وتطورهم الروحي، وأثناء هذا الاختبار يمد يده ليعينهم ويساعدهم في اجتياز هذه المحن والاختبارات حتى تهون عليهم أشد هذه الأحداث ضراوة وقسوة، لإيمانهم أن كل ما يحدث إنما هو بعين الله.

شوق يختلج في الصدور

هناك شوق مبهم غريب فطري يختلج قلب الإنسان منذ الخليقة لا ينفك عنه حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الشوق لشيء ما.. مهما كان الإنسان بدائياً أو مدنياً متحضراً، مروراً بكل العصور المتوالية على البشرية، فإن هذا الشوق يقبع في كيانه لا يستطيع التخلص منه شاء أم أبى. وحين جاء الأنبياء كشفوا لنا سر هذا التوله والشوق، وأرسوا الدعائم التي تقربنا منه وبينوا الطريق الموصلة إليه. وقالوا أن مطلوبكم ومرغوبكم ومرجوكم وحبيبكم الذي تبحثون عنه هو أكسير الجذب وسر التوله، فإليه تأله القلوب والأرواح ومن هنا عُرف باسمه المقدس (هو الله) تبارك اسمه وتعالى جده..

هذا الشوق والتوله للعالم الروحي ولمدبر هذا العالم كامن فينا متمركز بأعماقنا مرتبط بجوهرنا متماهي مع كينونتنا. لذلك حين نتكلم عن الرحلة الروحية، أو السير إلى الله، أو المقصد الأعلى، يتوهم البعض أن هناك مكاناً سنذهب إليه.. أو مقاماً سنعرج إليه.. في الواقع لا يوجد مكان آخر، حقاً لا يوجد مكان آخر، فنحن محاطين منغمسين متشربين في العالم الروحي كسمكة يحيطها الماء من كل جانب، فليس بيننا وبين هذا العالم حاجز أو غلاف سوى غلاف الأنا والفكر والمشاعر السلبية.

فقط قم بإزالة العوائق والسدود التي وضعتها بنفسك وستجد نفسك في عالم النور، فالرحلة تبدأ وتنتهي في ذات المكان، لا

يوجد شيء منفصل عنك في السماء لتصعد إليه، أو أسفل منك لتنزل إليه، كل شيء مترابط كجسد واحد، النعيم والنور معك وحولك ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾، والعذاب كذلك حولك ومحيط بك ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لأننا في مملكة واحدة، في عالم النور الذي حجبنا أنفسنا عنه بأعمالنا وأفكارنا. "ما حجبك عن الله وجود موجود معه، إذ لا شيء معه، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه". عالمه عالم الحب والانجذاب، فكل ما في الكون منجذب له ومنفعل به. لذلك حين نجعل الله هو الحبيب الأقرب إلى قلوبنا وأرواحنا، وهو الكمال الذي لا يمكن مقارنته بشيء في الحياة، وهو الملجأ الذي يحتوينا ويشملنا بعطفه ورحمته وعنايته، فسوف نشعر بقربه منا، ولو سعينا إليه جاهدين فسوف يفتح ذراعي رحمته لنا بكل حنان ورحمة.

ولكن هل ما نتعلمه أو نسمعه أو نقرأه اليوم كفيل بأن يقربنا من الله.. التشويش العقائدي المتناقض، والتركيز على التشريع الحسي المادي، والاهتمام بطرح القضايا الخلافية والتاريخية في المنابر والمحافل، ونبش قبور الماضي، والتعتيم على الأبعاد الروحية وغيرها من أمور أبعدتنا عن جوهر التوجه القلبي نحو الخالق سبحانه وتعالى.

قد نسمع من هنا وهناك عن الله، بأنه الخالق ومالك الملك، وهو علة هذا الوجود في الكتب والمسموعات، ولكن يبقى البرهان الفعلي والعملي والقلبي عن حقيقة وجود الله مكنون لا يمكن الاستدلال عليه بالعقل أو النقل فقط، وإنما بالتجربة الروحية العملية الواقعية والشعورية.

فرجاؤنا في معرفة الخالق جل علاه والقرب منه - الذي يعد من أهم غايات وجودنا - تجعلنا نبحث عن وسائل أبعد من مجرد عملية التفكير العادية البسيطة.

لا يمكننا إدراك جوهره بأفكارنا التي أنهكتها المصالح الآنية الشخصية والحزبية، ولا يمكن التقرب إليه ونفوسنا مشحونة بعواطف الغضب والحقد والكراهية.. كيف لنا أن نعرف حقيقة الحب بهذه القلوب الواهنة الجامدة التي جعلت الخلافات التاريخية والفكرية أساساً لعقيدتها ومنهجاً لأفكارها ومبدأ لسلوكياتها..

فكر تتقاذفه أمواج التاريخ الحاقدة، يهتم بتشريع الجسد المادي فقط.. حتماً لن يبلغ حالة الوعي السامية.

إذا أردنا أن نقترب من الله ينبغي علينا أن نتخلص من الأوهام، ونطهر قلوبنا من أحداث الماضي، ونوجه بوصلة اهتمامنا لنفوسنا وأرواحنا. نتعلم ما المهم في حياتنا وكيف نسحب عقولنا من هيجان التفكير المضطرب، وأن نركز أذهاننا في معرفة الله.

وليكن إناؤك فارغاً، فالإناء المملوء بالكامل حتى نهايته سيفيض حين نسكب عليه أية زيادة أخرى ولو كانت قليلة، فلا مكان للقطرات الجديدة التي تود مزاحمة غيرها في هذا الإناء المحدد، فالإناء المملوء لا يحتمل المزيد، ولن يستقبل الجديد، وكذلك قلب الإنسان إن كان مملوءاً على الآخر، فشأنه شأن الإناء، لن يستقبل المزيد..

بأمر من رب العالمين، تقوم الملائكة والأرواح العليا على الدوام بمساعدة الإنسان للتقليل من أعباء ما يحمله القلب، فيعملون على غسله وتصفيته وصقله بالقدر الذي تتحرك فيه عواطفه نحو عالم النور. فالله يريد قلوبنا خالية على الدوام، نقية بيضاء لكي تجد قطرات الرحمة والبركة الإلهية مكاناً لها في هذا المكان، فأي عمل نقوم به يمحو الله في مقابله جزءاً من تلك الشوائب العائمة في القلب.

الأم المحبة لأطفالها تراقب كل حركاتهم، وبمجرد أن ترى منهم عملا مميزاً أو طيباً ولو كان بسيطاً فإنها تسارع على الفور بإثابتهم عليه بهدية أو جائزة.. تكافؤهم على ما فعلوه.. يشاغب أولادها في الخارج ويرجعون بثياب متسخة ملوثة، فتقوم بنزعها عنهم وغسلها وتنظيفها لتهيئها لليوم التالي..

الله عز وجل يعاملنا بهذه الطريقة ولكن بحب أعمق بكثير من حب الأم لأبنائها، بمجرد أن نقوم بأي عمل، وحتى بدون عمل، مجرد نية، يسارع لمحو جزء من الرواسب وبقع الظلام التي تراكمت في القلب، في كل صلاة يقوم بتنظيف جزء من الملوثات.

الله أشد حباً من حب الأم لأطفالها وأرأف بعباده فهو يريد أن يطهرهم وينقيهم من الكآبة والحزن والألم ومن أدران الحياة وتعلقاتها ليصحوا من جديد وهم بكامل نظافتهم. لان بقاء وتراكم هذه النكات والرواسب شيئاً فشيئاً يعمل إما على ختم القلب ﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أو تغليفه ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.. أو مرضه ﴿في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أو قساوته ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ وغيرها من أمراض يستعرضها القرآن كلاً على حدة..

الله عز وجل يساعدنا في تصفية قلوبنا لأجل أن تكون محطا للخير الذي سيغدق به علينا لاحقاً، فقلب حزين مكتئب مشوش لاهي حاقد لا ولن يكون مؤهلا لهذا الخير.

ولكن لماذا تبقى قلوبنا يشوبها الكدر تفتقد للنقاء والصفاء؟

السبب أننا نملئ قلوبنا بالشواغل الصغيرة التافهة واللغو العقيم والصفات السلبية بشكل يتجاوز ويفوق عملية التصفية والتنقية. أي أن ما نقوم به من عبادات تعمل على تصفية قلوبنا لا يوازي تلك السلبيات التي نحشوا بها قلوبنا كل يوم من

جديد، وبالتالي مهما كانت عملية التصفية تبقى غير قادرة على محو سلبيات القلب بالكامل..

الملائكة تقوم بالتصفية ونحن نقوم بالتعبئة من جديد..

البعض لا يرتاح ولا يقر له قرار إلا حين يملئ قلبه بشتى صنوف السلبيات، ولا نقصد هنا المعاصي والمحرمات فقط، ولكن كل ما من شأنه أن يملئ القلب، هي ليست بمحرمات ولكنها أغلال وقيود تقطع أواصر القلب عن التواصل مع النعم الإلهية..

البعض يعيش بآلام وأحزن الماضي، يعيد تلك السيناريوهات التي تسببت في تعاسته وآلامه، يجمع كل هموم العالم ويجذرها في نفسه. البعض يقضي ساعات من وقته في القيل والقال الذي لا طائل له ولا معنى، فيجعل قلبه مستودعاً للمشاكل البسيطة التي يحولها إلى مصائب كبيرة، ويتفاعل مع كل ما يؤلم النفس ويعمق مأساته وكأن لا شغل له في الحياة سوى الأنين والتوجع، يقوم بالاتصال هنا وهناك لسماع وترقب مثل هذه الأخبار.

البعض استولى الحقد والكره على قلبه، يشخص الناس ويحكم عليهم، يبحث عن النقطة السوداء في اللوحة البيضاء الواسعة.

هناك أناس تئن قلوبهم من أحداث لم تقع بعد.. تخيل.. قلوب مليئة بأحداث ووقائع لم تحدث بعد، يرسم في مخيلته مختلف أنواع السيناريوهات السلبية التي تحمل مكروها أو فجيعة وما سيقع قبل أوانه، سيارته ستتعطل، ابنه سيقع، بيته سيتصدع، أسرته ستتفكك، عمله سيتوقف، برنامجه سيتغير، نفسه ستتدهور، جسمه سيمرض، أمواله ستنتهي، جماله سيبلى، رحلته ستفشل، تجارته ستبور، أعماله لا تقبل، حياته لا قيمة لها.

إن هذه البضاعة المحرمة على قلب المؤمن تجلب أخطر الأمراض النفسية، لأنها تعمق في النفس الجانب المظلم من الحياة، وتعكس حقيقة سوء الظن بالله سبحانه وتعالى.

لقد أصبحنا خبراء في صناعة الحشو التي نعبئ بها قلوبنا، سواء من الأحقاد أو آلام الماضي أو توقع المعاناة أو بصغائر الأمور.

إن كانت هذه الأمور تملأ قلوبنا فهل ستبقى فيها مساحة فارغة تكون محطاً لهبات وإلهامات وومضات رب العالمين.

لا تشتك.. ولا تتذمر.. ولا تدعي أن الله بعيد عنك لا يسمع نداك، فرغ قلبك وستعجب من النتيجة، ليكن إناءك فارغاً، فحين يهدأ الفكر من حالة الاضطراب تحل على النفس السكينة والطمأنينة واليقين والصفاء فتكون وعاءً له من الاتساع والقدرة ليكون محطاً للعلم الإلهي اللدني والرحمة الربانية ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ فتنقدح بصيرته وتتيقظ ملكاته الروحية، ويدرك إدراكاً مباشراً عن غير طريق الحواس حالة المحبة والقرب الإلهي المبارك.

أرح نفسك.. سنة كونية

قد نلتقي بشخص بعد فترة فراق وانقطاع، فنجد تغيرات قد ارتسمت على وجهه من تجاعيد ملامحه وابيضاض شعره وتعكير بشرته، على الرغم أنه لم يصل إلى عمر الشيخوخة بعد. وكأن الأيام التي فصلته أضحت سنين طويلة، وحين تسأله عن السبب لا تعدو إجابته كثرة المشاكل والتفكير والهموم والاحباطات وما أشبه.

يؤكد العلماء أن الهموم والمخاوف والخشية من الفشل من أهم أسباب الشيخوخة المبكرة. إضافة إلى سلسلة العواطف الضارة التي تسبب الأمراض وعدم الاتزان والإسراف في الشهوات بمختلف أنواعها التي تفسد الجسم وتؤدي به إلى الهلاك.

والإفراط بالملذات لا ينحصر بالشهوات الغريزية الطبيعية فحسب، فهناك شهوة الولع بالمال، النهم، تعاطي المسكرات والمخدرات، الأفكار السلبية، إدمان التكنولوجيا غير الآمنة.. أي كل شيء يمتع الروح الحيوانية القابعة في كياننا، وكل ما يمنع الروح الإنسانية من النمو والتسامي.

فإذا كانت الشهوات والغرائز ركائز الكائن الحي للحفاظ على استمراريته وبقائه في الحياة فإن سوء استخدام هذه الركائز من شأنها الإخلال بديناميكية نظام حياته وتعجيل نهايتها.

كثير منا قرأ أو درس تأثير التلوث الجوي والطعام غير الصحي وعدم النوم المنتظم وغيرها من مؤثرات تضر بصحة الإنسان، ولكن قليل فقط يعلم ما يسببه الخلل المعنوي أو

النفسي أو الفكري أو التصوري على صحته وعلاقته بالشيخوخة المبكرة. قليل منا يعي تأثير الأفكار المشوشة أو السلبية.. أفكار التمني ومقارنة أنفسنا بالآخرين.. أفكار الحقد والحسد وإصدار التعميمات والأحكام على أجسامنا.

فلا يكفي أن نهتم بالعادات غير الصحية التي نقوم بها، بل ينبغي أن نهتم كذلك بأفكارنا وتصوراتنا ورؤيتنا للعالم والوجود والناس من حولنا.. فكما أن بذل الجهد في العمل المتواصل يؤدي إلى شيخوخة مبكرة كذلك الأفكار السلبية التي تنطلق منا إلى العالم تؤدي نفس الغرض.

وإذا كان تعاطي الحلويات والسكريات يؤدي إلى عجز البنكرياس عن تكسير وتفكيك مكونات السكر الزائدة في الدم فنصاب بمرض السكري، فكذلك تعاطي أفكار الخوف والأنانية والعداوة والكرة والحقد المخلقة داخلياً تجعل نفوسنا عاجزة عن تحقيق الكثير من أمانيها وتطلعاتها الروحية.

اقتنعت سيدة - بعد جهد كبير - بأن ما تعانيه من آلام مبرحة في ركبها ومفاصل وركها سببه كثرة التذمر والتعنت في إصدار الأحكام جزافاً على الناس وصلابة في رأيها تجاه الآخرين. وحين تخلصت من هذه المشاعر وأصبحت أكثر ليونة ومحبة تجاه الآخرين زالت وتلاشت معظم تلك الآلام، وتوقفت عن أخذ المسكنات. ولكن ما لبث أن رجع الألم بعد عدة أيام قليلة. وحين سألها الأخصائي النفسي فيما إذا كان ثمة أمر حدث أخل بالمنظومة الفكرية الجديدة، قالت: لقد وفقت في الأيام الماضية أن أتخلص من المشاعر السلبية وإصدار الأحكام، ولكن بالأمس رأيت جارتنا وهي تلقي بالنفايات في سلة مهملاتنا الخاصة بنا، فشعرت بدمائي وهي تغلي في جسدي، ومنذ تلك اللحظة بدأت أشعر بالألم!

لا تعتقد أن المشاعر السلبية تمر علينا كسحابة صيف، بل هي تمر علينا كإعصار يترك آثاراً ضارة سواء في أعضائنا الداخلية ووظائف عملها أو على معادلة حمضية الجسم. فكثير من الأفكار تقلب طبيعة الجسم المتوازنة فتجعله حمضياً، وهو ما يؤدي إلى خلل في كثير من الأعضاء الداخلية، وكلما زادت حمضية الجسم كلما أصبح جهاز المناعة هشا من السهل أن تغزوه الجراثيم والميكروبات.

فلو أدركنا أن أقل فكرة من أفكار النقد أو الغيرة أو الخوف أو العداوة، بعد أن تتم دورتها في أمواج الأثير غير المنظورة. ترجع إلينا ثانية على صورة مرض أو ألم أو شيخوخة، لو أدركنا ذلك واقتنعنا به اقتناعاً صادقاً، فسنبادر حتماً إلى استبدال تلك الأفكار بأفكار المحبة والسلام والسكينة.

أرخ الحبل قليلاً

ولمعالجة كثير من أفكار الضغط والإجهاد والإرهاق والتوتر التي نتعرض لها في حياتنا، علينا أن نرخي الحبل قليلاً.. أن نريح أجسامنا التي عملت سنين طويلة تحت مختلف أنواع الضغوط، فالقوس إذا بقي مشدوداً لفترة طويلة من الزمن ينكسر، والأرض التي تُزرع باستمرار بلا توقف ستصاب بالجفاف والعقم، والآلة التي تعمل بلا توقف حتما ستكون عرضة للخراب والعطل والعطب.

قانون التعاقب والتوالي هو القانون الأرفع الذي يولد ديناميكية الحركة والإنجاز والتقدم في الحياة، فلكي ينطلق السهم بعيداً لابد من شده بقوة وبعد الشد يأتي الارتخاء.. ولكي تعمل الآلة بكفاءة لابد من صيانتها ومعرفة مواطن الخلل فيها.

منذ سنوات كان يحزنني كثيراً رؤية الأراضي الزراعية التي يتم حرقها.. آلاف الهكتارات من الأراضي تتحول إلى أراضي

جرداء قاحلة، لكني علمت بعدها أن حرق الأراضي يتم لأجل إحيائها من جديد، فكل عشر سنوات تتم ولادة أرض جديدة لإنتاج محاصيل أكثر تنوعاً وأوفر كمية.

يجري قانون التعاقب في عالم الإنسان كما يجري في عالم الطبيعة، فسنن الله تجري في الخلق دون استثناء. ولكن إهمالنا لهذه السنة الكونية أورثنا العديد من الويلات والأمراض والتي تعرف بأمراض العصر أو أمراض التقدم أو أمراض التكنولوجيا والحركة.

وبالتالي تحولت حياتنا إلى شبه آلة تعمل باستمرار بلا توقف، سواء بالعمل وما تطرحه علوم التخطيط والبرمجة والإدارة التي تدعو إلى استغلال الوقت والتخطيط لكل دقيقة لتكون ناجحاً دون أن تتضمن هذه الخطط وضع معايير نفسية وروحية للإنسان، أو من حيث التفكير، فالجميع أصبح ملتزما التزاما مفروضاً بوسائل الاتصال وبرامج التواصل مما يبقيه في حالة من الانشغال الدائم حتى وهو على فراش نومه.

هذا الانشغال الدائم عمليا وفكرياً أدى إلى أن يستهلك العالم أكثر من 70 طن من المهدئات المنومة يومياً. ولو راجعنا الإحصائيات المرعبة لحالات القلق والاكتئاب والأرق وضغط الدم والعصبية والأمراض النفسية الأخرى لعرفنا حجم المأساة التي يسببها الانشغال الدائم بأمور الحياة، ولعرفنا كيف أن الاستمرار في شد القوس سيؤدي إلى كسره حتماً ولو بعد حين. يدعونا الله سبحانه في كتابه للنظر في سنن الحياة لنتعلم كيف نعيش..

الحيوانات لا تعاني من أرق النوم، ولا تصاب بضغط الدم، ولا ينتابها الاكتئاب والسبب ببساطة لأنها تسير وفق سنن الطبيعة والخلق.

وما الأمراض التي أصيبت بها مؤخراً إلا نتيجة لعبث الإنسان بها.. الكائن الوحيد الذي يصاب بالأرق ويستخدم المهدئات ويبحث عن المخدرات هو الإنسان. فالإنسان أصبح يهتم بمركزه الاجتماعي وتفوقه ونجاحه أكثر من الاهتمام بنفسه، وهذا يتطلب منه حركة مستمرة وإنجاز متواصل وصراع مع الآخرين ليتفوق عليهم وينال ما يريد..

الله لا يريد أن تكون حياتنا كالآلة التي تعمل بلا توقف.. يريدنا أن نرتاح.. نتزود.. نسترخي.. نتأمل.. ثم ننطلق مرة أخرى.

إن فترات الراحة لا تعني العبث واللهو كما يتصورها البعض، فلحظة التوقف في إيقاع النغم هو ما يعطي السيمفونية جمالها وإيقاعها الممتع.. تخيل مقطوعة بلا توقف، ستكون أشبه بضوضاء مزعج يشتت الذهن.. وحياة الإنسان بلا توقف إزعاج وتثاقل إلى الأرض يبعده عن حقيقة نفسه.

الإجازات والعطل الرسمية فرص سانحة للتمتع بالطبيعة أو الاهتمام بهوايات مختلفة أو التريض وتعلم فنون الاسترخاء والتأمل.. الاسترخاء لراحة أجسادنا، والتأمل لراحة أنفسنا وأرواحنا.. فلا فائدة من ثروات الأرض إن كانت أجسادنا متعبة، ولا طائل من الحياة إن كنا لا نعرف حقيقة أنفسنا.. لنتعلم كيف نهتم بأنفسنا، ونغوص بأعماقها، ونحرث الأرض بعد سنين عجاف لتكون مؤهلة لولادة جديدة مفعمة بالحياة..

لذلك عادة ما نؤكد على ضرورة أن نعيش السنة 365 يوم فقط، قد يكون هذا الكلام غريباً بعض الشيء فالسنة الميلادية تحتوي على 365 يوماً فما الجديد بالموضوع..؟ وهل يمكن أن يعيش الإنسان أكثر من 365 يوماً خلال سنة واحدة..؟

الجواب نعم.. فالبعض يعيش 1000 يوم خلال سنة واحدة، إن لم يكن أكثر من هذا بكثير، وهذا ما يسبب استهلاك القدرات والطاقات النفسية والجسدية بشكل مضاعف عن الوضع الطبيعي، فيتسبب في كثرة الأمراض النفسية والروحية والبدنية، وهذا ما نفعله في حياتنا حين نستهلك ونسخر قوانا وإمكاناتنا فوق معدلها الطبيعي. فالغضب والتوتر والخوف والقلق والكآبة والعصبية وغيرها، حالات نمر بها خلال دقائق أو ساعات ولكنها تستنزف قوانا وطاقتنا بشكل لافت للنظر..

وهذا ما يفسر شحوب الوجه وإنهاك الجسد والشعور بالوهن والتعب حين نفكر ونجتر أحداث الماضي المؤلمة، أو حين نغضب لموقف ما، أو حين تسير الأمور بغير الطريقة التي ترضينا..

تبقى عدد أيام السنة محدودة لا تزيد ولا تنقص.. إلا أن الحالة النفسية التي نعيشها خلال السنة هي التي تتغير وعلى الخصوص حين نعيش الماضي. فحين نعيش أحداث الماضي بمآسيه وسلبياته فإن الوقت الذي تستغرقه هذه اللحظات تدخل ضمن دائرة الزمن الذي نعيشه بشكل مضاعف لما لسلبياتها من تأثير على النفس والروح..

فحين تسترجع موقف أو حدث من الماضي أو تعيد سيناريو حوار دار بينك وبين شخص ما فإن جسدك سوف يستهلك طاقة توازي وتماثل تلك الطاقة التي استنزفتها أثناء حدوث الواقعة الحقيقية..

فعندما تفكر في خلاف دار بينك وبين شخص ما، وتتذكر ردود أفعالك آنذاك، وتسترجع الحالة التي كنت عليها، فستلاحظ أن سرعة نبضات قلبك ترتفع، وأنفاسك تتسارع.. يجف لسانك وتنكمش عضلات وجهك.. وكل هذه الانفعالات والتغيرات التي طرأت عليك تستهلك نفس الطاقة التي استهلكتها أثناء الحدث الحقيقي.

فالعملية إذن لا تتوقف على الأفكار فقط.. وإنما تستهلك جزءا كبيراً من طاقتنا التي من الممكن أن نستفيد منها في الحاضر..

إذا عرفنا هذه الحقيقة.. وعرفنا أن رجوعنا إلى أحداث الماضي ومآسيه يستهلك أعمارنا وطاقتنا فلنسأل أنفسنا كم هي السنين التي ضيعناها من أعمارنا في إعادة سيناريوهات لم تعد علينا إلا بالحسرة والألم.. وعشنا أحداثا لم نجن منها إلا الكمد والحزن، ونسترجع أموراً تسببت لنا بالذنب أو النقمة والندم والأسف.. إننا بذلك ننمي إحساساً خاطئاً بأنفسنا ونسرع شيخوختنا من خلال قيامنا بتراكم الماضي في أنفسنا وأرواحنا.

لنعش السنة بأيامها 365 فقط.. ولا نعش ما كان قبلها إلا ما كان مرتبطاً ومتصلاً بها بشكل مباشر من تجارب وخبرات مفيدة تدفعنا للأمام وتنمي فينا روح البحث والإيمان والخير والعطاء والسلام.

دعوا الماضي يمر كغمام في السماء، أو كسحاب تقشعه أشعة الشمس، ولنعش الحاضر.. نستمتع بكل هبات وعطايا الله لنا، نراقب أفكارنا كي لا تهرب بعيداً عنا.. نصمت، نتأمل، نتفكر، نفهم معنى الحياة، نغوص بأعماق أنفسنا، نزيل الحجب والأستار عن علاقتنا مع الله عز وجل التي لا يمكن أن تتضح معالمها إلا من خلال اللحظة التي نعيشها..

فالعصا السحرية تكمن في أعماقك.. فأنت وحدك تستطيع أن تخلع جلباب الأنانية وتحسن من طبيعة أفكارك وتنعش حياتك بالأمل والسعادة والتفاؤل والخير والعطاء ومحبة الآخرين.

أعظم سر في الحياة..

يقال إن السر حين يُكشف اللثام عنه لا يبقى سراً، لأنه يخرج عن نطاق الكمون والخفاء إلى حيث العلن والإشهار. إلا أن هذا السر على الرغم من شدة ظهوره وتجلي آثاره وقوة انكشافه لا يزال مجهولاً في قاموس البشرية على مختلف مشاربهم ومعتقداتهم.

من المهم جداً أن نفهم هذا السر لأنه يمثل الحل في نجاة البشرية والبذرة الأساسية في بناء شجرة العالم الجديد، والبديل الأمثل لكل مآسينا وآلامنا. نتطرق لهذا السر لكثرة رسائل الألم والمعاناة التي نتلقاها بين الفينة والأخرى، فمن فقد عزيز، إلى فقر وإملاق ومعاناة نفسية وأخرى فشل في الحياة ومحاولة انتحار، إلى أمراض فتاكة تنهش الجسد وأفكار سلبية قاتلة تسلب بهجة الحياة ومتعتها.

لقد صاغ الله هذا السر في مفردات عديدة حوتها كتب الأديان وإرشادات الأنبياء والرسل. يختصرها حديث قدسي شريف حين يقول ربنا: "يا ابن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي". كلمات بسيطة تعبر عن أعظم سر في الحياة. وهو تسخير الوجود (كل الوجود) لمن يهب نفسه لله وحده فيطلعه على حقيقة قدرة التمكين وكيفية تجليها في الوجود والتماس البصيرة التي تترشح له من فيض نور العلم اللدني ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾.

سر بسيط في معناه جهله العالم لشدة بساطته ووضوحه، كما الله يراه العالم غيبا لشدة ظهوره. يدعونا إليه فيقول: "تعال إليَّ وسأجعلك سعيداً، اقترب مني وسأكفيك ما أهمك من أمر دنياك، أدنُ مني أسخر لك ما في الأرض جميعاً، تحبب إليّ أجعل وعيك ملائكياً وروحك في أعلى عليين، خاطبني.. صادقني.. كلمني.. لا تشكِ إليَ آلامك وتبث إليَّ أحزانك فقط، بل تقرب إليّ بالحب.. بالشوق.. بالوله.. اجعلني أحب إليك من كل شيء ولا تشرك في حبي شيئاً.. فإنك إن أحببت شيئاً جعلته إلهاً، وأنا لا أريدك أن تجعل معي شريكاً".

نتوهم ونخدع أنفسنا حين نقول إننا نحب الله.. أو إننا مع الله.. فنحن نقضي أوقات نلهو بها أكثر مما نقضيه بالتفكر بالله. نقضي أوقاتا في العمل ومع الأصدقاء أكثر مما نقضيه مع الله. المرأة تقضي وقتاً في إعداد وتجهيز الطعام أكثر مما تقضيه مع الله.. نفكر بأولادنا ومقتنياتنا وننشغل بشراء مستلزمات البيت أو حتى بمشاهدة التلفزيون أكثر من تفكرنا وخلوتنا مع الله.. وقس على ذلك الكثير. حتى وصل بنا الأمر أننا حين نحصل على وقت فراغ فإننا نبحث عن أي عمل لتمضية هذا الوقت سواء باللعب أو مشاهدة التلفاز أو التنزه، ولا نفكر أن نجعل هذا الوقت لله، في حين أن الله يقول: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾، وهنا يكشف الله في سورة الانشراح هذا السر الذي تنشرح به الصدور أشار إليه في الرغبة العميقة بالرجوع إليه والنصب بين يديه.

اتصلت بصديق لي أطلب منه تجهيز قاعة لإلقاء محاضرة.. فبادرني بالسؤال: "ما هو موضوع المحاضرة التي ستلقيها" فقلت له: عن الله.. فقال: "هذا موضوع مستهلك وليس بجديد فالكل يتكلم عن الله، وكل أعمالنا تنصب في خدمة الله والعمل لله"، قلت له: "عزيزي.. بل لقد تكلمنا وتحدثنا عن كل شيء..

إلا عن الله، ولو كنا قد تكلمنا عن الله حقاً لما آل حالنا هذا إلى التيه وأوضاعنا إلى هذا الشتات وعقائدنا إلى الضياع، فنحن نذكر الله كاسم يؤيد أفكارنا التي نروج لها، نذكره كقوانين وسنن تربطنا بتوجيهات لابد من التقيد بها وكمناهج لابد من الالتزام بها، ولكننا لم نتكلم عنه كنور ترتقي أرواحنا من خلاله وكمحبوب نشبع حنين قلوبنا بنفحاته، وكفيض علم نروي أفئدتنا من ومضاته.. وكواهب تنهمر علينا سيول بركاته وإلهاماته.

نتكلم عن الله كخالق بعيد عنا وكغاية لا تدرك، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، نتكلم عنه كجبار ومنتقم وهو القائل إن رحمتي سبقت غضبي.. نبحث عنه في السماء وفي الآفاق لنستدل عليه وهو يهمس في وجداننا وقلوبنا مع إيقاع كل نبضة تجري في عروقنا.

كثيراً ما نتكلم عن دين الله، عن التشريع، عن المقاصد، عن السنن، عن الآفاق، عن العقائد عن.. الخ ولكن قلما نتكلم عن الله..

وإن تكلمنا عن الله فإن كلامنا ينحصر في ذكر التكاليف والتشريعات وما يريده منا وما واجبنا تجاهه وكيف نتخلص من عذابه.. وأخيراً كيف ندخل جنته ونتنعم بملذاتها وحورها وولدانها وأكلها وفاكهتها.

إن نعيم الجنة لا يقاس بملذاتها وأنهارها وبسندسها واستبرقها وحورها وإنما يقاس بدرجة اقترابك من النور الإلهي، وتوهج روحك بحبه، وتصديق قلبك بمقامه.

ملايين المسلمين آمنوا بالله واعترفوا له بالوحدانية وعبدوه وصلوا لأجله، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ ماذا حققوا في حياتهم؟ ماذا جنوا من هذا الإيمان غير مآسي الشقاق والفرقة والاقتتال

وتسعير نيران الأنا على الآخرين، واتهام بعضهم لبعض بالكفر والعصبية، ونبش مخلفات التأريخ، وتحويل العقائد إلى عُقد فارغة الجوهر والمضمون.

كل هذا لابتعادنا عن معرفة الله معرفة حقيقية روحية.. فما عرفناه حق معرفته.. فمن يعرف الله يدخل عالم الحب اللامتناهي، عالم الرحمة الواسعة.. عالم النور.. فيري كل ما في الكون جميلا يشع بهجة ويتألق في سيمفونية ترتل ألحان الخلود، فلا يأبه حينها بالمسميات البشرية، والنوازع الجاهلية أو الحزبية لأنه يرى حقائق الأشياء، يرى السماء غير السماء، والأشياء من حوله غير الأشياء قد تسربلت عليها أنوار خالقها.. يرى العلم نقطة كثرها الجاهلون فاختلفوا واقتتلوا وكان حليفهم الشيطان الذي أمدهم بخيلاء الأنا الطائفية، وغشي أبصار قلوبهم عن الفطرة النقية، وأرجع نوازعهم إلى ما دون مستوى الجاهلية، وأبعدهم عن الله رب البرية.. يعرف لماذا بقي القرآن مهجورا والإسلام غريباً والحق مهضوماً.. يرى واقع التيه والضياع الذي نعيش فيه، ويعرف أي مستنقع جهل نقبع فيه، وأي سكين جاء بها الشيطان للإنسان لينحر أخيه، وأي فتنة تعصف بأمتنا وشبابنا الذين ننشئهم على خرق دين الله حين نغرس فيهم قيم الحقد والكراهية ونأجج فيهم نار البغض والعصبية.

لقد استهلكنا الحديث عن الله من خلال مساجلاتنا وأحاديثنا وغوغائيتنا وتنصيب أنفسنا متكلمين وموقعين عن الله.. ولكن أما آن الأوان أن تخشع قلوبنا لذكر الله وأن نقتبس من الوادي المقدس شعلة الطهارة والحب، وأن نتلذذ بشعور القرب والوصال ونقول في شوق ووجل: "ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك".

إن العارف بالله يكون همه وتفكيره متجهاً إلى الله على الدوام كالبوصلة التي تتجه نحو الشمال.. فراقب بوصلة قلبك في أي اتجاه هي.. وهل يقنع قلبك بغير اتجاه الحب الذي يشير إلى.. الله.

لا أتكلم عن هذا السر لأني درسته وقرأته أو وجدته في بصائر الأديان.. كلا.. أتكلم عنه لأني عايشت أناساً وصلوا إلى مرحلة يقول الواحد منهم "أنا أسعد أهل الأرض" يقولها عن يقين واطمئنان وسلام يشع من قلبه لأنه استشعر حقيقة هذا السر العظيم حين يكون بمعية الله على الدوام.. ومن كان في معية الله فلا ألم ولا شقاء ولا بؤس ولا معاناة ولا ضغوط ولا اكتئاب.

قد يتساءل البعض عن أسباب جهل السواد الأعظم من الناس لهذا السر وعدم وعيهم لهذه الحقيقة وتفعيلها في حياتهم على الرغم من وضوحها وتجليها في نصوص التشريع لأغلب الديانات السماوية.

إن المشكلة الحقيقية تكمن في فهم الدين، والطريق الموصل إلى الله لتحقيق السر الأعظم للحياة، ومن هنا احتد الصراع ونشأت المذاهب وتفرقت الأمم شيعاً وأحزاباً وجماعات..

لم نترك الله ليعلمنا الدين الحق، لم نتركه ليغدق علينا من فضله ويعرفنا أصول العروج إليه وسبيل الوصول إليه.. لقد تسابقنا عن جهل وانكببنا لتلقي آراء وتصورات الأشخاص عن الدين، والذين لم يخض كثير منهم أية تجربة روحية حقيقية في حياته مع الله، فضيعونا، وتهنا معهم في مفردات التعبير وتعقيد المصطلحات وصعوبة الشروحات وإضاعة المقاصد وتأكيد الطقوس العملية على جوهر العبادة.

الله لم يشرع دينا ليعقد سلوكنا أو يوجد منهجاً تتيه فيه العقول، أو يسن قوانيناً تحتار فيها الألباب. الدين ليس كما يظن البعض أنه أداة تعقيد يفرض علينا سلوكاً قهرياً ويسير بحياتنا نحو الحزن والكآبة والجمود.

مئات كتب العقيدة والتشريع ليس لها علاقة بدين الله إنما هي كتب اجتهادات أشخاص ولا تعكس رؤية الله أو تبين منهاجه أو تدل على سبيله.

ما يقارب من مليار مسلم يشهدون كل يوم ويقولون (أشهد ألا إله إلا الله) ولكنهم لا يعرفون حقيقة هذه الشهادة، مجرد كلمات تلفظ لإتمام أركان الصلاة ومتطلباتها.. لأنك حين تشهد على شيء لابد أن تكون حاضراً فيه مطلعاً عليه ومتواصلاً معه، وإلا ستكون شهادتك شهادة كذب وزور. فهل شهدنا الإله الحق كي تكون شهادتنا شهادة صدق؟ هل نعلم لما كانت كلمة (أشهد ألا إله إلا الله) توجب الجنة؟

شهادتك لله بالوحدانية يعني إقامتك في مملكته ودخولك في تجربة روحية عميقة تتواصل من خلالها بفيض اللطف المطلق مع الله سبحانه وتعالى.. فما بال كتب عقائدنا لا تتكلم عن علاقة هذا الفيض لبني البشر كي ندرك حقيقة الدين ونعرف طريق الوصول إلى الله. ما بال كتب عقائدنا تركز على اجتهاد وأقوال البشر وتتجاهل كلام خالق البشر.

من يشهد عالم التوحيد ويشعر بالمعية الفعلية والعملية يتجرد عن كل التعلقات الوهمية والشكلية والطائفية، يرى الحق في كل شيء فيترفع عن الأنانية والأنا، وتنسلخ منه موبقات الهوى ونوازع التكفير وشطحات اللعن والسباب والنزول إلى شرك الصراع والحكم على الناس.

من يشهد عالم التوحيد لا يأبه بكل ذلك لأنه يراه من كيد الشيطان وحبائل مكره، وكيف يهتم لذلك وهو يرى الحق في كل شيء.

يبين الله في كتابه حقيقة الوعي بالدين حين يقول: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ حين يصل الإنسان إلى مرحلة الإيمان (الشعور) والتقوى (خلو القلب من التعلقات) يهبه الله قدرة الوعي والتمييز ومعرفة الحقائق بميزان العدل والحكمة. بمجرد أن يكون وعاءً طاهراً نقياً يتحول إلى قوة جذب قوية لكل خير وفيض ولطف مبارك ينزل من السماء..

الدين أشبه بنسمة صباح منعشة، قد تحرك أوراق الشجر، ولكنها كذلك قد تسيرّ السفن وتجعلها تمخر عباب البحار. إلا أن السفن لا تسير دون أشرعة تتدلى من صواريها، وكذلك هي نفوس البشر لا تتقدم دون شرعة ومنهاج. فتفكر فيما أنت عليه هل منهاجك (أشرعتك) يوصلك إلى تجربة روحية مع الله أم تتلاعب بك الأمواج لتجد نفسك في مهب الرياح.

اعقد العزم منذ اللحظة أن تكتشف آلية وحقيقة هذا السر، جرب أن تغير حياتك ولو لمرة واحدة.. ابتعد عن متاهات الكتب العقيمة وشعارات التعصب الدنيئة، وسجالات التاريخ المشوهة، وتوجيهات القوى المتسلطة.. ابتعد عمن نصبوا أنفسهم وسائط بينك وبين الله وأمروك بما تهوى أنفسهم لا بما يريده الله، وشيدوا طقوساً ما أنزل الله بها من سلطان.

استقطع من وقتك لتتفكر في الله وآلائه وآياته، قل له لقد جئتك ملبياً نداك. فافتح لي باب المواصلة بمقامك المنير، لتنير حياتي ببهجة وجودك..

لقد منحنا الله قوة لا تقهر نستطيع من خلالها التخلص من كل الأحزان والآلام.. ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

قوة تقلب موازين حياتنا وتحول معاناتنا إلى سعادة وبهجة ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ ولكي نحظى بهذه القوة فإن هذا يتطلب منا أن نكون على توافق دائم مع الله، وستقول يوماً ما لقد عرفت السر العظيم وها أنا ذا: "أسعد إنسان في العالم".

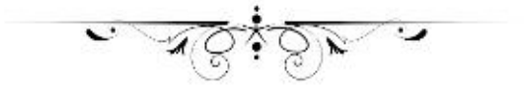

اقرأ.. ثم اقرأ

لمئات سنين مضت يتكالب الناس في موسم الحج وغيره من الأيام على شراء عجوة المدينة لما لها من فوائد صحية جاء ذكرها في الطب النبوي إلى أن اتضح أن ما يُباع في الأسواق ليست هي عجوة المدينة، إنما هو نوع من أنواع التمور يسمى "الوزنة" لأنه يباع بالوزن "بالجملة" وهو تمر رديء أسود اللون لا يصلح للاستخدام الآدمي، فعجوة المدينة لا تنبت إلا في عالية المدينة أو في العوالي وهي نادرة ولونها عسلي فاتح ليست سوداء.

ولكن لماذا انطلت هذه الخدعة التجارية على ملايين الناس.. لأنهم يسمعون ولا يتحرون، هم لا يقرؤون..

منذ ما يقارب من 100 عام نعيش أكبر كذبة في علم النفس أطلقها طبيب أعصاب نمساوي من أصل يهودي اشتهر بنظرية العقل الباطن أو العقل اللاواعي وهو سيغموند فرويد الذي قال بأن الرغبة الجنسية هي الطاقة الأهم للحياة البشرية وهي وراء أغلب الدوافع البشرية التي تحدد سلوك الإنسان في الحياة.. تهافت العلماء، وانجر عامة الناس خلف هذا المصطلح، المثقفين منهم والعلماء وحتى عامة الناس، فترى الكثير من الدورات والندوات والامسيات التي تلهج بذكر العقل الباطن والعقل اللاواعي.. في حين أن كل ما ينسب للعقل الباطن إنما هي قدرات وإمكانات وملكات وترسبات استوطنت في النفس الإنسانية تظهر آثارها وتتجلى في الخارج حين يتاح لها الوقت المناسب. فالعقل هو العقل له ملكاته وأبعاده وقدراته وقواه

الإدراكية والمعرفية التي تكشف حقائق الوجود. أما النفس فهي الأرضية التي تنطلق منها السلوكيات الإنسانية، ولكن حين أطلق فرويد نظريته لم تكن النفس معلنة ومعروفة ككيان داخل الجسد البشري من الناحية العلمية، فلم يكن هناك شيء آخر غير البنية المادية للإنسان، ولأنه "فرويد" عَلِم أن ثمة أمراً آخراً مخفي خلف هذا الجسد المادي هو الذي ترجع إليه اضطرابات السلوك، ولأنه لا يمكن أن يطلق مسمى غير متداول أو معروف على الصعيد العلمي فنسب قوى النفس الباطنية لشيء أطلق عليه "العقل الباطن".. لأن مفهوم علم النفس من الناحية العلمية مناط بدراسة الوظائف العقلية والسلوكية والشخصية، وبالتالي فهو يدرس السلوك الخارجي كالإدراك والعاطفة والذكاء وغيرها من أمور.. أي أنه يدرس الشخصية من الخارج، فالهستيريا والفصام وغيرها من أمراض نفسية كانت تعالج جراحياً وتشخص بوجود خلل عضوي في الدماغ.. وبالتالي فليس لها علاقة بأي شيء غير مادي.

بينما في المفهوم الفلسفي القديم والإسلامي فإن كل الصفات والتأثيرات والآليات التي تُنسب للعقل الباطن إنما هي آليات مختزنة في النفس البشرية، تلك المساحة التي عادة ما ننعتها في كتاباتنا بالحديقة التي نغرس فيها كل تجاربنا وخبراتنا ومآسينا وافراحنا ومواقفنا السلبية والإيجابية في الحياة..

لسنا هنا بصدد مناقشة حقيقة وفكرة العقل الباطن، ولا كيف يعتاش ويقتات البعض على المصطلحات الجديدة، بقدر ما نريد أن نتساءل: لماذا انجر الناس خلف هذه النظرية؟

لأنهم مستسلمون ومنبهرون، هم لا يقرؤون ولا يقرؤون..

الإنسان لا يستخدم أكثر من 10% من دماغه فكرة غربية قفزت للوعي الجمعي في العالم ولا يزال صداها يتردد بين

الفينة والأخرى بين الناس، حتى أنهم قالوا بأن أينشتاين استخدم من 15 - 20 % من دماغه الإبداعي فخَلف تلك النظريات العلمية.. ماذا بشأن الـ 90% من الدماغ هل وظيفته ملئ فراغ تجويف الجمجمة أو لكي يتكأ عليها الـ 10% من الخلايا النشطة والعاملة غير الكسولة في الدماغ..!؟

مع الأسف الشديد تؤخذ مثل هذه الأفكار مأخذ القاعدة العلمية أو النظرية في البيئة العربية يرددها أساتذة جامعات ومفكرون على مختلف تخصصاتهم، أما في دورات التنمية فالاستغلال هنا مفتوح على مصراعيه، فهم يُرغبون المتدربين لتجاوز هذه النسبة وشحذ المهارات العقلية عبر تحفيزهم للقيام بتقنيات وبرامج علهم يحصلون على نسبة أعلى من 10% وبالتالي يقفزون فوق القدرات العقلية المتاحة للآخرين أمثالهم.

الدماغ البشري يعمل بكليته، لا توجد خلايا ليس لها وظيفة، خلايا نائمة، كسولة.. والدليل على ذلك أن أي مساحة تتعرض للتلف نتيجة السكتات الدماغية أو الصدمات أو الحوادث تؤدي إلى عجز أو شلل في وظائف الجسم. كما أن التحفيز الكهربائي لمناطق المخ لم يكشف عن وجود أي مناطق خاملة خالية من الإدراك أو الشعور أو الحركة.

ولكن لماذا ينجر الناس لهذه الفكرة..؟ لأنهم يتلقون، هم لا يقرؤون ولا يقرؤون..

بالقرب من قبر ولدي الحبيب هناك قبر آخر، ليس له شاهد ولا اسم، أطلقت عليه اسم قبر "شيخ كيبل"، يأتي الناس إليه ويقرؤون الفاتحة، وجدت بعد فترة أنهم قد وضعوا له إناء للماء ترتوي منه الطيور، وأعواد مختلفة من البخور.. أرى بين فترة وأخرى بعض الزهور منثورة على القبر.. فما حكاية هذا القبر المجهول الذي لا اسم له؟

في الواقع لا يوجد جثمان أحد داخل هذا القبر، إنما يوجد كيبل كهرباء قديم تفاجأ به عمال حفر القبور فتركوه لصعوبة إخراجه. ولكن لأن كثيراً من الناس كانوا يتساءلون عن سبب ترك قطعة الأرض هذه بلا قبر وعلى الخصوص أنها تقع في مكان يستهوي الكثيرين، فقد قام بعض العمال بوضع كومة من التراب على شكل قبر، ثم بعد فترة قام شخص ما بوضع بعض الصخور حوله لتكتمل في النهاية صورة القبر.

حين أنظر لهذا القبر أتذكر العديد من الممارسات والشعائر والطقوس وبداية نشأتها وتكونها.. بعض هذه الشعائر أشبه بهذا القبر الذي أرى بعض زواره تخنقهم العبرة وهم يرشون تراب القبر بالماء.. ولكن لماذا..؟ لأنهم ينظرون ولا يُبصرون ولا يسألون..

العلامة الفارقة في الرجل من الديانة السيخية، أنك تراه قد أطلق العنان لشعر ذقنه ورأسه، فأتباع هذه الديانة لا يقصون شعورهم فإطالة الشعر عندهم من الشعائر التي لا يمكن التنازل عنها اطلاقاً، أُضيف إليها شعيرة أخرى وهي وضع مشط صغير لتهذيب وتمشيط الشعر. ولكن لو رجعنا إلى أصل هذا السلوك (تطويل الشعر) نجد أنه عبارة عن تكتيك عسكري استخباراتي كان يمارسه السيخ أثناء خوضهم للمعارك قبل ما يقارب من 350 عاما في القارة الهندية وذلك بهدف إيصال الرسائل الاستخباراتية فيما بينهم، فحتى لا يتم كشف الرسائل كانوا يكتبونها على رؤوسهم ويغطونها بشعورهم ليستطيعوا العبور بها وإيصالها لاتباعهم في المدن والقرى المتاخمة، ولكن مع مرور الزمن تحول العمل الاستخباراتي إلى شعيرة وطقس لا يمكن المساس به، وعقيدة يُمنع تجاوزها، بل واصبح أحد التقاليد الرئيسية الخمسة المهمة في الديانة.. رجل واحد (غورو) قام بتحويل ممارسة عملية تكنيكية إلى شعيرة أساسية.. هل تعلم كم

هي الممارسات الشبيهة في عالمنا التي تحولت إلى شعائر وطقوس دينية.

دُعيت قبل سنوات لمخيم ربيعي يرتاده أناس مؤمنون.. بل ومتشددون، وحين حان وقت صلاة المغرب، وتهيئ الجميع لصلاة الجماعة، قلت لهم بأن اتجاه القبلة ليس صحيحاً، فقالوا: مستحيل.. نحن نصلي هنا قرابة شهر كامل فكيف يكون اتجاه القبلة غير صحيح، فقلت لهم استشيروا قوقل، أو استخدموا بوصلة الهاتف النقال للتأكد من صحة القبلة. وحين أشارت بوصلة هواتفهم النقالة لاتجاه مختلف عما كانوا يصلون تجاهه قالوا: أن شخصاً ما كان قد حدد لهم اتجاه القبلة ومضوا على ما أشار إليه لثقتهم به..

كم من كلمة.. عبارة.. جملة.. فكرة.. خاطرة.. إشاعة.. فرضية أصبحت من اليقينيات والثوابت، أصبحت من الخطوط الحمراء التي لا ينبغي تجاوزها لأننا لا نتفكر ولا نتأمل.. ولا نقرأ.

كم من المسلمات والأفكار التي تحولت مع الزمن إلى عقائد لا تُمس ومسلمات لا تناقش.. كم وكم من الطقوس والشعائر التي نقوم بها "تعبداً" دون أن نعرف أو نسأل عن مغزاها الحقيقي ولا تعدو أن تكون اجتهاداً ورأياً بشرياً لا أكثر.. فتحنا أعيننا في مجتمعات تتنفس الحقد والكراهية وتتغذى على مآسي الآخرين دون أن نسأل أنفسنا: هل هذه حالة طبيعية في الأمة والمجتمع؟ نُدخل أنفسنا في معترك الصراع دون أن نعرف حقيقة جذوره ومنشأه الزمنى.. دون أن نسأل أنفسنا هل ما نقوم به يدخل ضمن أطار ديني إلهي أم ضمن نزوات ورغبات بشرية أرادت توجيه دفة مسار الامة لمصالحها؟ لقد أوهمونا أن الحياة دار صراع ونزاع واقتتال وجعلوه أصلا ثابتاً لا ينفصم عن مسيرة الحياة الأرضية، ولا نعلم أن أوجه الصراع والخلاف نشأ قبل

500 عام لا لأسباب دينية أو عقائدية إنما لأسباب مصلحية وسياسية توسعية.. ولكننا لا نعلم لأننا لا نقرأ.. ولا نقرأ.

كانت كلمة اقرأ أول كلمة نطق بها الوحي المقدس لنبي الرحمة.. لم تكن بمعنى القراءة التي نعرفها فلم تكن هناك صحيفة أو كتاب ليقرأه نبي الأمة.. إنما هو إقرار ووعي وإحاطة بعالم الخلق والوجود، كما هو دارج حين نقول: "قراءة الأبعاد الثقافية في الوطن العربي" أو كما نقول: "قراءة في كتاب"، فليس المقصود هنا القراءة اللفظية والعملية للكتاب ولكن الإحاطة والتركيز على أهم الرؤى والتصورات التي جاءت والتي أراد الكاتب إيصالها للقارئ.. فالأمر الإلهي للنبي (ﷺ) بالقراءة يعني التفكر والتمعن والتأمل والتدبر والإحاطة، أن يقوم بعملية استقراء وتفكر للحياة بجميع ابعادها وأن يعي حقيقة العالم السماوي الذي يتداخل مع ويحيط ويكتنف العالم المادي..

خطاب الوحي للنبي (ﷺ) هو خطاب عالم الملكوت لعالم الملك.. خطاب السماء للأرض.. خطاب الخالق للمخلوق.. خطاب يدعو للتفكر والتأمل والبحث والتقصي عن كل حقائق الوجود.. خطاب يعلن صراحة ألا تكون حياتنا نتيجة للسماع.. لا تكون نتيجة صياغة لأفكار الآخرين.. أن لا ننظر للحياة بعين واحدة وبأطر ضيقة وأفكار محدودة. بل ينبغي ان تكون حياتنا ثمرة للقراءة والوعي والتأمل والتفكر.. وهذا هو النهج القرآني في الحياة.. لذلك حين نقول ينبغي أن: نقرأ.. ونقرأ.. فالأولى تعني البحث والاستقصاء والتحري، أما الثانية فتعني الإحاطة والوعي والبصيرة.

كثيراً ما نسمع ونقرأ ونرى أموراً يتشبث بها الناس لا أساس لها من الصحة، أموراً تخالف الفطرة السليمة والعقل الراشد والوحي المقدس.. أموراً مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان

تحولت مع الزمن إلى مناهج وأسس في العقيدة وأصبحت جزءا لا يتجزأ من المنظومة الدينية، والويل والثبور لمن يشكك فيها أو ينفيها.. أموراً شبيهة بعجوة المدينة أو وهم العقل الباطن أو نسبة الـ 10% أو شعيرة تطويل الشعر أو القبر المجهول.

اقرأ.. ولا تكن حبيس الكلمة

على الرغم من أهمية القراءة إلا أن الإنسان ينبغي ألا يقيد عقله ويحجم وعيه فيما يقرأ فقط، فيكون سجين كلماته وأفكاره ومعتقداته ما لم يكسر هذا القيد بالتفكر الذاتي وبالإلهام الباطني والوعي المتقد.. قد تبدو هذه الفكرة غريبة نوعا ما، فقد تعودنا أن نكون أسرى الكلمات مكبلين بالمعتقدات مصفدين بأغلال المسلمات والأفكار التي غرست في عقولنا منذ أمد بعيد..

تعودنا أن من يُفكر أكثر يجني أكثر، ومن يخطط أكثر يحوز على نتائج أفضل، حتى قيل سابقاً أن التفكير سر وجود الإنسان "أنا أفكر إذن أنا موجود". ينبغي للإنسان أن يتعلم ويفكر ويبدع ويدرس ويتعرف ولكن لا ينبغي أن يقف عند حدود ما يتعلمه من الخارج..

هناك نظرة متطرفة لبعض المدارس التأملية التي ترفض فكرة أن يتعلم الفرد ويوسع مدارك وعيه من خلال القراءة والتمعن في الدراسات والثقافات المختلفة، وبالتالي تكون معارفه مرهونة بما يتلقاه منها.

نرى أن هذه فكرة متطرفة تعزلنا عن إدراك العديد من الركائز المعرفية التي من الممكن استلهامها من الثقافات المختلفة أو من جملة ما تحمله العقول الأخرى القريبة منا والبعيدة. وكما جاء في الحديث: "أعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله".

ولكن هناك ملاحظة في غاية الأهمية:

فالأفكار والمعارف التي نستلهمها من الخارج - سواء من الآخرين بشكل مباشر أو من خلال قراءة الكتب والأبحاث والدراسات- تارة تكون أداة ووسيلة قوية تأخذنا للداخل والعمق الباطني، وتارة أخرى تكون حجاباً مانعاً للتواصل مع الباطن.

بعض مما نقرأ.. حين ننتهي من قراءته نجد أنفسنا على تواصل أكثر مع ذاتنا الحقيقية ونشعر بانجذاب نحو الداخل.. نشعر براحة نفسية وكأن ما قرأناه للتو قد فتح لنا باباً للتواصل الداخلي، أو أزال عن كاهلنا غلاً كان مستحكماً على أفكارنا.. تارة نقرأ كلمات تحلق بنا في سماء الوجود وتعرج بأرواحنا في ممالك الملكوت.. تارة نسمع محاضرة نبقى مشدوهين لها فترة من الزمن وكأن على رؤوسنا الطير تخلق فينا تساؤلات عديدة وتفتح لنا آفاقاً لم نكن ندركها من المعارف والأفكار.

وليس هذا محصوراً على ما نقرأ ونسمع.. بل حتى على ما نرى ونشاهد.. فتارة نتابع فلماً أو مسلسلاً فيه من التأثير الروحي والنفسي ما يعادل قراءة عشرات الكتب من ذات الموضوع، وحين ننتهي من مشاهدته نبقى فترة في حالة من الصمت، وكأن المفاهيم التي شاهدناها بدأت تنقش فينا شيء ما.

ولكن في المقابل.. مع الأسف الشديد هناك لغو كثير مما نسمع أن نقرأ أو نشاهد، نجد أنفسنا بعد الانتهاء منه بعيدين عما كنا فيه. وقد نصاب بحالة من الإحباط وتقلب المزاج وشيء من التوتر. لذا ينبغي أن نقيّم وندرك جيداً ما يتسرب إلى أذهاننا ووعينا لأنه سيشكل في نهاية المطاف أسس شخصيتنا الباطنية. فالسواد الأعظم تبرمج على التلقي من الخارج.. فأفكاره ومعتقداته ومسلماته تسربت إليه من الآخرين دون أن يكون له أي دور فيها.

فالبعض يُعمل فكره ويبدع وبذكاء منقطع النظير في كل ما يتعلق بأمور دنياه المعيشية وحياته الاجتماعية ووظيفته العملية وإنجازاته المهنية، ولكن فيما يتعلق بحقيقة وجوده ومعرفة خالقه ورسالته في الحياة وسر الخلق فإنه يوكل الأمر إلى غيره كي يفكر عنه ويعطيه تصوراً يتوافق ورؤيته المحدودة.

لذلك ينبغي أن نضع في اعتبارنا ثلاثة أمور مهمة حين نشارك الآخرين في منظومتنا الفكرية:

أولاً: أن نختار ما يثري منظومتنا الفكرية من معارف مهمة ومفيدة تُعمق فينا عملية التواصل مع ذواتنا الحقيقية. تتحول بعدها إلى وعي يثمر نتائج على كافة مستوياتنا. فما نقرأه أو نسمعه ينبغي أن يؤتي ثماره، كثير من الناس يقرأون ولكنهم لا يوفقون لاختيار ما من شأنه أن يمس ذواتهم ويثير فيهم البحث والتفكير.

ثانيا: أن نترك في قلوبنا وعقولنا مساحة خالية تشرق بها إلهاماتنا الخاصة التي تكمل الفجوات فيما نتعلمه أو نسمعه. بمعنى أن لا نقف عند حروف الكلمات، ولا عند رسوم الآيات، ولا عند حدود المفاهيم. أن لا نحصر وعينا بين دفتي الكتاب، إنما ينبغي نحاكي ونتفحص ونتأمل كل ما نقرأ..

فذاكرتنا لا تمانع من تجميع المعلومات، ولها سعة كبيرة في تخزينها، ولكن عقولنا تحتاج إلى شيء من الإقناع والتروي، تحتاج إلى فلترة ومقاربة للعديد من المفاهيم حتى تتحول فيما بعد إلى وعي حقيقي. المعلومات التي نستقيها من الآخرين ينبغي اعتبارها مشاركة لا تلقي، مشاركة عقلية وروحية ووجدانية ومعلوماتية، فحين نقرأ كتاباً ما فنحن نشارك الكاتب أفكاره وتصوراته وخبراته وتجاربه، ولا تعني المشاركة ضرورة الموافقة لكل ما يرد فيه أو قبوله. ومع الأسف الشديد يربط البعض بين

المحتوى والمسمى، فلأن المتحدث أو الكاتب من الأسماء اللامعة فيتم قبول أفكاره وتصوراته دون قيد أو شرط، دون محاكاة للأفكار أو تمحيص للآراء.

كثيراً من الفلاسفة والمفكرين تحوي كتبهم على مغالطات عديدة تؤخذ مأخذ التسليم عند البعض لا لشيء إلا لأن أسماءهم مدرجة ضمن قائمة الفلاسفة. جملة من التصورات والآراء الروحية التي تطرق لها بعض الفلاسفة والمفكرون كتبت بمغالطات كثيرة ومفارقات موضوعية وعلمية وبمقدمات خاطئة لا تمت للحقيقة بصلة. يكتبون عن حقائق لم يختبروها في حياتهم كأعمى يصف لون السماء أو كفاقد لحس التذوق يصف لك حلاوة العسل.

ثالثا: ضرورة البناء الهادف.. ونعني بالبناء الهادف أن يكون لما نقرأه أو نسمعه أو نتعلمه غاية محددة تصب في هدف أكبر، فيصبح ما نقوم به يخدم الهدف الكلي الذي نسعى إليه دون تشتت أو تبعثر. فحين نقرر بحث موضوع ما، وليكن التأمل على سبيل المثال، سنجد عشرات الكتب ومئات السمعيات التي تتكلم عنه، فنأخذ في اعتبارنا أن كل فكرة أو معلومة بمثابة قطعة (من قطع لعبة التركيب) نكمل بها تشكيل وبناء البيت بكامله. نجمع القطع لنكمل بها مفهومنا عن التأمل من كافة جوانبه.

ولكن قبل تجميع قطع المواضيع المتفرقة والمتنوعة، ينبغي أن يتصدر موضوع معرفة سر الحياة رأس قائمتنا. لأن معرفة سرها ينقلنا لمعرفة حقيقة العالم الآخر وأبعاده الروحية.

ولنضرب مثالاً يحقق هذه الأمور الثلاثة:

قد يهديك صديق كتاباً عن التأمل أو التفكر أو فيه رؤى مثيرة عن الحياة لم تكن تدركها أو تطلع عليها سابقاً.. تشعر

بأن كلمات الكتاب تأخذك للباطن وتثير مخيلتك للعديد من التساؤلات.. بعد أن تنتهي من قراءة الكتاب ينبغي أن تعيد التفكر والتمعن بما قرأته.. وكأنك تغرس في تربة عقلك بذرة وتطمرها بالتراب وتنتظر النتيجة.. أنت هنا تنتظر ذاتك الحقيقية القابعة في أعماقك ما سيكون ردة فعلها على ما قرأت.. قد تتوالى عليك الأفكار في باطنك مراراً وتكراراً.. قد يتأكد لك بعضها، وقد تتناغم مع حقائق أخرى، وقد تثار العديد من التساؤلات في عقلك، وقد تنكشف لك رؤى أخرى كانت مُغيبة عنك. وأخيراً ما يدعم كل ما توصلت إليه هو أن تعيشه وتشعر به.. لا يكفي أن تتأمل بل أن تكون متأملاً.. لا يكفي أن تذكر بل أن تكون ذاكراً..

السر.. في قانون الجذب

القانون الكوني الذي أسيء استخدامه

قبل عدة سنوات انتشر في الأسواق كتاب (The Secret) وأعقبه الفلم الذي حمل الاسم نفسه لعدد من المختصين والاستشاريين في مجال التنمية البشرية والعلوم العقلية، وحقق نجاحاً كبيراً في المبيعات العالمية بعد أن ترجم لعدة لغات في مختلف بقاع العالم.

يتطرق كتاب السر لأهم قوانين الحياة وهو قانون الجذب، فعن طريق التفكير الإيجابي والتأكيدات التي نغرسها في نفوسنا نستطيع الحصول على ما نريد من الثروة والوفرة، والنجاح والصحة والعلاقات المثالية والزوجة والمنزل والعمل وأي شيء نرغب في الحصول عليه. فالنية أو الإيحاءات الإيجابية بالطلب تتجسد وتتحول فيما بعد إلى واقع ملموس يعيشه الإنسان.

إن موضوع الكتاب حول قانون الجذب أو الأفكار الإيجابية أو النية لم يكن جديداً في مضمونه فقد زخرت مؤلفات كثيرة لعلماء وروحانيين منذ مئات السنين بهذه الأفكار بعضها لا يزال مخطوطاً وبعضها لا يزال غير مترجم سواء للإنجليزية أو العربية، فالموضوع قديم قدم رسالات السماء التي أكدت كثيراً على هذا الجانب.. إلا أن ما جعل كتاب وفلم السر ينتشر بشكل كبير هو تركيزه على الأمور المادية التي يأمل الإنسان في الحصول عليها كالثروة والمنصب والجاه والمنزل وغيرها من

أمور. إضافة إلى استعماله لتقنيات حديثة في طرح الأفكار وتقنينها بحيث يتم استيعابها بشكل مؤثر عقلياً ونفسياً.

حقيقة القانون

ينبع القانون من فكرة توازن وتناغم الذبذبات فيما بين الإنسان وبين حاجته بحيث يكون مستوى وعيه حاضراً وكأنه قد حقق أمنيته بالحصول على ما يريد وهذا يتطلب درجة من الاسترخاء والتفاؤل وتحديد الغاية والتدريب الذي يعمل على تجسيد الفكرة والطلب إلى واقع عملي.

إن قانون الجذب من القوانين الكونية التي سنها الله في الحياة، وهو يعكس جوهر الدعاء والطلب في الشرائع السماوية ولكن بصيغة أكثر علمية توافق الإنسان الحديث.

لا أحد ينكر أهمية هذا القانون والآثار الممكن تحقيقها من خلاله، فالكثير من الناس خاضوا تجارب عميقة وحققوا العديد من الإنجازات، ولا ينكر هذا الأمر إلا جاهل أو معاند. إلا أن السؤال المهم هو: هل سن الله عز وجل هذا القانون لكي يحصل الإنسان على ما يريد من متاع الدنيا، من سيارة فارهة، بيت جميل، زوجة مثالية، أولاد مطيعين، عمل مدر للثروة فقط.. أم أن هناك حاجات أعمق من هذه بكثير لم يلتفت إليها ناقلي هذا القانون وعلمائه؟

في رأينا إن هذا القانون استغل استغلالاً مادياً سيئاً أثار جشع الناس وفجر في أعماقهم الرغبات الآنية، والمتطلبات المادية، والكماليات الدنيوية. وبنظرة سريعة على مواقع الانترنت والتواصل الاجتماعي ستلاحظ العديد من العناوين التي تدعو إلى مثل هذه الأمور: (كيف تزيد ثروتك - كيف تجذب المال - كيف تصبح غنياً في 20 يوم - كيف تحصلين على زوج المستقبل

- عاوز تجذب الفلوس - قصة زواج عجيبة بفعل قانون الجذب - حقق أهدافك بقانون الجذب - شريك الحياة وقانون الجذب - احصل على وظيفتك المثالية بقانون الجذب..) وغيرها العديد من العناوين الأخرى المشابهة.

لقد أثار هذا القانون نهم العديد من الناس القانعين بحياتهم، وفتح الباب على العديد من الطامعين لزيادة ثرواتهم، فأصبح هناك تسابق فيما سيحصلون عليه وكأنهم كانوا في غفلة عن متاع الدنيا وكمالياتها ورفاهيتها. لذلك يتساءل البعض ماذا سيكون شكل الحياة فيما لو حقق الناس أحلامهم وامتلكوا ما يشاءون من متاع، وازدهرت بشكل لم يسبق له مثيل؟ فالجميع مدراء لامعون ولهم بيوت جميلة وأرصدة وفيرة وحياتهم مسيرة على أكمل وجه.. من الذي سيحقق رغبات هؤلاء؟.

لقد تجاوز الأمر حد الحاجة ليصل إلى حد الكماليات، فلا أحد يقتنع بما يحصل عليه وإنما يتمنى المزيد والمزيد، لا أحد يقتنع بما يملك وإنما بدأ الكثير يساير موجات الموضة وكل ما هو جديد ليحصل عليه ويقتنيه.. فهل لهذا سن الله سبحانه وتعالى قانون الجذب في الحياة؟.

الجذب والبعد الروحي

إن قانون الجذب لا ينافي أي بعد شرعي أو ديني على خلاف ما يزعمه البعض، فهو قانون إلهي كوني جرت عليه سنن الأولين. إلا أن المشكلة في استغلال هذا القانون في البعد المادي فقط.. فلا نرى في كل الدورات التدريبية أو مواقع التنمية البشرية أو الانترنت أو الكتب تفعيل هذا القانون في غير هذا البعد. فعلى سبيل المثال لا ترى عنواناً يتحدث عن (كيف تجذب الحكمة إلى حياتك - قانون الجذب والشفافية الروحية - كيف تجذب أفكار السلام - كيف ترفع معاناة الشعوب بقانون الجذب

- قانون الجذب وإخماد الحروب - كيف تجذب السلام وتتخلص من العنف في العالم - قانون الجذب والإلهام النوراني - استقبال الفيض وقانون الجذب..).

لقد ظن كثير من الناس أن قانون الجذب مثله مثل الدعاء خصه الله برفع المعاناة الشخصية عن الإنسان، فالبعض يدعو طوال حياته لنيل المطالب الدنيوية وتحقيق غاياته أو شفاء علته أو تفريج كربته.. ولم يفكر يوماً أن يدعو الله أن يفتح عليه أبواب الحكمة ويغرس فيه النور والشفافية ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويزيد من قدراته الإبداعية ويسمو بوعيه إلى مراتب عليّه. وكأن الدعاء إنما وضع لأجل تحقيق المطالب الدنيوية فحسب، وكأن الداعي نصب نفسه مستنزفاً لموارد الحياة حتى إذا نفذت بدأ في الطلب من جديد.

لقد سن الله القوانين الكونية لتمس كافة جوانب حياتنا ولا تنحصر في الأبعاد المادية فحسب، فالأصل فيه هو لأجل التناغم مع العالم النوراني الآخر الذي خلق الإنسان منه. فلو استطاع الإنسان أن يحصل على ما يريد في الدنيا فإن هذا لا يعني بالضرورة أن يكون سعيداً أو متميزاً.. فكم من غني وثري يعيش في خواء وخوار ونقص في أعماقه لا تسده كنوز الأرض.

ولكن لأن هذا القانون جاء بصيغته الحديثة من دول الغرب التي تجعل المال والثروة ورغد العيش مقياس التفوق والنجاح في الحياة فلم تألوا جهداً في التركيز على هذا الجانب وإهمال الجانب الآخر. فأهمية الإنسان في الغرب بما يملك وبما يُمثل وبما يحقق دون أي اعتبار لأمور أخرى.

إن بعد البشرية اليوم عن الروحانية أكثر بكثير عن بعدها المادي، فالأولى أن يتم التركيز واستغلال هذا القانون في تعميق هذا البعد أكثر من اكتناز الثروات وزيادة المدخرات. فما حاجة رجل ميسور الحال إلى زيادة ثروته؟! هو بحاجة إلى زيادة وعيه

وحكمته وذكائه وفطنته وشفافيته وروحانيته.. بحاجة إلى زيادة علمه الروحي وتفقهه في قوانين الحياة ومعرفة الهدف الحقيقي من خلقه ووجوده. فما نفع الأموال وهو يرزح في غياهب الجهل.. ما نفع الأملاك وهو أسير المعتقدات البالية.. ما نفع ملايين الدنانير إن كان وعيه لا يزال طفوليا لا يرقى إلى مستوى الإنسانية.

نلحظ العديد من الهفوات ممن يُروج لقانون الجذب، هفوات فكرية، ضحالة في الوعي، تشتت في التفكير، نزعة مادية.. أليس من الأولى أن يتم جذب ما هو راق لأنفسنا بدل اللهث وراث المقتنيات المادية؟.

الجذب والسلام

لا نبالغ إذا قلنا أن مدربي قانون الجذب ازداد عددهم في السنوات الأخيرة أضعافاً مضاعفة، والمتصفح لمواقع الانترنت يعلم هذا جيداً.. هذا العدد الكبير المدربين والمختصين أليس من المفترض أن يكون له أثراً في حياتنا العملية؟

لماذا لا يُفعل هؤلاء هذا القانون السماوي لأجل رفع المعاناة والألم في العالم؟ لماذا لا يتم نشر السلام على الأرض؟ لماذا لا يتم جذب المحبة ونشرها بين الناس؟

إن دعوة كهذه قد لا تجد صدى كبيراً وانتشاراً واسعاً لأنها لا تدر أرباحاً وقد لا تلق رواجاً لأن المرغوب يبقى في إطاره المادي.

في عالمنا العربي مئات المدربين المشهورين وآلاف المهتمين بهذا القانون، فإذا كانوا على يقين من فعالية هذا القانون وقوته التأثيرية، وثقة المدربين بأنفسهم، فلماذا لا يستفاد منه في خدمة البشرية والعالم عبر نشر السلام والمحبة ونبذ الأحقاد ورفع المعاناة؟.

في كتاب السر لا تجد أي إشارة لهذا المعنى لأن الغاية منه لم تكن رفع المعاناة عن البشرية بقدر ما كان إثارة الجشع وتحقيق الرغبات الشخصية والآنية.

مأزق تفخيم الأنا

من ضمن السلبيات التي تمخض عنها قانون الجذب بشكل خاطئ ودون وعي من الداعين إليه هو التأكيد على مفهوم الأنا وتفخيم النفس إلى درجة تحقيق المعجزات، والتركيز على الجانب الشخصي مجرداً عن البعد الخارجي أو العالم الروحي.

إن البعد الروحي الخارجي يمتزج مع كيان الإنسان ومع كل حلقات الخلق الدنيوي امتزاج مباشر ذبذبي إمدادي، وكما يقول علماء الروح: "لا يستقيم أمر العالم الدنيوي دون إمداد العالم الروحي، ولو انقطع الأخير عن الدنيا لاستحالت إلى خراب شامل".

صحيح أن الإنسان يحوي بين طياته بذرة المعرفة والنور التي أودعها الله في روحه حين خلقه، إلا أن هذه البذرة لابد لها من تواصل مع العالم الآخر وإلا انقطع عنها الإمداد من عالم الغيب. وبالتالي فحين تكون علاقتها مؤسسة على التناغم والانسجام مع العالم الآخر فإن العطاء والوفرة تكون بقدر هذا الانسجام.

فما نحصل عليه حقيقة ليس بفعل قدراتنا الذاتية وإنما هو هبة وتفضل من العالم الروحي الذي يعمل على تجسيد النوايا التي قمنا بشحنها وآمنا بها.

وهذا ما لا يتم ذكره حين التطرق لقانون الجذب وإنما يتم التركيز على أن الإنسان هو الفاعل.. هو الجاذب.. هو المنفذ.. هو كل شيء.. وهذا الأمر يعمل على تفخيم الأنا بشكل قد يسبب فيما بعد مشاكل ذهانية أو خلل في وعي فلسفة الحياة، وقد

يصاب الإنسان بإحباط فيما لو لم يحصل على ما يريد بفعل أناته الفوقية.

إن سريان وتفعيل قانون الجذب بصورته الحكيمة وامتزاجه مع العالم الروحي له تأثير سحري في حياة الإنسان وعلى الخصوص فيما لو تعلق الأمر بالجذب الذوقي والمعنوي والروحي.

غص في أعماق نفسك.. ولكن لا تنس أن هناك قوة عظمى أبدية سرمدية عن طريقها تستطيع تغيير كل معادلات حياتك.. تبحر في أعماقك ولكن لابد أن تعلم أن هناك عالماً إن لم تكن متوافقا ومتناغما معه فلن تحصل على ما تريد.. فليست العملية شرطية بقدر ما هي عملية وهبية.. والواهب هنا يريد أن تصل إليه عن طريق هذه الهبة، لأنك أن وصلت إليه استغنيت عن كل شيء.

الوعي العميق والتفكير الإيجابي

قد تسمع إعلان دعائي يقول: "حقق كل أمانيك وأحلامك" أو "طريقك إلى المليون".. إن غالبية الأمور التي يتم الترويج لها تقع ضمن حاجة ملحة لوعي الإنسان الحسي.. ولكن كيف يحقق الإنسان أمراً يعده بغاية الأهمية إن كان وعيه الباطني مليئاً بالسلبيات وصور الصراع والتكالب على الماديات؟

أليس من المهم أن يتوافق الوعي مع اللاوعي لتحقيق ما نريد، أليس من المهم أن نعمل على تنقية وإنارة منطقة الشعور العميق ومن ثم نفكر بما نريد جلبه وتحقيقه؟

إن التفكير الإيجابي لا يؤتي ثماره فوق كومة من السلبيات والآفات والظلام الدامس. لذا ينبغي أن ننظف البيت أولاً ومن ثم نضع الأثاث ونرتب الطاولات ونضع مزهرية الورود. وهذا يحتاج إلى وقت وتدريب ووعي بالعديد من الأمور التي ترسل

أشعتها القوية على ظلام الباطن فتنيره. فما يعرف بالعقل اللاواعي (لا يوجد عقل لاوعي إنما هو مصطلح نفسي تأسس على يد سيغموند فرويد المحلل النمساوي وتم تداوله فيما بعد، وكل ما يتم الإشارة إليه بالعقل اللاواعي إنما هي قدرات نفسية باطنية الشعور) يدير ما يقارب من 90 % من سلوك الإنسان ويتحكم بتصرفاته "فإذا كانت رغباتنا الواعية متناسقة ومنسجمة مع الأفكار اللاواعية فلن يكون هناك أي مشكلة، وعندها سيعمل "قانون الجذب" تلقائياً ولا حاجة لعمل أي شيء لتحقيقه..

لكن معظم أفكارنا اللاواعية 90 % سلبية وتدميرية، وتختلف عما نرغب به أو نريده في وعينا! وطالما أن هذا هو الذي يحكم حياتنا، يمكنك رؤية حتمية فشل أي تفكير إيجابي واعي.. ولن يترك أثراً مثل الكتابة على الماء! هذا يعني أنه قد نفكر ونريد المزيد من المال على مستوى الوعي، ونركز مخيلتنا على حساب بنك ثري ممتلئ بالملايين، لكن إذا كان هناك اعتقاد في اللاوعي بأننا لا نستحق أن نكون أثرياء، أو أننا لن نربح اليانصيب أبداً، أو أن الثراء لأناس آخرين وليس لنا.. عندها لا يهم كم تتخيل الملايين ولا مدة التخيل مهما طالت، لن تحصل على أي منها!".

ولكي نتخلص من التركات والأفكار السلبية التي تخمرت في العقل الباطن لسنوات طويلة فنحن بحاجة إلى ممارسة فعلية ومستمرة لتقنية التأمل والصمت والسكينة، لكي تهدأ بركة الأفكار الجارية حتى يتم بناء وصياغة الأفكار الجديدة عليها..

وهنا تأتي الأحجية.. فمن ينغمس في التأمل يصل إلى حالة من الإشباع والاكتفاء في كل شيء، فهو يستغني عن كل شيء،

وليس بحاجة لأي شيء، لأنه يجد أن ما كان يسعى إليه مجرد أوهام وعبث وكماليات ليس لها أية أهمية في قاموس حياته.

من يعش اللحظة الحقيقية أثناء التأمل (ونقصد هنا التأمل الحقيقي وليس التأمل الاسترخائي) تتغير نظرته لجميع الأمور الدنيوية، فهو يراها الآن بمنظار آخر، يراها كما يرى الراشد طفلاً مهووساً بلعبته.

التعلق بالكون أو المكون

يا بن آدم: "خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي" فكل ما في الحياة مسخر لأجل وخدمة الإنسان وتيسير سبل عيشه ومعاشه. بينما كماله وتكامله الحقيقي لا يكون إلا من خلال تعلقه الروحي بموجد هذه الأشياء.

انقلبت هذه المفاهيم رأسا على عقب حين استبدل الإنسان الذي هو أدنى بالذي هو خير، فأغفل علاقته مع الله، وأغلقت النفوس أبوابها أمام الفيض الإلهي وتلاشى معنى "خلقتك لأجلي".. وفي الوقت ذاته نظر إلى الأشياء من حوله ليس كوسائل أو أدوات وإنما كأهداف وغايات يجد من خلالها كماله ورفعته وسطوته وجبروته.. لذا زادت حاجاته وتفاقمت رغباته وتضخمت أحلامه، الأمر الذي جعل منه أداة يعمل ليل نهار لأجل سد هذه الرغبات والحاجات.

إن حياة الكثيرين منا أشبه بحياة المتسول.. يقضي عمره في الطلب والإلحاح واللجاجة والاسترحام، على الرغم أنه يملك الكثير إلا أن زيادة رغباته وحاجاته تضطره إلى زيادة التسول وهدر طاقته لسد هذا النقص.

فالإنسان نسى حقيقته فاقترب من الأشياء وتعلق بها اسماً ورسماً وشكلاً ومضموناً..

لقد خلق الله "الأشياء" سواء كانت الأساسي منها كالطبيعة، الهواء، الماء، الجمال، الأزهار، الجماد، الحيوان.. أو الكمالية والترفيهية لأجل أن نستفيد منه في رحلة الحياة.. ولكننا جهلنا حقيقة هذه العلاقة التي تربطنها بهذه "الأشياء"، لأننا لم نؤمن بيقين في الشطر الثاني من الحديث "وخلقتك لأجلي" الذي يكشف لنا المستور والخفي في علاقتنا بهذه الأشياء.

فعدم وعينا بحقيقة العلاقة التكاملية التي تنشأ من "وخلقتك لأجلي" جعلتنا لا نفهم أسرار الأشياء التي سخرها الله وخلقها لأجلنا.

إن الذي يمنع تدفق الطاقة الحيوية الجبارة الموجودة في الطبيعة فينا بالقدر الذي يسمح لنا أن نعيش حياة سعيدة وهانئة هو عدم فهمنا لحقيقة التكامل الروحي مع عالم الروح والمحبة الإلهية..

لذلك لم نر نبياً مرفهاً يطلب جاهاً أو سلطة.. ولم نر ولياً من أولياء الله طلب رخاء أو دعة لنفسه.. ولم نر مرشداً أو ماستراً (master) أو معلما روحياً حقيقياً يعيش حياة الرغد.. ليس لأنهم لا يملكون أو ليس بمقدورهم الحصول على ما يريدون، ولكن لأنهم ليسوا بحاجة إلى هذه الأمور، فهم يشعرون بحالة من الاستغناء والاكتفاء الذاتي، ويجدون أن اللذة الحقيقية تكمن في بعدها الروحي والمعنوي. فهم حتى وإن ملكوا ينفقون كل ما يملكون، ويمارسون العطاء بشتى صوره وأصنافه.

الطلب.. أم عدم الاحتياج

إن الغنى الحقيقي كما في العلوم الروحية هو ألا تحتاج إلى شيء.. "فليس الغني أن تملك شيء ولكن الغنى ألا تحتاج إلى

شيء" فكلما زادت حاجات الإنسان ورغباته كلما قضى عمره لاهثاً في البحث عنها. ولأجل سد هذا النهم والجشع المتواصل يطبق البعض تقنيات قانون الجذب ليستفيد من معطياته المادية.

لا شك أن هذا القانون يعمل سواء في بعده الروحي أو المادي، فخزائن العطاء لا نفاذ لها. إلا أن التركيز على الطلبات المادية يستنزف كل طاقة الإنسان وعمره، لأن المادة تستهوي جذب مثيلها.. فمن يحصل على شيء يطلب المزيد، ومن يحقق ربحاً يطمع بغيره.. ولكن إلى متى؟ وإلى أين؟

أيهما أفضل أن يعيش الإنسان متسولاً يقضي حياته متثاقلاً ينظر هنا وهناك ليقوم بجذبه والحصول عليه، أم يشعر بالرضا الكامل والتسليم المطلق واليقين بأن الله سبحانه وتعالي سخر له قوانين الكون والطبيعة تعمل لصالحة كسيد وكملك في ذاته منصاعاً ومتناغماً مع الكون؟

حين يتناغم الإنسان روحياً مع العالم الطبيعي والكوني ويتداخل مع ذبذباته ويشعر بحالة التسليم فإن طلباته وأمانيه تتحقق دون أن يطلبها بل أكثر من هذا لا يكون هو من يدير حياته أو يحدد حركته في الحياة، كما جاء في الحديث القدسي "توليت سياسته" أي إدارة شئون حياته..

حين نستفيد من قوانين الطبيعة والكون كقانون الجذب في وجهته الصحيحة فإن حياتنا تملؤها الوفرة والسعادة والغبطة الروحية.

تخيل أباً حنوناً على ولده يعطيه ويحقق له ما يريد، وفي يوم فكر الولد بهذه العطايا فقرر أن يشتري لأبيه هدية قيمة بالأموال التي يعطيها له.. سيفرح الأب كثيراً بهذا وسيتضاعف حبه لولده.. ولكن لو قال الولد لأبيه: "أنا لا أريد عطاياك

وهداياك وأموالك.. ولكني أريدك أنت، لأني أحبك أنت".. هنا سيعشق الأب ولده وسيحقق له أمانيه من غير أن يعلم.

هكذا لابد أن يكون تفاعلنا واستفادتنا من قانون الجذب وغيره من القوانين الأخرى، أن نستفيد منها بقدر حاجتنا وأن نركز على الحاجات الحقيقية والروحية التي تجعلنا أقرب إلى الخالق الذي سن هذه القوانين والتي ما وضعها إلا لأجل القرب منه والوصول إليه تبارك وتعالى.

لنفهم القانون جيدا

نقل المفاهيم والأفكار بشكلها الإجمالي من العالم الغربي الذي تختلف قيمه وأبعاده النفسية والروحية مع العالم الشرقي والعربي والإسلامي، دون تقنين وتشذيب وتهذيب من أكبر الأخطاء التي نعانيها في تقنيات التنمية البشرية. فالرغبة في نشر وترويج هذه التقنيات والأفكار بسرعة يكون على حساب العديد من الأخطاء التي نقع فيها فيما بعد. ومن أهم الأخطاء التي وقع فيها دعاة هذا القانون تركيزهم على البعد المادي كما ذكرنا.

ونحن هنا لا نريد أن نؤكد على جانب دون آخر.. ولكن على أقل تقدير أن يكون هناك توازن بين البعدين، فبقدر ما يكون هناك إعلانات دعائية للدورات أو على صفحات الانترنت تدعو إلى استخدام القانون لجذب المال والثروة والجاه والوظيفة والمنزل الجميل والزوجة أو الزوج.. وغيرها. أن يكون هناك في المقابل جذب للعلم والحكمة والنور والمعرفة والشفافية والتألق الروحي والسلام والمحبة ونبذ العنف ورفع المعاناة عن البشرية.

لقد سن الله قوانين الطبيعة والكون لغاية سعادة الإنسان الدنيوية عبر تحقيق غاياته في العيش الرغيد.. لكي يزيل العقبات التي قد تعترض سبيله في الوصول إلى المعرفة

الحقيقية وهي معرفة الله وحكمة الوجود والخلق، لأنه بهذا سيكون مكتفيا عن كل طلب يعيش غنياً سيداً ملكا في ذاته وليس متسولاً في عالم كثر فيه المتسولون.

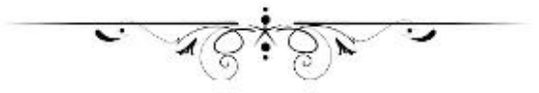

التأمل.. يقظة حياة

ما أعجب الإنسان!

حين يرى في منامه حلماً يطرق العديد من الأبواب ويبحث بشتى الطرق والوسائل لمعرفة مغزى ورمزية ما رآه في حلمه، ولكنه لا يسعى بذات الجهد لمعرفة رمزية يقظته..! هو يبحث عن حلمه وينسى يقظته. يبحث عن تفسير ما رآه في غضون دقائق معدودة ويتجاهل سنينا طويلة من عمره، وسيناريوهات تتخللها العديد من الأحداث والمشاهد.

لماذا..؟

لأنه يعتقد أن الحلم استثناء.. والحياة واقع. يعتقد أنه ثمة رسالة ما في الحلم أو الرؤيا، ولكن الحياة واقع اعتاد أن يعيشه كحتمية وجود.

تختلج في الحلم صورٌ مبهمة وأحداث غامضة وأفكارٌ متشعبة، أما الحياة فقد اعتاد أن يرى الأشياء كما يراها كل يوم.. ويتعامل معها كما يتعامل كل يوم، فحياته ومعيشته واضحة جلية لا تحتاج إلى مفسر أو معبر لفك رموزها..

الإنسان العادي يهتم بكل تفاصيل حلمه، بينما الإنسان الواعي يهتم بكل تفاصيل يقظته فينتبه لكل حركة وحدث في يومه إن كان يحتاج إلى تفسير وتأمل أو بحث ودراسة، فواقع معاشنا وحركتنا في الحياة اليومية لا تنفصل عن البعد الروحي الباطني، بل أن كل قانون طبيعي مادي يتعامل الإنسان معه في

الحياة هو انعكاس لقانون روحي يماثله ويشابهه ويحاكيه.. وبالتالي فإن يقظتنا وانتباهنا لمجريات الأحداث الحياتية يجعلنا ندرك العديد من تلك القوانين.

كثيراً من الذين توجهوا روحيا بدؤوا من لحظة يقظة وسؤال أو تأمل واستفسار عن أمر طالما كانوا يفعلونه مرارا وتكراراً في حياتهم، ولكنهم كانوا غافلين عنه، لأنه تحول مع مرور الزمن إلى عادة.

كم واحدٌ منا يتفكر ويتأمل في حيثيات ومعالم حياته كما يتفكر وينشغل في أحلامه (نقصد التأمل والتفكر الواعي في حركاتنا وأنشطتنا اليومية).. وفي المقابل كم واحد منا أصبحت حياته سلسلة من البرمجيات لمقولات وآراء وتصورات وأفكار غيره بحيث لا يألو جهدا في البحث عن الحقيقة.. حتى أصبحت هويته منزوية جانباً في مقابل هوية الآخرين.

أصبح مطمئنا لحياة تشكلت وتأسست روافد المعرفة فيها منذ مئات السنين وفق رؤى وأفكار أناس عاشوا في عصور متقلبة التوجهات والانتماءات والأوضاع الفكرية والسياسية والفلسفية.

كم واحدٌ منا يؤمن إيماناً حقيقياً بما يعلم.. فالبعض يعلم، لأنه تعلم ودرس وجمع المعلومات من هنا وهناك. ولكن ما مدي إيماننا ويقيننا بما نعلم أو نعتقد. الله عز وجل لا يريد منا جمع المعلومات كي نحافظ ونبقي على هويتنا الإيمانية، فالهوية الروحية الإيمانية لا تتحدد بما نعلم وإنما بما نمارسه ونختبره من مفاهيم إيمانية وروحانية.

فالبعد الروحي أشبه بشجرة تمتد جذورها عميقا في تربة الحكمة المتعالية لعالم الغيب الأول وتستمد حيويتها من التعاليم المقدسة التي تلقتها البشرية على مر العصور وترتكز على بصائر ومضامين القرآن ومقاصده ودلالاته، إلا أن أفرعها

تتداخل مع واقع الحياة اليومية لتحكم ضوابط السلوك الإنساني المتزن الذي يعمل على إشراقة الروح وصفائها حتى تقترب من التناغم الذي يجعلها على وفاق تام مع الإرادة الإلهية.

وبالتالي فإن شجرة الروحانية لا تؤتي ثمارها ولا تكتمل إلا حين تمتد أغصانها وأفرعها في سماء الحياة الواقعية التي نعيشها على هذه الأرض.

بمعنى أن المشاعر والوجدان الروحي ينبغي أن ينعكس على حياة الإنسان العملية والواقعية فلا يبقى مجرد دلالات عميقة في باطنه ووجدانه وإنما يشمل المعاني القصَّية للحياة كذلك.

وهذا ما يمثل الجانب العملي والحياتي للروحانية.. أي أن الحياة بمثابة مسرحٌ عمليٌ للإنسان الذي يتوجه روحانياً. فلا يكفي أن نستمد المعارف من تربة الوعي التي أثمرت بتجارب الأنبياء والصالحين والمرشدين والمؤمنين ونتغنى بتعاليمهم ونردد كلماتهم، بل ينبغي أن نمارس السلوك الروحاني.. أن يتحول ما نشعر به في وجداننا، وما ينبض في قلوبنا، ونلمسه في أرواحنا إلى تجربة معرفية شخصية ذاتية، إلى رؤية تأملية في الكون والوجود والحياة، حتى يكون بمقدورنا بالتالي أن نصيغ صورة مجملة عن هذا الوجود البديع الذي نعد أنفسنا طرفاً فيه.

فالروحانية في بدايتها تكون محصورة في استبطان المعاني الملامسة للقلب والوجدان كحالة السكون والطمأنينة والهدوء والغبطة الروحية.

ولكن هذه المشاعر ينبغي أن تظهر انعكاسا للخارج بحيث تمتزج تلك المعاني العميقة بواقع حياتنا اليومية، وهنا يكون محك الاختبار الحقيقي.

هناك من يقتطع البعد الروحي عن هدفه الحقيقي وعن شموليته الكاملة للحياة، فتبقى رسوم التأمل ومشاعر الروح محصورة في إطار ضيق من الوعي..

فالبعض يتوجه روحياً رغبة منه في فهم وإدراك المقاصد المعنوية العميقة المخبأة خلف ظواهر النصوص الدينية فقط..

والبعض.. لتلمسه للنقص في المنظومة الفكرية والواقع الثقافي فيجد من خلال هذا الجانب ملاذا آخر فقط..

والبعض.. لأنه مغرم بالقدرات والغيبيات وتجلي الإرادات وتفحص الواردات. والبعض لأنه ينشد الهدوء والراحة والسكينة.. والبعض لأنه يريد طرق بابٌ جديدٌ في معرفة أصبحت مطلب الكثير من الناس فيحشر نفسه بينهم..

ما لم يكن الله والقرب من حضرته المقدسة هو هدفك الأعلى وشوقك الأقوى.. فلن تصل إلى المفهوم الحقيقي للروحانية.. حين تقترب من النور سيكشف لك كل شيء.. ستعرف حقيقة الدين، ستشعر بسلام داخلي عميق، ستتجلى أمنياتك التي كتبها الله لك، يغدق عليك بفيض المحبة، باتساع في وعيك لم تعهده من قبل.

الروحانية قبل كل شيء انعكاس ما في الباطن للخارج، اختبار لما استوطن في قلبك إلى العالم الخارجي.. هي انعكاس الوعي في الحياة العملية.

طريقة تفكيرك.. كلماتك.. همساتك.. نظراتك.. تعاملاتك.. أسلوبك.. مشاعرك.. كل هذه الأمور ينبغي أن تكون انعكاساً لجوهرك الباطني.

حين تتوقف الروحانية على مجرد معلومات تستقيها من هنا وهناك.. أو مجرد جلسات تأمل تقتطعها من ساعات يومك، فسوف يطول المسير بك.

الروحانية ليست أداة أو وسيلة بل هي حقيقة الإنسان الباطنية.. هي النقاء والصفاء الروحي الذي ينبغي لكل إنسان أن ينغمس فيه.. التواصل والوصال والقرب من الله هو الهدف الوحيد الذي ينبغي أن نحيا من أجله.. ليس رغماً عنا أو تكليفاً شرعياً أو أمراً قسرياً.. لقد جعلنا الله مريدين ووهبنا إرادة حرة.. وقمة الكمال أن نتواصل معه بإرادتنا الكاملة ووعينا الروحي الشامل..

النور ليس شيئاً نطلبه.. الله ليس مصدراً نسعى إليه.. فهو محيط بنا، ومعنا ويحتوينا من كل جانب ويلامس قلوبنا في كل لحظة.. كل ما هناك أن نزيل حجب الوهم التي ترسخت في أذهاننا ونحطم الأغلال التي كبلت عقولنا، ونفتح الأقفال التي أثقلت قلوبنا.. فالله قريب لكننا نحن البعيدون عنه.

وحتى نصل إلى هذا.. لا ينبغي أن نفصل ما نتعلمه أو ندرسه روحياً عن حياتنا العملية، بل ينبغي أن تكون انعكاساً لتجاربنا الروحية. نعيش الحياة بوعي ويقظة. لا نعتبر الحياة واقع طبيعي نعيشه كل يوم. بل إن اليقظة الروحية تجعل من كل يوم حالة استثنائية نعيشها كما نعيش الحلم..

بدأنا حديثنا عن الحلم.. هل نعلم لماذا؟

لأن كثير من الناس يتفحص حلمه ولا يتفحص يومه وحياته.. في اليقظة هناك العديد من الإشارات الربانية كما في الحلم ولكننا لا ننتبه لها ونظنها شيئاً طبيعياً نمر عليها مرور الكرام. هناك مواقف تدفعنا لسلوك معين.. وهي إشارة لشيء ما

هناك كلمة تسمعها.. انتبه لها فقد تغير حياتك..

هناك لحظة تستغرق فيها بتفكير عميق تنقلك إلى عالم آخر للحظة.. هو فتحٌ فانتبه له..

تسمع دقات قلبك فتشعر بحياتك.. تشم رائحة فتثير مشاعرك.. كل ما حولك هو مدعاة للتأمل والتفكر.. ليس التأمل باطنيا فقط إنما كل مفردات الحياة هي أدوات للتأمل.

حتى ينعكس تأملك للخارج بحيث يشمل أغلب مفردات حياتك وما تمر به.. ينبغي أن تكون يقظاً، منتبهاً، حذراً، مراقباً لكل ما يدور حولك، منغمساً في الوسط الروحي المفعم بالحيوية، مطلقاً طاقاتك الفكرية والإدراكية لأبعد حدود، فكل هذه الأمور من شأنها أن تفتح المسارات الروحية القابعة في أعماقك على العالم الخارجي وهو ما يُحدث اليقظة الروحية الحقيقية.

سجن الكلمات والأفكار وفسحة الصمت

يتطلب منا هذا الانتباه وهذا الاستغراق واليقظة وقف زخم والأفكار الهامشية المشوشة وكلمات اللغو الميتة، الثرثرة التي تستنزف طاقتنا، الاهتمامات القشرية، الرغبات الدونية..

عندما تختفي الكلمات والرغبات ستبدأ برؤية الواقع الحقيقي.. عندما تتوقف عن التفكير وتكون حاضراً فقط..

حين تختفي غيوم الأفكار في الفكر ولا يبقى سوى الصفاء والصفر.. الوعي الصافي.. كالسماء الصافية بلا أية غيوم.. حيث تغيب الأفكار ويختفي الاضطراب، فكل شيء يبدو هادئاً وساكناً.. في ذلك السكون يمكن للمرء أن يخترق الواقع ويرى الأشياء على حقيقتها.. كما كان يدعو سيد الكائنات (ﷺ): "اللهم أرني الأشياء على حقيقتها".

هل تعلم ما تفعل بنا الأفكار المشتتة؟

إنها ببساطة تبعدنا من صحوة الحقيقية والتواصل بما نتأمل به..

نضرب لكم مثالا يمر به الكثير منا.. حين يغلبك النعاس.. وتبدأ أجفانك يقترب بعضها من بعض، وتشعر كأن نفسك توشك أن تنسل من غمدها المادي.. تعيش لحظات من السكون والهدوء قبل أن يغلبك النوم.. وفجأة.. تتذكر أمراً ما، أو تراودك فكرة ما تشغل بالك.. فتفح عينيك ويجافيك النوم، وينتابك الأرق وتبدأ تتقلب في فراشك.. أليس هذا ما يحدث؟

بنفس الطريقة تعمل شوشرة الأفكار للمتأمل.. هي تأخذه إلى مكان آخر، فالذات تريد أن تتحرر ولو لبرهة من الزمن من قيود الجسد، وتنتقل إلى عالم آخر.. ولكن بمجرد أن تراودنا فكرة ما فإنها تعيدنا إلى منظومة الجسد مرة أخرى، كما تفعل فكرة ما بإنسان غلبه النوم.

ففي الوقت الذي تبدأ خيوط التواصل تتشابك بعضها ببعض، بين المتأمل وموضوع التأمل، تأتي الفكرة كالسيف تقطع ما بدأ به بالتواصل.

حين تتوقف الأفكار عن تجوالها هنا وهناك ويصفو ذهنك من آلام الماضي وتوقعات المستقبل، سيبرق وميض الحقيقة في ذاتك.. وسيتغلغل في كيانك وستشعر به. فالحقيقة ليست كلاما ولا فكراً ولا فلسفة ولا نظرية.. الحقيقة شعور، وتصديق، وحضور.

إذا آمنت بحقيقة دون أن تشعر بها أو تعيشها فإن إيمانك شكلي لا أساس له.. إيمان لا يعدو مجرد كلمات أو نظريات أو إيمان نقلي لا حياة ولا شعور فيه.

يجب أن تعيش الحقيقة لا أن تفكر بها فقط.. فمجرد التفكير يمنعك أن تكون في تلك الحقيقة وستبقى مفصولاً عنها. حين تفكر بالحب لا يعني أنك أصبحت محباً.. حين تقرأ عن التقوى لا يعني أنك أصبحت تقياً.. حين تجمع معلومات

عن الأبعاد الروحية لا يعني أنك أصبحت روحانياً.. حين تدرس العلم لا يعني أنك أصبحت عالماً.

فكلمة دفء لا تدفئ قائلها.. وكلمة الأكل، أو التفكير بالأكل لا يشبع قائلها.. إن مجرد التفكير لا يغني عن الحق شيئاً!

لا يكفي أن نعلم بوجود عالم الغيب، الملائكة، الأنبياء، القوانين الكونية، السنن الإلهية، النفس الواحدة، الحقيقة المحمدية.. ونجمع المعلومات عنها دون أن نعيش حقيقتها..

توقف عن توصيف الأشياء بالكلمات وعش حقيقتها.. لا تجعل الكلمات والأفكار تشكل سداً منيعا بينك وبين الأشياء. لا تدخل المنطق والفلسفة والأفكار والكلمات حين تريد أن تتناغم مع شيء ما.

حين تكون بجانب وردة متفتحة كن معها بقربها فقط، لا تسمح لأي كلمة بالتدخل بينكما، فقط شاهد ما هو موجود أمامك.. تمعن بكل انتباه وبكل وعي واهتمام.. وادفع بكل الأفكار جانباً.. في تلك الفسحة من السكون ستبوح لك الوردة بحقيقتها.. عندها يصبح ذلك تأملاً.. تأملاً مع الوردة.

الآن تأمل القمر.. راقبه ولا تفكر بأي معلومات تتعلق به.. فقط انظر وتمعن.. ودع نظرته لك تخترقك.. دعها تكون قوية حادة لكن لا تفكر.. وشيئاً فشيئاً سيخترقك الصمت كنسمات هادئة منعشة من تلك الفسحات الصغيرة ليملأ كيانك ويستقر في أعماق روحك ووجدانك..

حين تكون مع صديق لك.. انظر في عينيه ولا تفكر بشيء.. دع عنك كل شيء مما مضى، ولا تفكر بأية احتمالات فيما هو آت.. فقط انظر إليه مجرداً.. ستشعر بدفق عظيم من الحب يسري بينكما.

والآن.. تأمل، واستشعر النور القادم من عالم الملكوت الأعلى، المنهمر بالرحمة والحب على العالم، تأمل بدون أية مسبقات أو حيثيات.. تأمل بدون أن تنتظر حدوث أي شيء ودون أن يكون قلبك مشغولاً بغيره، ولا فكرك مشدوداً بشيء آخر..

لا ينحصر التأمل في الخلوة والعزلة، فالحياة برمتها ساحة للتأمل ومدرسة للعبر ومفرداتها إشارات تثير فينا دفائن العقول وتؤجج في نفوسنا حوافز التفكر والتأمل ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ولكن ما نفع الإشارات والآيات والنذر حين تغلق القلوب وتجمد العقول ونحتجب عن كل مظاهر الوجود.

حكاية العشق..!

ما سر حكاية العشق التي تحترق كمدا لها قلوب المحبين.. وتنضج باحتراق لها أفئدة الوالهين.. وبلا جناح وريش تحلق في سماها أرواح الهائمين..

ما حكاية العشق التي ضحى، صلب، قطّع، تشرد، لأجلها صفوة الصادقين. ما حكاية من قتلهم عشقهم.. وأصابهم سهم وجَدهم.. وغشي أبصارهم حزن فقدهم.. ما حكاية من تطرب أسماعهم، وتفيض أعينهم حين ذكر ربهم، بعد أن تحرروا من أغلال حبسهم وارتعوا في رياض أنسهم.. وهل من الممكن أن نكون طرفاً في هذه الحكاية؟ أو حرفاً في أبجديتها؟

حين نسمع عن قصص وأمثلة الحب والعشق الإلهي وهيام من خاضوا هذه التجربة الفريدة.. ينتابنا شعور بالدونية من جانب والأسى والحسرة من جانب آخر..

أما شعور الدونية فحين نكيل بمكيال الأفضلية من حيث علو قدرهم ورفعة مكانتهم ووصولهم إلى ينابيع الحب اللامتناهي، فإننا نقارنه بقلة حيلتنا وضحالة سعينا وتعثر حياتنا.. فنقول أين نحن منهم؟ وأين الثرى من الثريا؟

فيخيل إلينا أنه طريق طويل المسافة لا يطويه إلا صفوة البرية ولا يقطعه إلا خيار الخلق. حتى أضحى الواحد منا مشدوها بعظم المسافة التي قطعها السالك في طريق المحبة وتحققه أصول الحب. أما الحسرة فتكون على ما تطاول من العمر، فكيف نجتاز فيما تبقى من أعمارنا ما أفنى المحبون حياتهم فيه؟. نقول

أولا:

إن حديث الحب والعشق الإلهي حقيقة وليست بأسطورة كما ينعتها البعض.. فكل معاني الاشتياق التي ذكرها من خاض هذه التجربة معان حقيقية وصادقة، لا تكلف ولا شطح ولا ادعاء ولا اختلاق في جوهرها. ولكن قد يغلب على البعض حالات هيام أشد من غيره، أو يشعر بحنين يفوق نظيره أو يتوق لاحتواء يثير أنينه.

فحين نقرأ عن سيرة العشاق ينبغي ألا نعتبرها قصصاً خيالية أو أساطير تراثية.. فهي وقائع لسيرة أناس عاشوا واختبروا هذه التجربة بكل إحساسهم، وأوقفوا حواسهم عليها، وضحوا بكل ما يملكون لنقل جوهر هذه التجربة إلى غيرهم ليعيشوا الحالة التي تنعموا فيها من القرب والحب والرحمة الإلهية.

إذن.. فالحب حالة.. عاشها أناس، أو أشخاص (سمهم ما شئت) اختبروا علاقة من نوع آخر مع الله.. هذه العلاقة لا تكتفي بالشريعة من طقوس عبادية أو شعائر دينية. لأنهم وجدوا أن هذه العبادات ما هي إلى بوابة لشيء آخر وهو الحب. فعشقوا المحبوب بعد أن أطاعوه، وتوجهت قلوبهم إليه بعد أن صبت عن تعلقات الدنيا وحب التملك وسيطرة الأنا، وجعلوا محور حياتهم يدور في فلك ربهم ومحبوبهم..

يذكر التاريخ مجموعة من الأولياء والصالحين الذين كانت حياتهم شعلة من الحب الملتهب.. لم يذكر التاريخ إلا القليل منهم.. وهذا من الأمور التي جعلت تحقق هذا الأمر صعباً مستصعباً في نظر البعض. لأنه سوف يرى أن هذا الأمر حكراً على فئة قليلة من الناس.. في حين أن هناك الملايين من البشر عاشوا تجربة الحب بكل معانيها في الشرق والغرب وفي كل بقاع

العالم.. ملايين من البشر لا نعرف عنهم شيئاً، ولكنهم فطنوا إلى جوهر المحبة وابتاعوا حياتهم للحظات الغبطة التي شعروا بها.

فالأمر لا يقتصر على قلة من الناس تلمع أسماؤهم في هذا الجانب فقط.. بل هناك غيرهم كثير.. فالمحب لا يكشف عن حقيقة نفسه ولا يميط اللثام عن جوهر ذاته، لأنه يطلب ألا يُعرف، حتى لا يشغله الناس عن نفسه وعن لحظات أنسه.

لذا ينبغي لمن أراد الحياة السعيدة والعيش الهنيء - لا نريد أن نقول لمن أراد أن يكون سالك الطريق، أو سائراً على طريق المحبة.. لأن هذا يجعل خصوصية تميز السالك عن غيره، في حين الحياة هي ذاتها سير وسلوك - عليه أولاً: أن يعرف أن طريق الحب، وحكاية العشق هي حكايته هو.. وطريقه هو.. كل ما هنالك أنه تأخر قليلاً.. أو كان غافلاً.. أشغلته الحياة فأعرض عما كان ينبغي أن يتوجه إليه.

فحكاية العشق هي حكاية كل واحد منا.. فلا تستصغر نفسك، فالله يحن إليك أكثر من حنين الأم لوليدها، ويتوق لتتعرف عليه أكثر من توقك لتعرفه.. هو يبادلك الحب كل يوم، ويلامس قلبك مع كل نبض، دون أن تشعر به.. كل ما عليك فعله.. هو أن تتخلص من الأوزار التي تتقلدها، والأثقال التي تحملها لتشعر باحتوائه لك ووجوده في حياتك، وتستمع لتراتيل صمته المبهر..

هل تعتقد أن القدح الذي شرب منه السابقون لم يعد موجوداً.. وأن الشراب الذي ارتشف منه الأولون قد نفذ سقيه وجف ريه.. بالطبع كلا.. فكرم المعطي لا حد له، وفيض جوده لا أمد له..

ثانياً:

دع عنك المسميات والمصطلحات والقوالب الصماء التي حولت مفهوم العرفان الحقيقي والحب إلى سير وسلوك ودرجات وقوالب ومقامات وأحوال ولمحات ومنازل ومراقي وتمكين وتلوين وتجريد ومحو وإظهار وجمع وتفريق وجمع الجمع وغيب الغيب والحيرة والدهشة.. وغيرها كثير.

دع عنك كل هذه المسميات وعش حقيقة المحبة مع الله.. املأ قلبك حباً له وشوقاً إليه.. اقرع بابه ودع عنك ما قيل، فلربما يفتح لك باباً أوسع ممن ظن أنه قد وصل.

أرادوا أن يحولوا الحب إلى علم نظري، أو عرفان فلسفي، وأرادوه للخاصة منهم، بتعقيد مفرداته، وترميز إيحاءاته، وتصعيب أبحاثه.. فانكمش الناس عن الأخذ به، ووجدوا أنه لا طاقة لهم به.. حتى ظن كثيراً من الناس أن معرفة الله والقرب منه لا يأتي إلا بهذا الطريق.. الذي قد يفني الإنسان عمره في تعلم منازله ودرجاته دون الالتفات إلى حقيقة نفسه أو ربه.

لذا قد تصادف إنساناً يحفظ هذه المصطلحات غيباً، ويشرحها تفصيلاً، ويفسرها ظاهراً وباطناً، دون أن يلامس عبق الروحانية قلبه أو تتخلله ومضات المعرفة اللدنية والحقيقية. لم يختبر الجانب العملي الروحي الذي تتضمنه هذه المصطلحات والأفكار.

لقد أوقفونا على حدود ما نهجوا، وحددوا لنا مسار ما فكروا، وخطوا لنا طريقة الحب والقرب وفق ما عقلوا..

الحب لا يحتاج إلى كل هذا.. الحب لا يحتاج إلى مقدمات ولا نهايات، لا يحتاج إلى درجات ومقامات، لا يحتاج إلى دراسات ولا أبحاث ولا تعريفات.. الحب هو الحب لا يحتاج إلى شيء، ولكن كل شيء يحتاج إلى الحب.

قد نجد أرقى صور الحب ويقين الإيمان عند العجائز والكهول والشيوخ والشيبة الكبار.. قد نجده عند الخادم الذي يخدمنا أو العامل الذي يساعدنا.. الحب لا يحتاج إلى هندام وجبة وعمامة.. هو يحتاج إلى قلب يعمه الشوق إلى مولاه ولو كان عبداً حبشياً.. "فرب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره".

في رحلة الرازي إلى نيسابور، تجمع الناس حوله لينهلوا من علمه، فسألت سيدة عجوز: من هذا الذي يتهافت الناس حوله؟ فقالوا لها: هذا الفخر الرازي، الذي جمع ألف دليل على وجود الله، فردت عليهم قائلة: لو لم يكن في قلبه ألف شك ما احتاج إلى ألف دليل! فلما بلغه قولها رد: اللهم إيماناً كإيمان العجائز.

ولا يتوهم البعض أن المقصود بإيمان العجائز، الإيمان التقليدي المتوارث الشكلي، البعيد عن التحقق والوعي، فالحادثة وقعت في زمن اشتد فيه الجدال والخصام بين المتكلمين وأهل الحديث وبعض الفرق والمذاهب، فأثيرت العديد من الشبهات والشكوك التي تمنوا لو أنهم بقوا على إيمان العجائز بدلا من خوض تلك الشبهات والتشعب فيها لكان أسلم لإيمانهم. وكما قال أمير المؤمنين (ع): "من كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق، ومن شاق وعرت عليه طرقه وأعضل عليه أمره وضاق مخرجه".

تعقيد البعض للواضحات ودفعها في أتون المباحث العقلية والفلسفية يُغيب أبعادها الروحية، ويجعلنا نخوض غمار الشكليات والفرعيات والهوامش، فننسى الأصول ونهتم بالفروع.. نتفنن في إثبات الحجة والدليل، ونفند الذرائع بالتعليل، فتشطح بنا بعيدا - شيئاً فشيئاً - عن المحجة والطريق والسبيل.

ولا يعني تأكيدنا على البساطة أو إنكارنا للتعقيد مبرراً لعدم دراسة وبحث أو التعمق في الأطروحات والموضوعات المختلفة.. فهناك فرق كبير بين دراسة وتحقق وبحث فكرة أو مبدأ ما،

وبين تعقيد وتصعيب وإبهام هذا المبدأ. فالمبدأ الروحاني يدعو وبقوة للتمعن في كل فكرة واردة واستقصاء كل بحث، شريطة ألا ندخل في الهوامش وننسى الكليات، وأن لا نركز على المسميات وننسى الاسم، وأن لا نتجه للذكر وننسى المذكور، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن المراء والزهو بحفظ المصطلحات والتفاخر بإتقانها لا يعول عليه ما لم تنبع من تجربة روحية وإيمان حقيقي.

يقول عبدالله ابن المبارك قدمت مكة وقد أصاب الناس القحط، ورأيتهم يصلوا صلاة الاستسقاء في المسجد الحرام ولم يُسقوا، يستغيثون ولم يُغاثوا.. وكنت في الناس من جهة باب بني شيبة، إذ أقبل غلام أسود، عليه قطعتا خيش، قد ائتزر بإحداها، وألقى الأخرى على عاتقيه، فسار حتى أتى موضع خفيٍّ إلى جانبي، فسمعته يقول: "إلهي.. أخلقت الوجوه كثرة الذنوب ومساوئ العيوب، وقد منعتنا غيث السماء لتؤدبنا بذلك.. فأسألك يا حليما ذو أناة، يا من لا يعرف خلقه منه إلا الجميل، إلا سقيتنا هذه الساعة، إلا سقيتنا هذه الساعة، إلا سقيتنا هذه الساعة". فلم يزل يقول: أسقهم الساعة الساعة، حتى انسدّ الجو بالغمام، وأقبلت السحاب تهطل كأفواه القرب، وجلس مكانه يُسبح الله تعالى، فأخذت في البكاء حتى قام، فاتبعته حتى عرفت موضعه.

فجئت إلى الفضيل بن عياض، فقال لي: ما لي أراك كئيبا؟ فقلت له: "سَبَقَنَا إليه غيرنا، فولاَّه دوننا".

قال: وما ذلك؟ فقصصت عليه القصة، فصاح وسقط على الأرض يبكي. والفضيل بن عياض من زهاد عصره وعلماء دهره له من الحكم العرفانية الشيء الكثير.. ولكن.. سبقه غلام أسود فولاه الله بمحبته وصدق تعشقه.

لا تجعل بينك وبين الله حجاباً مما تسمع أو تقرأ.. فقد تبعدك هذه المسميات والألقاب والمفردات عن أصل توجهك القلبي.. فالمعرفة نقطة كثرها الجاهلون.. بعد كل صلاة، دع نفسك دقائق معدودة، أفرغ قلبك من الشواغل، أغمض عينيك، واستشعر نسيم المحبة والإجابة.. فلقد دعوته في صلاتك، وحان وقت التلقي.. لن يبخل عليك بشيء مما طلبت، ولكن زد من قرع الباب حتى يفتح لك.. وقل: "إلهي قرعت باب رحمتك بيد رجائي، وهربت إليك لاجئاً من فرط أهوائي، وعلقت بأطراف حبالك أنامل ولائي..".

أنت المدعو لتكون طرفا في حكاية العشق.. لا أحد غيرك..

عندما تختلي بحبيبك لا تجعل عمالقة الحب وأساطين العشق سقفاً يعجزك عن بلوغ غايتك.. ونماذج راقية تفقدك الثقة بإمكانية القرب من مولاك كما هم اقتربوا، والغرف من معين مودته وحنانه كما اغترفوا..

ندعو لهم.. نتعلق بأذيالهم، نستمد من بركاتهم.. ولكن لا ينبغي أن نصاب باليأس والفتور والأسى حين نقارن أنفسنا بهم.. فلكل منا طريقه إلى الله، وكما قيل الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.. فلا تبخس طريقك لعلو ورفعة طريقهم، ولا تأس على طريقك لارتفاع قدرهم..

فصور وأشكال وأصناف الحب مختلفة ومتفاوتة بين البشر لكنها تنتهي في مصب واحد وهو المشاعر والأحاسيس.. وبما أن الناس تتفاوت درجات مشاعرهم فقد ينظر إليهم أنهم مختلفون متفاوتون في الحب، ولكنهم غير ذلك في الحقيقة.

فقط يتصدق رجل بمليون دينار وهو نصف ما يملك.. وقد يتصدق أخر بخمسة دنانير فقط.. ولكنه مساو للرجل الأول،

لأنه أيضاً تصدق بنصف ما يملك.. ولعل هذا ما عناه جلال الدين الرومي حين قال:"الكل في عشق الله سواء".

إذن.. هم أحباب الله.. وأنت كذلك..

أما بالنسبة لبعد المسافة، وقطع المنازل في السير والسلوك، مع تقدم العمر.. فالله يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ولو كان مجتمع مكة أكثر وعياً لجاءهم اللهُ بمثلٍ أكثر قرباً من حبل الوريد..

لا توجد مسافات تحجبنا عن الله إلا حجب الأنا وملذاتها وآفاتها.. حين تختفي نوازع الأنا يتجلى نور الحقيقة ناصعاً أمامنا..ما يحجبك عن الله إلا نفسك.. لا شيء أكثر من الأنا ما يحول بينك وبين التمتع بالنعيم الأبدي الخالد. "وإنك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الأعمال دونك".

فبعد المسافة وتعدد منازل السير إلى الله تذوب وتتلاشى كالبرق الخاطف حين تغير مستوى وعيك، وتُحدث انقلاباً في فكرك.. فتتجه إلى الباطن لتسقي بذرة الحب التي طال انتظارها، وسرعان ما تنمو وتعلو بسيقانها وأفرعها وأوراقها لتخترق حجب الغمام.. فتزهر في سماء اللطف الإلهي وتنضج في عليين.

لا وقت ولا زمن يلزمك لسقي بذرة الحب القابعة في أعماقك.. اسقها الآن، وتجاهل مقولات طول الطريق ومشقة السفر، لأنك ما توجهت إليه إلا ويكون هو المتوجه إليك قبلا.. فلا تعتقد أن الأمر بيدك، لقد بادرك هو بالاتصال فاتصلت به.. ما يمنع نمو البذرة هو خبث التربة التي نبت فيها غرس الأنا فأعدمت القلب بهجته وسلبته مهجته. وبمجرد أن تحرث الأرض من جديد وتحسن غرس بذرتك وتسقيها بماء الحياة ستنمو حتماً في فضاء المحبة..

البصيرة.. واللوحة الكاملة

إذا كانت نعمة البصر تعرفنا بعوارض الأشياء والموجودات وصورها عن طريق العين، فإن نعمة البصيرة تعرفنا بجواهر الأشياء والموجودات عن طريق القلب والفؤاد.. فبدون البصر نتخبط ونتعثر فيما حولنا من أشياء، ولكن بدون البصيرة نفقد معنى الحياة ولذة الوجود ونتخبط في ظلمة المصير والأحداث.

البصيرة وعي القلب وعقله الروحي، فالإدراك الأولي مناط للدماغ أو للذاكرة، بينما الإدراك الأعمق من شأن القلب لذلك يقول الحق ﴿لهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ وفي آية أخرى يقول ﴿أفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ وبالتالي فالبصيرة مناط بها وعي وإدراك الأمور بفطنة وحضور كلي، فيندمج الحدس والإلهام بالمعرفة والتجربة واليقين حتى يصل إلى مرحلة الحكمة التي يعبر عنها الحق بالخير الكثير ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ ولهذا أكدت جميع ديانات السماء والمذاهب التأملية والروحانية على أهمية البصيرة والوعي في الحياة، فمن خلال البصيرة تعرف حقيقة نفسك، ومن خلال الحكمة تعرف دقائق نظام الكون الذي تعيش فيه وقوانينه وسننه، وبالتالي فإن الدعوة إلى الله أو تحقيق مشروع الخلافة السامية على الأرض يتطلب البصيرة والوعي ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾.

بل أن الله عز وجل جعل العمى الحقيقي هو عمى البصيرة وليس البصر حين قال: ﴿فإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

فالله لم يخلق البشر ليستعمروا الأرض ويستولوا على مقدراتها وينهبوا ثرواتها ويتناسلوا ويتكاثروا ويكبروا ويتقاتلوا ويقتلوا ويشيدوا ويكبروا ثم يموتوا.. الله لا يريد خلقاً كهذا.. فهذا الخلق غثاء كغثاء السيل لا يغني ولا يسمن من جوع..

الله يريد خلقاً واعياً يعرف حقيقة نفسه وهدف وجوده وسبيل سيره وسلوكه.. يريد خلقاً يرى بقلبه قبل بصره، ويسمع بفؤاده قبل أذنه، ويستخدم عقله قبل يده.. يريد خلقاً يتسابق في ميادين العلم والحكمة والتأمل والعروج إلى الله قبل سباقهم في ميادين التعصب والأحقاد والدمار.. يريد خلقاً يبدأ بالسلام حين يلتقون ويستغفر بعضهم لبعض حين يتفرقون.. يريد خلقاً قلوبهم عامرة بموجات الحب والتسامح ينشرونه لكل العالم، لا خلقاً تملأ قلوبهم الأحقاد والضغائن وعقولهم الجهل والطيش..

حين ينبض القلب بترانيم الوعي، يبدأ نور البصيرة بالاشتعال، وعندها يرى الإنسان الصورة الكاملة للحياة.. فالحياة أشبه بلوحة أو صورة كبيرة جداً لا يمكن لعيوننا أن ترى إلا جزءاً بسيطاً منها، بينما في البصيرة نراها شبه كاملة حين نجمع أكبر عدد ممكن مع قطع أحجيتها.

وهنا تكمن مشكلة الإنسان أنه يرى ذلك الجزء الصغير المحدود فيظن أنه الكل، وأن هذا الجزء يعكس الحياة بمجملها.. أو العالم كله.. لذلك كثيراً ما يغير البعض معتقداته وأفكاره حين ينتقل من مكان إلى آخر، أو حين ينفتح على ثقافات جديدة، والسبب أن السمكة القابعة في بركة صغيرة تظن أن البركة هي المحيط، لأنها لم تر المحيط يوماً.. لم تر الصورة الكاملة الشاملة.

بمجرد أن يبدأ الإنسان بجمع قطع الأحجية المتناثرة للحياة من هنا وهناك عن طريق القراءة وتقصي خفايا التاريخ، والتأمل في فلسفة الحياة، والبحث في ثقافات الأمم والأقوام والحضارات القديمة منها والحديثة، ودراسة مناهج الحكمة والحكماء وتصوراتهم عن الخلق والوجود.. سيعرف كم كان فكره ضحلاً وعقله مقيداً وبضاعته مزجاة وتصوراته محدودة ورؤيته عن الخلق باهته.. سيعلم أن كل ثقافته ومعارفه التي اكتسبها من والديه أو من فئته وطائفته أو من حزبه ومذهبه أو مما قرأه في كتب التراث لا يمثل إلا جزءاً يسيراً وفصلاً صغيراً وحلقة في فلاة جوهر الحقيقة. الحقيقة التي كان يظن أنه يعلمها ويدركها والتي تبرمج بها من طائفته أو مذهبه وما تعكسه من تصورات وعقائد وأفكار تعتبر إحدى قطع أحجية الحياة.. لا كلها. بل قد تكون قطعة تشوبها الكثير من أوجه القصور وتشوهها العديد من التصورات الخاطئة.. لقد تبرمج على أن كل ما يُلقن به ويُنقل إليه هو كل الحقيقة بل هو الحق بعينه وما دون ذلك مجرد سراب بقيعة.

هل يمكن عقلاً ومنطقاً أن نعطي تصوراً عن حديقة غناء مترامية الأطراف ونحن نستكين في زاوية محدودة صغيرة منها؟ هل يمكن لطائر عاش في قفص أن يدرك اتساع الفضاء في خارجه؟ هل يمكن لعقول تبرمجت على ثقافة محدودة ودعمت بآراء قاصرة وقيدت بمفاهيم حتمية أن تدرك هدفية الخلق والوجود.

يدعونا الحق تبارك وتعالى مراراً وتكراراً في كتابه وعبر إرشادات أنبيائه لتفعيل عين البصيرة، ويؤكد عليها كتكليف عيني يأخذ أولوية وأسبقية على سائر العبادات الأخرى، لأننا من خلالها ندرك حقيقة هذه العبادات وما نقوم به من أعمال. من خلال البصيرة نرى لوحة الحياة الكاملة، ومن خلالها سوف

ندرك علة وجودنا وحينها فقط نعرف لماذا خلقنا الله، وما هدف وجودنا الأرضي؟

إن كل حدث، وكل حركة، وكل وجود، وكل دراما في الحياة هي لمسة رائعة أبدعتها يد القدرة التي رسمت لوحة هذا العالم، لكننا نبصر فقط نتفاً مفككة وأجزاء مبعثرة لا يمت بعضها لبعض بصلة.

مشكلة الإنسانية في النظرة الجزئية لأنها تولد الجهل والخلاف والتعصب والطائفية والقبلية وتحقق نظرية الصراع والنزاع والبقاء للأقوى والأكثر والأوفر.. حين لا يرى الإنسان إلا محيطه تشتد نوازع الأنا لديه، بينما حين يرى ببصيرته الصورة الكاملة للحياة يشتد حنينه للعالم.

إن السير في الحياة وفق البصائر الروحية الدينية لا يحتاج فقط إلى عينين مفتحتين، بل يحتاج إلى بصيرة ووعي وإدراك، وإلا سنتخبط في الحياة ونصاب بأخطر أنواع العمى وهو عمى القلوب ﴿وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

البصيرة.. وآلية العبادات

يرجو المؤمنون مرضاة ربهم وعنايته وختام حياتهم بجنة وارفة الظلال تجري من تحتها الأنهار.. ولكن دون أن يعوا الصورة الكاملة لسيناريو الخليقة، ودون أن يعرفوا هدف وجودهم في هذه الفترة القصيرة. فالحياة في نظر السواد الأعظم من الناس فترة عمل آلي تعبدي تكليفي تتعلق بأداء طقوس وشعائر دينية يحظى بعدها الإنسان بحياة سعيدة طيبة دنيوياً ومقاماً محموداً أخروياً.

ولكن.. ألم يدر في خلد هؤلاء طريقة حياة كثير من المؤمنين الذين على الرغم من أدائهم للواجبات وعدم تركهم للمستحبات

إلا أنهم يفتقدون إلى أبسط مقومات الوعي والبصيرة التي تعمق فيهم وعي حقائق الدين وترشدهم لولوج آفاقه وتكشف لهم عن مكنون مراميه وأسراره.

بل أن كثيراً ما تختلط عليهم أوجه الحق، وكأنهم يفتقدون إلى ﴿وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾ وقد ينصرون الباطل وينبذون الحق من حيث لا يعلمون، يفتقدون قدرة الحكم والاختيار وتختلط عليهم رسوم الأشكال ويخطئون في تقدير الأحوال على الرغم أن الله يقول: ﴿إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾. فإذا كان مؤمناً ألا ينبغي أن يكون له وعيٌ وبصيرة ويقظة تمكنه ليكون ميزان عدل يكيل بها الحقائق ويوزن بها الأمور؟ لماذا لا نتلمس وجود هذا الوعي الديني العميق لأناس يؤدون العبادات على أكمل وجه؟

ولا تنحصر المشكلة في فهم واستيعاب المفاهيم الدينية فحسب، وإنما نشهد كذلك تخبطهم في مسالك ودروب الحياة ووقوعهم في حبائل وشراك العديد من الصفات السلبية.. صحيح أنهم يؤدون عباداتهم وطقوسهم إلا أن ما يقومون به لا يعكس النتائج الطيبة المرجوة منها.

لذلك يشكك كثير من شبابنا اليوم حول حقيقة ومعطيات هذه العبادات، حين يرى قريباً أو صديقاً له يداوم على العبادات ولكنه لا يفقه حقيقة المفردات الدينية، أو يشهد على سوء أخلاقه أثناء تعامله مع الآخرين، أو يجده يناصر ويؤيد أفكاراً تشوه من جوهر الدين وتعاليمه الروحية.

من أكبر الأخطاء التي وقعنا بها في تعاملنا مع طقوس العبادات هو ما يعرف "بالتعبد" أي أننا تبرمجنا أن نقوم بأداء هذه العبادات تعبداً لله.. ومعنى كلمة تعبد: هو العمل الآلي والميكانيكي للعبادة دون السؤال أو الاستعلام عن ماهيتها وفلسفتها وحقيقتها وجوهرها.. فالتعبد يعني أن تؤدي عبادة

عمياء صماء دون أن يكون لك حق السؤال عن أية متعلق من متعلقاتها، تتبرمج على أداء كيفيتها دون معرفة علتها أو جوهرها أو سبب أدائها.. ومن هنا تم إفراغ كثير من العبادات من محتواها الروحي وتحولت إلى مجرد أعمال تؤدى لإسقاط التكليف الشرعي.. وبالتالي لا يشعر المكلف بأية أحاسيس ومشاعر تنتابه أثناء أدائه لهذه العبادات.

إن طرح فكرة التعبد في التشريع الفقهي بقوة يرجع لسببين أساسيين:

الأول: أن كثيراً من العلماء يجهلون مقاصد وغايات الشريعة بما فيها العبادات والطقوس والشعائر، لذلك يؤكدون ويبالغون في أهمية الأداء الحركي وشروطه على معرفة الغايات والمقاصد الإلهية من ورائها.

الثاني: يعلم البعض ضرورة وأهمية هذه المقاصد ولزوم معرفتها من قبل الناس إلا أن كشف هذه الغايات سوف يفتح مدارك الناس للتعلق بالتوجهات الروحية والمعنوية وهو باب لا يريدون فتحه.

إضافة إلى ذلك إن هناك تركة أخرى ترسخت في أذهاننا وهي أن ما نقوم به من أعمال تكليفية هو عين الكمال والتمام ولا شيء آخر، كل ما عليك هو أن تؤدي الفرائض وتجتنب المحرمات فتضمن بذلك دخول الجنة والتنعم بنعيم الآخرة.. وكأن الجنة هي الهدف الأسمى في الحياة.

وبالتالي فأداء الأعمال تعبداً من جانب، وضمان الجنة والحياة الطيبة كنتيجة حتمية لقيامنا بهذه الأعمال من جانب آخر جعلت مفهوم الإيمان والتشريع الإلهي أشبه ببرنامج ربوت آلي مجرد من كل مفاهيم وسمات الوعي والإدراك والفهم والبصيرة والتعقل، ووفق هذا التصور تحول الإنسان من كائن

مبدع مفكر واعي إلى ناقل مقلد منفذ لنظام معلوماتي تبرمج عليه.

والسؤال هنا: هل طريقة التعبد المعمول بها، والتي تسد الأبواب على كل سؤال جوهري عميق في التشريع هي الطريقة التي اجتباها الله كي يعمل بها الإنسان في حياته؟ هل بصائر الوحي القرآني تدعونا للتقليد والكف عن البحث والتحقيق أم أنها تدعونا للاستقصاء والبحث والتأمل والتدبر والتفكر؟

فإذا كان (التعبد) هو الوسيلة الأسلم والأنجع، وهي الكمال الذي يراه البعض لدخول الجنة، فالجنة هي المكان الذي سترجع إليه الأرواح في نهاية كل مرحلة وطور، بمعنى آخر هي مكان الأرواح الأصلي والحقيقي، قد يتأخر البعض في دخولها بسبب أعماله السيئة التي قام بها، ولكنه في النهاية سيرجع إلى مكانه الذي جاء منه. وبالتالي ليست المشكلة في دخول الجنة، المشكلة تكمن في معرفة هدف رسالتنا التي من أجلها خلقنا وتجسدنا في هذه الأرض.. تكمن في إدراك الأمور التي ينبغي اختبارها واجتيازها في هذه الرحلة الدنيوية. وحتى نصل إلى معرفة هذه الأهداف ينبغي أن نكون على درجة من الروحانية بحيث نستشعر حقائق الإيمان الذوقي، وعلى قدر من الشفافية لاستيعاب وإدراك المفاهيم القرآنية وعمق الإشارات الغيبية. ولا يمكن أن يتحقق هذا الأمر وفق مفهوم (التعبد) أو فيما لو قمنا بأداء العبادات بشكل آلي تعبدي ميكانيكي.

لا ينبغي أن تؤخذ العبادات - وفق المنظور الروحي والقرآني - هدفاً بحد ذاتها ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ فكل تلك الأعمال إنما تهدف إلى إزالة بؤر التوتر والظلام القابعة في النفس حتى تتوطد حالة التواصل بين ذاتنا العليا وبين العالم الروحي فيعرف الإنسان بعدها رسالته الحقيقية في الحياة..

العبادات أشبه بممحاة تزيل العوالق التي علقت بالنفس وتصقل الفضاء وترمم الفجوات التي تحدثها سلوكياتنا غير السوية في الحياة، مما يجعل إشراقة القلب أكثر سطوعاً على الشخصية في الخارج فيكون بمقدور القلب والفؤاد التواصل مع العالم الروحي. والرسول (ﷺ) في حديثه المشهور يشبه الصلاة بماء النهر الذي يغتسل فيه الإنسان في اليوم خمس مرات.. ثم يتساءل "هل يبقى من درنه شيء" ومن هنا نفهم أنه لا يمكن الوصول إلى عالم الروح قبل التخلص من الحواجز والسدود التي تراكمت في النفس على مر السنين.. العبادات بشكلها الترتيبي المتناسق تحفر رويداً رويداً في تلك السدود وتعمل على إزالتها..

لذلك يجب ألا نكتفي بالعبادات.. بل ينبغي أن نراقب المساحة البيضاء التي خلقناها من تلك العبادات وما سوف يلقى بها من بذور تخلق فيما بعد الشعور بالشفافية والروحانية.

لا يكفي أن نحرث الأرض ونقتلع الحشائش الضارة من التربة وننتظر أن تنمو الأزهار والأعشاب.. بل ينبغي علينا أن ننثر البذور ونسقيها بالماء ومن ثم سنحظى بالزهور التي تتفتح والثمار التي ستنضج.

ينبغي أن نعلم أن هناك شيئاً أخر خلف هذه العبادات.. وهو الشيء الأهم، لأنه بدون معرفة هذا الشيء تتحول عباداتنا إلى شيء آخر.. فكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وكم من مصل ليس له من صلاته إلا الجهد والتعب، وكم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه..

نضع في أذهاننا هذه الفكرة المهمة ونكررها في كل عمل نقوم به، لأننا بهذا سنؤكد لأنفسنا أن هناك سراً خفياً ينبغي كشفه يكمن خلف ستار هذه الأعمال.

حين تتيقن فكريا وعقلياً أن العبادات تعمل على تنقية وجلو الباطن وتزيل الرواسب وتمحو الكدر لتُهيئه لأمر أشد وطأة وأقوم قيلاً، ستشعر بدفق قوي من البهجة الروحية تلامس قلبك.. فحين تتوسع المساحة البيضاء (مساحة النفس) وتشمل الجسد الأثيري سوف تنتقل مشاعر الغبطة للجسد المادي فتنتابه قشعريرة البدن ﴿تقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وكلما اتسعت هذه المساحة كلما ازداد وعاؤك وإدراكك وتفهمك لما تقوم به.

ملايين البشر يقومون بالعبادات الواجبة والمستحبة والمندوبة طمعاً في الثواب وخوفاً من العقاب.. ولكن قلة من يراقب حركته ويتفكر في ذاته ونفسه ويستشعر تلك القشعريرة وذلك الإحساس الغريب الذي يسري في فؤاده وقلبه..

ينبغي علينا ألا نسد الأبواب ونوصد العقول ونحجر الوعي بدعوى (التعبد) الآلي. فأصحاب هذا المبدأ يفهمون كلام النبي (ﷺ) حين أشار إلى بلال كي يرفع الاذان: "قم أرحنا يا بلال" أن النبي أراد أن يؤدي الصلاة كواجب شرعي كي يرتاح بعدها.. وهذا فهم شرعي إخباري مادي.. أما الفهم الروحي فالرسول (ﷺ) كان في شوق لملاقاة ربه، أراد أن يحظى ببركات وعطاءات وخيرات الصلاة والشعور بالوهج المقدس الذي يفيضه على المصلي، فلا راحة كراحة الروح حين تتصل بعالم القدس.

لقد غرسوا في أذهاننا أن ما نقوم به سنجني ثماره بعد الموت، ولكن ماذا بشأن الحياة التي نعيش فيها. لماذا لا نراقب معطيات ونتائج الإيمان على حياتنا قبل الموت؟ لماذا ننتظر النتائج بعد الرحيل؟ فهناك أمور مشروطة بنتائج حتمية جعلها رب العالمين سنناً كونية في كتابة لا تقبل الشك أو الريب. فالمؤمن الواعي ميزان وفرقان بنص القرآن وشرطه، وفقدانه لهذه القدرة يستوجب إعادة نظره في مفهوم وحقيقة عباداته. عليه أن

يتخلص من القيود ويفك إصر الأغلال التي تكبل فهمه الحقيقي للدين وبالتالي انطلاقته نحو الله عز وجل.

لا ينبغي أن نقوم بالأعمال فقط كواجب وتكليف شرعي.. بل يجب أن نتفكر ونتأمل في كل ما نقوم به، وأن نتعمق في نهايات هذه الأعمال ومعطياتها الروحية. لا يمكن الوصول إلى الله بمجرد أداء ركعات الصلاة.. أو التمتع بحياة طيبة بمجرد صوم شهر رمضان، أو الحصول على الحكمة والبصيرة من خلال قراءة القرآن.. فكل هذه الأعمال قام بها الخوارج قبلنا ويقوم بها خوارج العصر بشكل يفوق ما نقوم به نحن أضعافاً مضاعفة..

ينبغي أن تلامس نفحات هذه الأعمال أرواحنا وقلوبنا ونفوسنا.. تغير من سلوكنا وتعاملنا مع أنفسنا ومع الآخرين.. ينبغي أن نستشعر في هذه الأعمال الهمس الملائكي والحنان الإلهي الذي يتسرب إلى كل خلية من خلايا أجسادنا، ويغمر كل نبضة من نبضات قلوبنا.

يجب أن يحتل الله المقام الأول في قلوبنا حتى نتمكن من الإحساس به سلاماً ومحبة وفهماً ولطفاً وتعاطفاً وحكمة. وعندها سوف نفهم وندرك جيداً أن الله حين شرع العبادات لم يكن يريد منا أدائها (تعبداً) بل أراد أن نؤديها تفكراً وتأملاً وتبصراً وحباً وتشوقاً لأن هذا سينقلنا للأبعاد التي تعقب هذه الطقوس والعبادات.

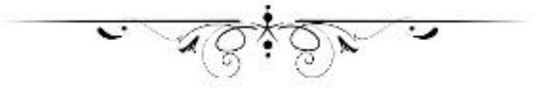

اللّٰه

يريدك أنت!

اللّه يريدك أنت

قاعدة 70 - 30

الأبعاد الروحية لا تسير بشكل تلقائي وعشوائي، أو تخضع لاجتهادات أفكار بشرية محدودة مشوبة بنزعات ورغبات نفسية.. ولكنها تسير وفق قوانين وقواعد وثوابت أساسية، فكما أن الموازين والقوانين تحكم حياتنا في الطبيعة كذلك الأمر بالنسبة لحياتنا الروحية. ومن غير معرفة واستيعاب وتطبيق هذه الأسس والقوانين ستتعثر مسيرتنا سواء الروحية منها أو المادية.

وبالتالي حتى تخرج دراما حياتنا من العشوائية والعبثية كان لابد من قواعد وأسس رصينة وواضحة نستقي من خلالها منهاجنا وتبين لنا المسلك الذي ينبغي أن نسير فيه.. أي أن سلوك الإنسان في الحياة ينبغي أن يستلهم من بصائر ومصادر الحكمة ما توضح له سنن الخالق في خلقه وتكشف له أفضل الطرق في سيره وسلوكه في هذه الفترة الزمنية المحدودة أثناء وجوده الأرضي.

هذه الحكمة والبصيرة قد نجدها في آية قرآنية أو حديث قدسي أو نبوي أو في وصية نبي من أنبياء الله أو في تقرير وإشارة سلوكية لولي من أولياء الله أو في حكمة قالها عارف بالله أو نصيحة تفوه بها قطب من الأقطاب أو إرشاد نطق به عبد من عباد الله الصالحين.. وبالتالي تمثل جملة هذه الحكم

والبصائر الأسس والقواعد الأساسية التي يقوم عليها البعد الروحي.

سنتطرق في موضعنا لأحد أهم الأسس والقواعد الروحية التي تؤكد على أن: أي تغيير في حياة الإنسان لابد أن يبدأ من الداخل، وهو ما تعكسه الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، أشرنا في مواضيع عدة لهذه القاعدة لأهميتها، ولكننا هنا سنتكلم بإسهاب وتفصيل.

وبيّنا كيف أن تغيير المظهر ينبغي أن يسبقه تغيير الجوهر، وشرحنا الفكرة بشيء من الإسهاب.

لا يمكن أن ننتظر من بذرة تفاح حين نغرسها في التربة أننا سنحصد رماناً أو برتقالاً، إلا حين نعمل على تغيير مكونات البذرة الداخلية ونُعدل في التركيبة الوراثية لها، وبالتالي فإن جميع المكونات الخارجية ما هي إلا انعكاس لجوهر البذرة في الداخل.

لذلك عادة ما نقول في الأبعاد الروحية: أن أي تغيير في الشخصية لابد أن يبدأ من الداخل، فتغيير الحركة الجوهرية للذات هي التي تعمل على تغير النفس ومن ثم الشخصية في الخارج. ولكن هل هذا حقاً ما نقوم به "بصراحة" حين نريد تغيير أنفسنا؟

نحن عادة ما نطلب التغيير من الخارج، لأننا تبرمجنا على هذا النوع من التغيير فقط. تعودنا - على نظام توصيل الطلبات - نطلب من الله أن يغير سوء حالنا إلى أحسن حال، ندعوه بفنون الدعوات، ونتوسل إليه بالمندوبات، ونستجير به من العذاب، ونستغيث به من الكربات، ونبكي ليغفر ذنوبنا، ونناجيه ليكفر عنا، وكل هذه الأمور تدخل في التغيير من الخارج. نستنجد بقوة الله سبحانه لكي يغيرنا ويقوّم سلوكنا وينقذنا من

الذنوب، في حين أنه يقول وقوله الحق: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.. ندعوه دون أن نخطو الخطوة الأولى.. خطوة التغيير.

الله سبحانه وتعالى معنا وناصرنا وغافر ذنوبنا ومستجيب دعواتنا ويهدينا سواء السبيل، ولكنه يريد منا أن نتغير، نغير حياتنا ونفوسنا وقلوبنا. لا ينقص من ملك الله مثقال ذرة إن أراد أن يُدخل العالم كله إلى الجنة، فهو القاهر فوق عبادة، ولكنه يريد منا أن نتغير لكي نرى جمال العالم الآخر (ونحن في الحياة) الذي تعتبر معرفته والقرب منه أهم علاماته. يريدنا أن نحيا حياة طيبة تملؤها إشراقة الأنوار الإلهية ونشعر بالفيض الإلهي عن قرب، ونكون في حالة بهجة ووصال معه على الدوام.

من السهل على طالب أن يحصل على واسطة لكي يجتاز اختبار كلية الطب أخر العام ويحصل على شهادة التخرج، ولكن ما فائدة شهادة من ورق إن لم يدرك ويعي حقيقة المعرفة والعلم الذي قام بدراسته؟ ما فائدة الكتب التي تملأ مكتبته إن لم يتعرف ويستوعب ويفهم آلية الفحص والتداوي ويتعرف على أنواع العلل ومسبباتها ويقوم باختبار كل ذلك على أرض الواقع؟

الواسطة - الوسائط الخارجية - قد تمنحك شهادة اجتياز وتَخرج، ولكنها لا تمنحك نجاحاً مثمراً مفلحاً في الحياة.

حين نطلب المدد من الله ينبغي أن نطلبه ليساعدنا في التغيير، أو لنثبت ونؤكد التغيير الذي أحدثناه في نفوسنا.. لا نطلب المدد ونحن نجهل مبادئ التغيير، أو نطلبه ونفوسنا غارقة في تشعبات ومطالب الحياة ونفوسنا تملؤها الأمراض وأفكارنا تزخر بالتناقضات وقلوبنا تعشعش فيها موبقات

الأحقاد، وصدورنا يملؤها نيران الغضب والغيظ والأنانية وتقديس الحاديات.

الله يساعدنا في هذا التغيير، ويبين لنا الطريق، ولكن علينا أن نخطو الخطوة الأولى، فمن تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه ذراعا تقرب إليه باعاً، ومن جعل اهتمامه لسواه أوكله لسواه. ملايين الناس ترفع أكف التضرع إليه في الأيام والليالي المباركة، هل يصعب عليه أن يستجيب دعاءهم جميعاً؟ هل من العسير على الله يعطيهم سؤلهم ويحقق أمانيهم وهو القائل ادعوني أستجب لكم؟ بالتأكيد بمقدوره ذلك، بل وأكثر من ذلك..

ولكنه يريدك أنت أن تبدأ، أن تغير نفسك وتخطو خطوتك الأولى نحوه بصدق، أن تتوجه بروحك إليه لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من عقابه ولا لأنه يقضي حاجاتك.. تقرب إليه لأجله هو بلا مسببات ونتائج وبلا شروط وشرائط.. الله يعطينا ثواب وأجر ما نقوم به من أعمال ولو كانت مثقال ذرة، فالله لا يخلف وعده ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾.. ولكن هناك أمر آخر وهو الفضل ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ وهذا يناله من خلصت نيته وطهر قلبه وزكت نفسه وصفي فكره وتفتح وعيه.

كان الله يخاطب آدم باسمه مباشرة في الجنة ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ..﴾ خطاب مباشر لقربه، ولكن بعد أكله من الشجرة أصبح يناديه لبعده ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾.. فبعدت الشقة بينهما..

فالقرب الذي نعرفه مسافة، والبعد الذي نعرفه مسافة.. وهو القريب البعيد بلا مسافة فهو بكل شيء محيط وعليم، وما مسافة البعد إلا بُعد الإنسان الشعوري والقلبي عن ربه..

ابتعدنا عنه فلزم أن نناديه بصوت عال، هو يسمعنا بلا صوت، ولكن لبعدنا عنه نناديه، ولو كانت سريرتنا خالصة، وقلوبنا نقية طاهرة، سنسمع رده بدون ياء النداء..

إذا عملنا على تغيير أنفسنا من الداخل، وبدأنا في التخلص من الشوائب والسلبيات، وقومّنا نسق الداخل كما لو أننا نريد تغيير وتعديل الخارطة الجينية للبذرة. فإن الله سبحانه وتعالى سيتدخل في حياتنا بقوة، وسيتولى سياسة أمورنا كلها، سيملأ حياتنا بمفاجآت لم تكن أبداً في الحسبان ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وسيغير من حساباتنا فيوكلنا إلى نفسه فيكون هو حسبنا ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ عندها ستنمو بذرة النفس الجديدة وتبلغ مرحلة النضج الروحي والوعي الإلهي تحت عنايته الخاصة ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.. وهنا ستظهر حقيقة البذرة التي قمنا بغرسها. وستعكس إشراقة الذات القابعة في داخلنا.

لا تنس نفسك

كثيراً ممن يدعون الناس للصلاح والتغيير ينسون أنفسهم، يدعون الناس لكثير من الأمور التي لا يُلزمون أنفسهم بها.. الله يريدك أنت أن تتغير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.. يريدك أنت أن تكون مبصراً واعياً حكيماً مؤمناً.. وحين تتفجر ينابيع الحكمة من قلبك ستعرف حينها إن كان بمقدورك نقل ما تعلمته للناس من تجربتك الروحية، وكما جاء في الحكم: "من أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق عبارته وجليت إليهم إشارته".

فمسألة التوجيه والإرشاد والهداية ليست ترديداً ونقلاً لما تقرأه في الكتب أو تسمعه من الغير مع إضافة لمساتك الشكلية عليه، إنما هي نقل لخبراتك الروحية الذاتية التي اكتسبتها أو

التي تحققت منها في حياتك أو التي تلمستها أثناء مسيرتك وسيرك.

أما ما يفعله البعض ممن يسترقون السمع ويتنصتون على الغير أو يقرأون بعض الكتب نهاراً لينقلوا مضمونها ومحتواها ليلاً للآخرين من خلال المجالس أو الدورات والورش والأمسيات التي يقيمونها والتي تدر عليهم الأموال الطائلة.. فهذا العمل شذوذ عن هذه القاعدة الروحية.. فما خرج من القلب يستقر في القلب وما خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان..

وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه.. كما قال الحق، فالله يريدك أنت أولاً.. تارة تكون دعوة الغير للتغير أسهل بكثير من تغيير أنفسنا من الداخل، لأن دعوة الغير تعتمد على النقل بينما تغيير أنفسنا فيعتمد على خوض تجربة عملية ذاتية تتطلب الكثير من العمل الشاق والمتواصل. لذلك نجد الكثير من رجال الدين وقلة من المتدينين.. كثير من المدربين وقليل من الواعين.. نحن بحاجة إلى أناس متشربين بالدين والوعي الذي يتجلى في فكرهم وسلوكهم وقلوبهم وأرواحهم. لسنا بحاجة إلى من يلعب على جراح الآخرين ويقتنص حاجتهم للتغير والتنمية فيستغلهم لأغراضه الشخصية والمادية.

ولكن لماذا الداخل؟ لماذا التركيز على تغيير الباطن أولا وقبل كل شيء؟

تغيير نفسك بحد ذاته هدف عظيم لا يصل إليه إلا من شرح الله قلبه للإيمان والوعي والرشاد.. يكفيك في الحياة التي تعيشها أن تصل إلى هذا الهدف فقط.. كثيراً من الناس يعتقدون أنهم قاموا بتغيير أنفسهم، وهم واهمون، لقد وقعوا في شراك الوهم الأكبر، يعتقدون أنهم بساعات التأمل التي يقومون بها، أو بقراءة بعض الكتب، وسماع بعض المحاضرات، أو حضور

بعض الأمسيات، أو بتغيير بعض الأفكار، أو تجاوز بعض السلبيات، أو زيادة صور وأنماط الترفيه عن النفس والخروج عن الروتين، أو سماع وترديد بعض الأذكار، أو تبادل الابتسامات مع الغير، وتقوية الكاريزما الشخصية، أو تعلم بعض علوم التنمية.. أنهم بهذه الأعمال قد تغيروا من الداخل..

في حين أن أغلب هذه الأمور تجعلهم واقعين تحت وطأة الانغماس في النفس والتثاقل إلى الأرض أكثر من تغيير جوهرها..

تغيير النفس في البعد الروحي يختلف عنه في مبادئ التنمية البشرية، فالبعد الروحي يهدف إلى تغير جذري شامل، بحيث تكون النفس مرآة للروح في الباطن. وبدون هذا الانعكاس لا تصل إلى حقيقة التغيير. وقد بينا سابقاً كيف أن الإنسان الواعي ينبغي أن تكون له قدم هنا - في العالم الأرضي - وقدم هناك - في العالم الروحي - وهذا التواصل بين العالمين هو غاية الإنسان من الوجود.

تقنيات التنمية البشرية تعمل على تغيير الظاهر من معتقدات وأفكار وتستبدلها بأخرى تقوي من سلطة وسلطان الأنا وقواها ودورها في الحياة.. بينما البعد الروحي يعمل على صقل النفس لتكون على درجة من الشفافية تنعكس من خلالها صفات الروح على الشخصية والوعي الجسدي الخارجي.

ومن خلال تغيير أنفسنا بشكل حقيقي يكون وجودنا بحد ذاته أداة لتغيير الآخرين حتى بدون الحديث معهم "كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم". فالحديث هنا لا يشير إلى الأخلاق والأفعال إنما إلى النفوس التي أصبحت مرآة عاكسة لقوى الروح التي تجتذب الأرواح المتناغمة والمشابهة لها.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، كيف نسعى لتغيير الآخرين ونحن لم نتغير بعد ولم نعرف أنفسنا حق معرفتها..؟ ماذا سنقول لهم ونحن لا نعلم عنها شيئاً، ولم نحط بها خبرا.. لم تكتمل لدينا الصورة الشاملة عن الحياة.. لا زلنا لا نعرف حقيقة الوجود وقصة الخلق الأول.. لا زلنا نتخبط في فهم مقاصد بصائر الوحي.. لا زلنا نعاني من عدم إدراكنا للعديد من الأبعاد الروحية.. ماذا سنقول للناس والآخرين الذين نريد تغييرهم ونحن نجهل أكثر مما نعلم؟ كما جاء في الحديث: "كيف يعرف غيره من يجهل نفسه؟!".

حين نهتم بتغيير أنفسنا.. فإن عمقنا الداخلي سيجذبنا إلى محيطه السحيق، سنجد فرحتنا وأنسنا في الداخل لا في الظهور والشهرة ولا في كثرة المستمعين أو المؤيدين والمتابعين.. سنشعر بحنين للخلوة مع أنفسنا كلما انتزعها منا الآخرين.

ففي أعماقنا سنبصر النور الحقيقي، ستكون لنا قدرة الاختيار والتفريق بين ما هو حقيقي أو زائف.. بين الحق وأشباهه، بين ما ينبغي فعله وما ينبغي تركه.. وإن أذن لنا بأن نُخبر الآخرين بما تعلمناه، حينها سنعلم ما ينبغي قوله لهم.

حين يصفو كدر النفس وتُنسف الحواجز والسدود بينها وبين ذاتنا العليا وتشرق ومضات الروح للخارج سوف نختبر إشارات العلم الحقيقي الذي سيلهمه الله لنا.. ستتفتق عقولنا بوعي آخر لم نعهده سابقاً.. سنعلم حقيقة قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سيعلمنا الله.. نعم سيعلمنا الله بكل ثقة ويقين.. فنتشرب بهذا العلم ونختبره في حياتنا عن قناعة ويقين، وبالتالي فحين نتحدث لا نتحدث كأبواق ناقلة مرددة، بل ننقل حينها تجربتنا الروحية التي لو اجتمع العالم على نكرانها فلا يعول على هذا النكران لأننا اختبرناها بأنفسنا.

خلاصة هذه القاعدة الروحية

الله يريدك أنت..!! يريدك أنت أن تغير ما بنفسك، هذا أعظم عمل ممكن أن تقوم به في حياتك، ولو استغرق تحقيق هذا الهدف جل حياتك فلن تكون هدراً.. الله لا يطالبك بتغيير الآخرين، ما لم يرسل لك إشارة بذلك، هو يريدك أنت أن تتغير.. ينبغي أن نفعل ما يريده الله منا لا ما نريده نحن ونراه صواباً.. السواد الأعظم وقع ضحية الوهم بالتغيير فظنوا أن التغيير بالانفتاح والحرية ومعرفة بعض العلوم من هنا وهناك.. آلاف الدورات والندوات والأمسيات تعقد في العالم الإسلامي والعربي باسم التغيير ولكنه بعيد كل البعد عن التغيير الروحي الحقيقي الذي يرجوه الله منا، فكثير من القائمين عليها لا يعلمون حقيقة أنفسهم ولم يختبروا أبعادها الروحية فكيف يكون بمقدورهم تغيير الآخرين وفي أي بعد سيكون هذا التغيير.

وليت الأمر وقف عند حد المتاجرة بالتغيير وأنهم يقولون ما لا يعلمون، فلقد عمد البعض على تدليس وتشويه المفاهيم الروحية بما لا يليق بنزاهتها وقدسيتها الروحية.. فالسنن والقوانين الكونية، مفهوم الوعي، الله، الحب، الموت، الملائكة.. وغيرها من أمور باتت تباع وتشترى في هذه الندوات والدورات..

حتى ذكر الله أصبح له دورات تجنى من خلالها الأموال.. الملائكة، رسل الخالق للمخلوق باتوا يخضعون ويُسَخرون لأهداف تافهة ووضيعة تصل إلى حد اختيار نوع (الميك أب) الذي يناسب المتصرفة بملائكة المكياج.. قانون الجذب - السحر الباطني - الذي حول الكثيرين إلى أشباه آلهة يعتقدون أنهم

يحققون ما يريدون.. قانون الوفرة جعل من مسرح الحياة ساحة صراع للثراء والبقاء وتكديس للأموال وتحقيق لأمنياتهم المادية..

ننتقد هذه التوجهات لأننا بتنا بين مطرقة تدليس المفاهيم الدينية من قبل رجال الدين، وبين سندان المتاجرة بالمفاهيم الروحية لدى مسوقي ومروجي دورات وأمسيات التنمية البشرية.. لقد وصل الأمر إلى حد لا يطاق من توهين للمفاهيم الروحية والتلاعب بها حتى بات الحمل ثقيلاً على من يريد الوصول إلى الحقيقية. ومع الأسف الشديد يهرول البعض دون وعي وإدراك حقيقي خلف هذه الأمور ودون أن يعي خطورتها في التأثير على أجسام الإنسان الباطنية والروحية.

الله يريدنا أن نكون منارات للوعي.. بمعنى أن تشع هذه المنارة من الداخل لتنير للآخرين طريقهم وترشدهم، وهذا لا يكون إن لم نحقق في أنفسنا هذه القاعدة المهمة ﴿.. يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.. ينبغي أن نتحلى بالصبر أثناء هذا التغيير ونتيقن أن الثبات على تغيير أنفسنا أفضل بكثير من التشتت هنا وهناك، والأخذ من هنا وهناك والاستماع لما قد يناقض بعضه بعضاً.. قلة الصبر والتململ وعدم تحمل النفس والانكفاء على نفسها فترة من الزمن، هو ما يجعل السالك يتعثر في طريقه الروحي.

قاعدة 70 - 30

تقول أن بداية الإنسان في طريقة الروحي، ينبغي أن يكون 70 منه للداخل و30 منه للخارج، وهذه نسبة افتراضية تقيس المستوى الأدنى للداخل، فقد تكون 80-20 ولكن لا ينبغي أن تكون أقل من 70.. أي أن حالة التركيز للداخل في كل ما نقوم به أثناء الحياة سواء في جلساتنا الخاصة كالذكر والصلاة والتأمل والتفكر أو في سائر حركتنا في الواقع الاجتماعي

والعملي ينبغي أن نربطه بذواتنا في الداخل "كن في الناس ولا تكن معهم" مارس حياتك العملية بوعي وتمعن وتركيز واستشعر ما تقوم به بكل جوارحك وحركاتك. فالروحانية لا تعني الانعزال.. وتغيير النفس لا يكون بالانكفاء عليها والانزواء عن الآخرين، بل يعني أن نقوم بكل شيء بوعي وإدراك وربطه بالباطن.

كن أين ما تريد أن تكون.. واعمل ما شئت من عمل ولكن اجعل كل ما تقوم به يُشعرك بهبة الحياة التي منحها الله إياك.. يشعرك بسريان هذه الهبة في جسدك وعقلك وروحك، وأنت تقابله بالشكر والثناء والامتنان.. تخيل نفسك أنك تنتبه لهذا النعمة في اليوم 100 مرة.. أي تنتبه لسريان روح الحياة في جسدك، هذا يعني أنك تنفصل عن الواقع الذي تعيش فيه ودراما الحياة 100 مرة، وهذه الثواني المعدودة في كل مرة تجعل فكرك وعقلك غير متماهي مع الأمور المادية والعملية.. يكون أشبه بحالة انفصال، وهذا يؤدي إلى صقل النفس من الداخل ويفتح لها باباً إلى الملكات الروحية.. هذه الثواني القليلة أشبه بقطرات ماء تنقش الحجر الصلد فتفجره ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء﴾.

يتساءل البعض عن أسباب تعثره في الطريق الروحي وجل حياته يقضيها في الخارج، متنقلاً هنا وهناك.. ويتوهم أن العبادة والروحانية تكمن فقط في أوقات الصلاة والذكر.. في حين أن الله ينبهنا أن حياتنا كلها ينبغي أن تكون لله.. ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ البعض يعتقد أن محياه لله، ولكنه يختار الطريق الأسهل والأيسر والأقرب إلى رغباته النفسية.. أن يكتب كتاباً أو مقالة أسهل بكثير من التأمل والصمت.. أن يرسل نصائح وإرشادات في الواتس أب أسهل بكثير من ساعة يقضيها في الذكر.. أن يقضي

ساعات طويلة في السؤال عن فلان وفلان أسهل بكثير عن أن يتفكر في حقيقة وجوده.. فينصب جل همه للخارج، لأنه يجد نفسه في العالم الخارجي أكثر منه في الداخل.. نفسه تتوق للتعلق بالخارج لأنها تريد أن تعبر عن نفسها للآخرين، تريد للآخرين أن يعرفوها أكثر مما تريد تغيير ذاتها. ولكن "ماذا ينفع لو تذكرك العالم ونسيت نفسك"..

لذلك حين نقرأ قوله تعالى ﴿حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أو حين نعلم أن تغيير الباطن من أهم الأسس الروحية، لا يعني أن نقيم الندوات أو نكتب الكتب حول هذا المفهوم وهذه القاعدة، بل علينا أن نحققها بأنفسنا أولاً.. فنحن غير مطالبين بنشرها ما لم يتجل هذا التغيير فينا..

حين شاءت الاقدار أن تقرأ هذا المقال أو غيره عن تغيير النفس، فلأن الله يريدك أن تتغير، لقد أتاح لك الفرصة وهيئ لك الظروف ليكون هذا المقال أو غيره بين يديك تتمعن فيه وتقرؤه، لا أن تهمل نفسك وتقوم بنقله للآخرين.. الله يريدك أنت..

كثيراً ما أرى أناس يتحدثون ويحاضرون وينصحون الآخرين.. والله يريدهم هم أنفسهم.. يريدهم أن يختبروا حقيقة التغيير الذي سيجعلهم أشبه بالمنارات التي ترشد السفن من بعيد.. منارات تشع مع الداخل ليصل نورها آفاق المحيط.. لا تزال أشعة مناراتهم ضعيفة، يكاد ينفذ شحنها من الداخل، وكلما قوى اتصالهم بالخارج وقويت الأنا وظهرت نوازع الشهرة والمادة كلما ضعف نورها إلى أن يتلاشى.. وصدق أمير المؤمنين حين قال: "من شغل نفسه بغير نفسه تحير في الظلمات، وارتبك في الهلكات".

تفعيل القاعدة

الله يريدك أنت.. يريد أن تكون حركتك في الحياة نابعة من قواك الروحية لا من رغباتك الشخصية، ولن يتحقق هذا إلا حين تركز همتك للداخل وتربط أمور حياتك الخارجية بالداخل.. حين يهبك الله علماً أو معرفة أو يفتح لك باباً من عنده فغص فيه حتى القاع، لا تبقى واقفاً على السطح، فما فتح عليك إلا لأنه يريد منك الدخول، فما سبب وقوفك على الباب؟ ادخل لتكون أداة لغيرك بالدخول.. أن تفكر بغيرك كي تدخله ولم تكن قد دخلته بعد فذلك يعطي الغير نظرة قاصرة وسطحية ولا تعكس حقيقة ما وراء الباب..

حين تصقل نفسك وتتخلص من نوازعها وقواها ستشرق عليها ملكات الروح وستعرف حقيقة ما نقول.. ستكون لك القدرة على تمحيص رغباتك النفسية عن أهدافك الروحية وهذا من أهم الأمور في مسيرة الإنسان الروحية.

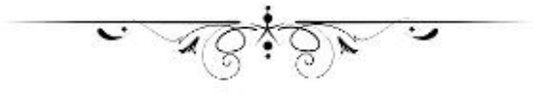

الموت.. انتقال إلى العالم الآخر

أصدق تعبير لكلمة الموت هي "الانتقال" فالموت لا يعني نهاية الإنسان أو فناءه.. إنما هو انتقال من بُعد ومستوى لبُعد ومستوى آخر، ارتحال من العالم الأرضي إلى العالم الروحي أو البرزخي. وبشكل أكثر دقة نقول هو انتقال من مرحلة إلى أخرى، حتى لا يتوهم البعض أن هذا الانتقال سيكون مكانياً أو زمانياً، لأنه يحدث في ذات الزمان والمكان ولكن في مستوى وبُعد روحي آخر. تنتقل فيه الروح بعد أن تفارق الجسد وينقطع اتصالها وتصرفها بآلاته المادية التي كانت تستخدمها قبل موته إلى بيتها الأصلي وموطنها الحقيقي.

في الأحقاب والقرون الماضية كان الإنسان ينظر للموت كحقيقة حتمية لا تحتاج إلى دراسة وبحث وتحليل فهو أمر طبيعي يكتنف عالم الوجود، رؤيته تجاهه مكللة بالأساطير وما تناقلته الألسن إبان العصور القديمة والوسطى. كان يرى أناساً يموتون بالكوارث الطبيعية أو بالأمراض أو بتقدم بالعمر، وكأن ما يحدث لهم أمرٌ طبيعيٌ لا ينبغي التفكير فيه أو بحث حيثياته، أو التفكر في أبعاده، كل ما عليه القيام به أداء الطقوس المطلوبة التي تعمل - كما يعتقد - على سهولة ارتحاله إلى العالم الآخر. ولعل قدماء المصريين كانوا من أكثر المجتمعات التي تركت بصمات تراثية واضحة في حديثها المسهب عن الموت وانتقال الأرواح للعالم الآخر، والتي اقتبست منها - فيما بعد - الفلسفات والديانات الأخرى العديد من الأفكار والتصورات، فما

تزخر به الفلسفات القديمة وحتى اليونانية من الحديث عن الموت تم اقتباسه من الديانة المصرية القديمة أو من الفلسفات الشرقية القديمة.

حتى جاءت الديانات السماوية الإبراهيمية التي بينت الخطوط العامة لظاهرة الموت وما بعده دون أن تفصح عن التفاصيل الدقيقة لهذه الرحلة الأبدية. فلم يكن الوعي البشري حينها قادراً على إماطة اللثام عن الحقيقة الروحية المجردة، ولم يكن بمقدوره استيعاب الومضات العميقة لهذه الرحلة. وبما أن الأنبياء مأمورون ومكلفون بعدم كشف الحقائق للناس أو إعطائهم أية معارف أو معلومات فوق مستواهم وإدراكهم العقلي مما لا يستطيعون استيعابه لأن هذا من شأنه أن ينفرهم من الدين "إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم" فقد تم التطرق للموت بأبسط الأمثلة والنماذج التي تم ذكرها في الكتب المقدسة.

لقد أتهم كثير من الفلاسفة والمفكرين على مر العصور بالجنون والحماقة، ومنهم من قُتل نتيجة تصريحهم بأفكار لم يكن المجتمع قادراً على استيعابها، أفكاراً كانت فوق مستوى وعي المجتمع آنذاك. فالنظرية الذرية التي قال بها "ديموقريطس" قبل ما يقارب من 2350 عام حين قال إن المادة تتكون من ذرات متناهية الصغر وأنها جزء لا يتجزأ من المادة، اتهم حينها بالجنون والمروق عن المتعارف عليه. وحين دعا سقراط الناس للتركيز على الذات وتطويرها فكرياً وحكمياً بدل انصهارها في البعد الحياتي المادي حكم عليه بالموت بتجرع سم الشوكران القاتل. وقس على ذلك العديد من أقوال العلماء والعارفين التي أودت بحياتهم لعدم قبولها من المجتمع.

إلا أن الوعي البشري الذي بدأ يتطور في بدايات القرن الثامن عشر لم يكتف بالمرويات ولم يقف عند حد المدونات

التاريخية والتراثية بل وجد نفسه مندفعاً لكشف أغوار النفس البشرية والقوانين التي تتحكم في سلوكه من جانب والتطلع لفهم أعمق للأساس الكوني والمصدر الأول وتكوين العالم من جانب آخر، والتساؤل عن وجود عوالم أخرى غير مرئية تكون موطناً للأرواح بعد انتقالها للعالم الآخر من جانب ثالث..

لقد أشارت الديانات السماوية إلى وجود العالم الآخر ولكنها لم تفصل في ماهيته وعمقه وشكله ومستوياته وأبعاده وكيفية الانتقال إليه والمراحل التي تمر بها الروح. فالله عزوجل أراد للجنس البشري أن يصل لهذه المعارف حين يتطور روحياً ومعرفياً وعقلياً فيعي عن كثب وعن تجربة حقيقية معالم هذا العالم. الله يريدنا أن نتلمس حقيقة هذا العالم كتجربة شخصية نعيشها "موتوا قبل أن تموتوا" وليست كمعلومات نتداولها أو تنقل إلينا تراثياً.. أن نكون باحثين مدركين متفكرين واعين لا سماعين نقالين مقلدين دون اختبار وإخضاع ما نتعلم للحكمة المتعالية.

ومن هنا بدأ الوعي البشرية يثير لغز الموت من جديد في الذاكرة البشرية ويتساءل عن ماهية هذه الرحلة ومشاعر الموت والانفصال الروحي، وينتقل إلى أعماق النفس البشرية وما يمثله الموت من خوف مستمر وتصدع وقلق وتوجس من ذكر اسمه ناهيك عن البحث في تفاصيله وحيثياته. ومن جانب آخر شرع يبحث عن البدائل التي تبعث مشاعر السلام الداخلي القلبي والوجداني، ومعالجة مواطن التصدع التي قد تحدث نتيجة عدم إلمامنا الكامل بموضوع الموت أو التماهي مع الروايات والأحاديث الموضوعة والمشوهة التي تم إدخالها والترويج لها لسد الثغرات التي سكت عنها المشرع أو التنزيل كما بينا آنفاً..

على الرغم أن كلمة الموت تثير فينا شعوراً سلبياً ملبداً بمجموعة من الهواجس كالخوف والهلع والتوجس من انطفاء شعلة حياتنا في أية لحظة.. فحياتنا معرضة للانتهاء في أية لحظة، وأنفاسنا قد تتوقف في أية لحظة، ورؤيتنا لأحباب نأنس بهم كانوا لبرهة يقفون بالقرب منا قد نراهم ممددين أرضاً بلا حراك. تغير كينونتنا من الوجود إلى العدم يثير فيها الكثير من القلق والتوتر والاضطراب الوجداني، فنحن لا نعلم ما هو شعور الموت وما هي الأحاسيس التي تنتابنا عندما يحين وقته، ومن سأكون بعد الموت؟ أو ما الذي سيتبقى بعد التحرر من الجسد المادي؟ ولأنه تجربة لا يعرفها إلا من يموت ولا يعيشها إلا الأموات، سيبقى سرها دفينا عن الأحياء. فنحن لا يمكننا أن نفهم الموت من خلال رؤيتنا لموت الآخرين، ولا من خلال جمع المعلومات الطبية التي تتكلم عنه، بل ينبغي اختباره كمعرفة شخصية.. على الرغم من كل هذا إلا أن وعينا بحقيقة الموت بمقدوره أن يزيل تلك المخاوف ويجعلنا نتقبله كأية ظاهرة حياتية أخرى.

إذا كان بمقدورنا نزع فتيل الخوف من أعماقنا تجاهه، والتيقن بأن حقيقته مجرد تغيير وانتقال من حال إلى حال.. وأن كل مظاهر الخوف التي تنتابنا مردها لجهلنا بالرحلة الروحية وبخفاياها وما يجري علينا أثناء الموت وبعده - هذا الخوف الذي لا نعرفه إلا إذا جربناه - حينها نخوض تجربة الموت بوعي وإدراك وبصيرة تقل فيها هواجس الخوف التي قد تبقينا فترات طويلة في المستوى الأرضي.

وحتى تحين تلك الساعة التي علمها عند ربي في كتاب ينبغي الاستعداد والتهيؤ لها، أو بالأحرى اختبار - الموت - بإرادتنا قبل أن يباغتنا قهراً. وهذا الاستعداد لا يتعلق بضعفنا تجاهه وإنما للتناغم معه والتواصل بآثاره. فهناك من يداوم في طقوسه

العبادية خوفاً، وهناك من يستعد له كظاهرة تنقله لعالم آخر أكثر بهجة وإشراقة، فيبقى هنا التوجس القلبي لما هم مقبلين عليه وراحلين إليه، هل نرحل إليه بخوف أو بطمأنينة، هل استعدادنا له جعلنا نستبدل خوفنا منه بقبوله وإدراكه ووعيه أم أننا لم نستطع أن نزيل رواسب الخوف من أعماقنا تجاهه. وبالتالي فالاستعداد لا لتجنبه وتحاشيه بل للتماهي معه وقبوله.

كل لحظة يعيشها الإنسان تنقص من عمره.. بمعنى أن الروح حين وفدت إلى الأرض وهبت قدراً محدداً من الحيوية الأرضية، أو إن شئت أن تقول الطاقة التي بمقدورها أن تحرك الجسد، وحين تنتهي هذه الحيوية تحدث الوفاة، وبالتالي فإن هذه الحيوية تبدأ في حساب الوقت منذ الولادة، وتبدأ في التناقص مع الزمن. فكل يوم يقضيه الإنسان في الحياة يزداد عمراً في وجوده ولكنه في الوقت نفسه ينقص من معدل طاقته الحيوية. كالعربة التي تقطع المسافات ولكنها في الوقت نفسه تفقد الوقود. وكلما شب وكبر كلما بدأت شخصيته تثبت وتتألق وتصل إلى أعلى درجاتها كلما اقترب أكثر من الموت والانتقال.

فالموت نهاية كل حي على هذه الأرض، وهو سنة من سنن الله في الحياة، ليس فيها استثناء لأحد ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ مطلق لفظ الموت على الأحياء لبيان حتمية الموت ووجوبه على الجميع ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. وهو الشيء الوحيد الذي لا يمكن لآخر أن يؤديه نيابة عن آخر، وكما قال أحد الحكماء: "ما أن يأتي الإنسان إلى الحياة حتى يصبح شيخاً هرماً ناضجاً للموت".

والموت.. ليس له وقت محدد يستطيع الإنسان التنبؤ به، فالأعمار تتفاوت حسب الآجال، والآجال غيب لا يعلمه إلا الله ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، فالله وحده

هو الذي يعلم موعده ومكانه والحالة التي يحدث فيها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، كما أن أجل الإنسان هو السبب الوحيد للموت ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾، فالموت قد يدرك الحيوان المنوي كما يدرك البويضة.. ويدرك الجنين وهو مازال علقة أو مضغة مخلقة، وقد يدركه قبل أن تنفخ في الروح وبعد أن تنفخ فيه الروح، قبل الولادة وبعد الولادة، لا يفلت من الموت رضيع ولا صبية ولا فتيان ولا شباب لا كهول ولا شيوخ ذكوراً كانوا أم إناثاً. فمهما طال عمر الإنسان فالموت نهاية لا مفر منها، أو كما عبر عنه نوم لا يقظة بعده.

أما الأمراض والحوادث التي تنتهي بالموت فهي حالات قد يحدث فيها الموت أو لا يحدث، فكم من حادث مروع يموت فيه أفراد ولا يموت آخرون يصيبهم نفس الحادث. يسقط شخص من الأدوار العليا في إحدى البنايات ولا يموت، وكم من مريض أجمع الأطباء على عدم الجدوى من علاجه وعلى أن حياته ستنتهي خلال ساعات أو أيام ويفاجأ الجميع بشفائه وعودته إلى كامل صحته وعافيته، وكم من صحيح البدن معافى يمارس أمور حياته بشكل طبيعي دون معوقات، ولكنه يسقط ميتاً فجأة بدون مقدمات رغم سابق حكم الأطباء عليه بتمام الصحة وكامل العافية والخلو من الأمراض.

فلحظة الموت لا ترتبط بمكان ولا بزمان ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ ومهما حاول الإنسان الهرب بالسفر إلى أقصى الأرض أو بالعلاج أو بالغذاء والممارسات الطبية فليس له مهرب ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ﴾ في أي مكان وفي أي زمان وتحت أي ظرف كان، فكل ذلك غيب من علم الله، ولن ينتظر الموت استجابة لرجاء ولا يتأخر إجابة لدعاء ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا﴾.

والحقيقة التي لا مفر منها أن الموت واحد، وأن سببه واحد، وهذا السبب هو انتهاء أجل الإنسان في رحلته الدنيوية، والاستعداد للدخول في المرحلة التي تليها.. فالموت في انتظارنا وهو ملاقينا في موعد محدد حسب الأجل الذي خصصه الله لنا والذي لا يتأخر ولا يتقدم عن موعده ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

نسيانه والخوف منه

لأن الموت من الأمور التي تمثل للإنسان نهاية من العدم، وبما فيه من منغصات وآلام فقد عجز عن حلها منذ آلاف السنين فقد تشكل وعياً جمعياً يهدف إلى تناسيه بشتى الطرق والوسائل، فوجد أن أنجع طريقة للتخلص من الموت هو بنسيانه أو عدم التفكير به. لذلك بمجرد أن تنتهي فورة الحداد لموت قريب أو صديق أو بمجرد خروجنا من المقابر تنطوي صفحة الموت من ذاكرتنا..

وكأن خوفنا منه يخلق فينا آلية النسيان بمستواها الفردي والجمعي. ولكن لماذا كل هذا الخوف والخشية منه؟ لماذا يكره بعضنا الموت ويتحاشاه؟ هل لأنه يحب البقاء؟ هل لأن الموت نهاية المطاف؟ هل لأنه يخشى ظلمة القبر وعذابه؟ أم يخاف المجهول وبلائه؟

إن هذه الأسئلة وغيرها تصلح لتكون سبباً لخشية وخوف الإنسان من الموت. في حين أن العقيدة الحقة تنظر إلى الموت كنعمة وليس نقمة.. تطور وارتقاء لا عذاب وانحطاط..

فالموت كالمرض، فحين لا ندرك معنى المرض نرتعب منه ونخاف من الإصابة به، بينما لو عرفناه وأدركناه لشكرناه على تنبيهه وعلى الآلام التي يسببها لنا. وخوفنا من الموت يأتي لذات السبب، أننا لم ندركه ولم نعرفه، فيبقى هو من يدركنا ويلاحقنا من جانب واحد فقط..

إن خوفنا من الموت مؤشر قوي على أننا لم ندرك حقيقته كسنة إلهية في الخلق، وإنما انصب اهتمامنا على متعلقاته كالمعاناة والألم، غربة القبر، العذاب المنتظر، فراق الأحبة والأهل، ترك الدور والقصور، وكل هذه المخاوف أوهام جهل لا تمت لحقيقة الموت بصلة.

فالخوف والفزع يكمن في مفهومنا عن الموت، وليس لذات الموت، خوف من المجهول والمرحلة اللاحقة التي سوف يخوضها، والتي عمدت بعض الثقافات على زيادة جرعة التوجس والالم والوعيد طمعاً منها في تحسين سلوك الإنسان واكتسابه الحكمة من وجوده الأرضي، ولكنها جعلته يعيش في ترقب مستمر للوعيد والعذاب الآجل.

وهذا الخوف أخذ أبعاداً غاية في العمق والمأساوية والألم في فترات تاريخية مختلفة وعلى الخصوص حين عمت فكرة الخطيئة الأولى في العهد الجديد والتي اتخذتها المسيحية ذريعة لتخويف الناس وإفزاعهم وترهيبهم، ونقلت لهم صوراً شنيعة من العذاب وأصنافاً متنوعة من التعذيب التي لم يأت ذكرها على لسان السيد المسيح. ومن هنا راجت تجارة صكوك الغفران من جانب وطقوس التطهير البدني من جانب آخر، فابتدعت الكنائس ضرب الجسد بالسلاسل الحادة، وإدماء الرأس، والتشبه بصلب المسيح بتسمير الأيدي والأرجل، والمشي حفاة على الأشواك لمسافات طويلة وغيرها من بدع كثيرة..

لقد تحول الخوف إلى وعي جمعي وطقوس تطهير سرية إبان عصور الظلام وأيام محاكم التفتيش في أوروبا.. الرعب الأخروي الذي أكسب الكنيسة سلطة سياسية وثروة مالية من خلال تجارتها في بيع صكوك الغفران.

لذلك ينبغي للإنسان الواعي أن لا يخاف الموت ويعتبره من الأشياء الطبيعية والحتمية للوجود الإنساني، فالمؤمن الواعي الذي ألف التفكير والتعقل لا يجزع من الموت ولا يبتئس له، ولا ينفر منه، ولا يزدريه، بل ينتظره كما ينتظر فعلاً من الأفعال الطبيعية.

فإذا عرفت حقيقة الموت، وما يجري بعده، وأعدت عدتك للقائه، وعرفت موقعك من ذلك العالم، فسوف تشتاق إليه بصورة لم تعهدها من قبل، كتلك الصورة التي كان ينظر بها أولياء الله وأحباؤه المؤمنين.

دخل بكل هدوء وسكينة إلى محل الحانوتي وسأل الرجل المسئول عن تجهيز الموتى وتكفينهم: "سيدي بكم تجهزون الميت وتدفنوه؟" التفت إليه الرجل الذي كان منشغلاً بتفصيل وقص الأكفان، وقال: "نقوم بعمل كل شيء بعشرة دراهم".. سأله مرة أخرى:" وإذا كان الميت مغتسلاً فبكم تكفنوه وتدفنوه؟".. التفت إليه الرجل في ضيق من سؤاله الغريب وقال: "بسبعة دراهم!!" ثم أشاح بوجهه عنه وعاد إلى عمله، وحين أنهى ما كان يقوم به التفت خلفه وإذا به يرى الرجل الذي سأله ممدداً في المكان المخصص لتكفين الموتى، فصاح به: "لم أنت نائم هنا؟" فلم يجبه، أعاد عليه الكرة مرة أخرى، فلم يجبه.. حركه بيده وإذا به قد أسلم روحه لله وفارق الحياة، وقد وضع سبعة دراهم بالقرب من رأسه ثمن تكفينه ودفنه.

فلولا سنة الموت لخلد الإنسان، وخلود الإنسان يعني طغيانه وبغيه وتجبره، فقهره الله بالموت والفناء ليشعره بالعبودية والحاجة إليه، فكلما أحس بقوته وقدرته تذكر نهايته في هذه الأرض وقد توسد التراب.. ذاب غروره وتلاشت قوته وانكسرت شوكته فعاش كما يجب أن يعيش.

ولولا الموت لما فكر الإنسان بروحه وعالمه المثالي البرزخي، وهو عالم أرقى بكثير من عالمنا المادي، فحياته الخالدة على الأرض تجعله يعمر الدنيا وينسى روحه التي هي أحوج ما تكون إلى العمار..

فإذا كانت الدنيا قنطرة وجسر إلى العالم الآخر.. عالم البرزخ والقيامة، فلماذا الخوف من لحظة الانتقال.. وإذا كانت الحياة الحقيقية النورانية تبدأ بعد انفصال النفس والروح عن البدن فلماذا أضحى الموت دلالة على الفناء؟ قد تحلم ذات يوم برؤية جميلة ترى فيها نفسك بين الجنان قد أحاطت بك الأزهار وغلبت عليك الروائح العطرة والمناظر الجميلة.. ألا تنزعج عندما تستيقظ من نومك وتتمنى لو كنت مستغرقاً في عالمك الآخر.. إن ما حدث هو انفصال نفسك عن جسمك لحظة حلقت فيها إلى عالمك المثالي وشاهدت تلك الرؤية الجميلة.. فكيف بك لو انفصلت كليا عن بدنك وحلقت بروحك ونفسك وعقلك إلى عالم الأرواح والأنوار.

الحياة والموت ثنائي يكمل أحدهما الآخر، ولا ينهي أحدهما الآخر.

فكلما ازداد الإنسان نضجاً ووعياً كلما تعمق في ذاته أكثر، حتى يبلغ مرحلة المعرفة وعندها يدرك حقيقة روحة الخالدة، فيختفي لديه ألم الموت ويصبح الموت بنظره أحلى من العسل فلا يبالي إن وقع على الموت أم وقع الموت عليه، كما قال علي الأكبر لأبيه الحسين (ع).

يعتقد البعض أننا كلما تقدمنا في العمر وكبرنا كلما اقتربنا من الموت أكثر، صحيح أن الجسم يشيخ ويكبر بتقادم الزمن وقد يفنى في أي وقت، إلا أن النفس الواعية الناضجة المؤمنة تهرب من الموت (الجسماني) إلى الحياة الآخرة الروحية المبهجة، وتراقب فترة الانتقال بوعي واستعداد وبصيرة.

إن مخاض الولادة ورهبته بالنسبة للطفل - بما يحمله معنى دخول عالم جديد وغريب - أكثر بكثير مما يلاقيه المحتضر حال الوفاة، فالطفل يدخل عالماً مادياً ضيقاً يتعامل من خلاله بأجهزة حس جديدة لم يعهدها من قبل، بينما المرتحل عن عالم الدنيا يعود إلى موطنه الروحي الحقيقي. هنا يجد من يفهمه دون أن يتكلم، بينما هناك يستخدم كل وسائله ليعبر عن حاجته. هنا ينتقل من المحدود والنسبي إلى حيث اللامحدود، بينما هناك يكبل ويحبس بأغلال الجسد..

ولادة جديدة

الموت أشبه بولادة جديدة في عالم البرزخ، فحين يتخلص الإنسان من لباسه المادي ينتقل إلى بعد آخر موازي، ولا يعني هذا الانتقال نهايته أو فناءه، وإنما انتقال إلى مرحلة أخرى من المستويات، فكما أن ولادة الجنين تكتمل عند قطع الحبل السري، كذلك تبدأ ولادة الإنسان الجديدة في عالمه الجديد عند انقطاع الحبل السري الروحي، فتنقطع صلة الإنسان بالجسد والعالم المادي، مثلما ينقطع الجنين عن عالم الأرحام.

لذلك فهناك أوجه شبه كبيرة بين الولادتين الدنيوية والبرزخية منها:

1- يخرج الإنسان من كلا الولادتين عريانا في شبه غيبوبة، صارخاً، باكياً، مندهشاً من العالم الجديد الذي يدخل فيه.

2- يخرج الإنسان من كلا الولادتين إلى فسحة أوسع، ومكان أرحب، مما كان عليه قبل الولادة، وهذا يرجع إلى قانون التطور الروحي والارتقاء النفسي.

3- يولد الإنسان في كلا الحالتين ويكون رأسه في المقدمة وقدماه في المؤخرة، فالجنين يخرج من رأسه وكذلك الإنسان

عندما تخرج روحه، فإنها تخرج من الرأس والجبين وما بين العينين، وأول ما يخرج هو رأس الجسم المثالي ثم بقية الأجزاء.

4- إن الوقت الذي تحدث فيه عملية الولادة، في كلا الحالتين يكون مشابهاً إلى حد كبير، فعادة ما تحدث الولادة الدنيوية في الوقت الذي تكون الأم في أكثر الأوقات استرخاء، إذ المعروف أنها تصل إلى الحد الأدنى قبيل الفجر، فتكون الدورة اليومية للطاقة قد وصلت لأقل منسوب لها، لذلك تحدث حالات الولادة في هذه الفترة ضعف الحالات التي تحدث وقت الظهيرة.

وفي هذه الفترة أيضاً تحدث أكثر حالات الوفاة الطبيعية، فهي أفضل فترة لخروج الجسم البرزخي، وانفصاله عن الجسد المادي وولادته برزخياً.

5- يغسل الجنين الخارج من الرحم بالماء الدافئ، لإزالة ما تبقى من الدم والكدورات والأوساخ العالقة، كذلك يغسل المنتقل مما علق عليه من أوساخ مادية، وكثافات أرضية قبل دفنه.

يأنس البعض بذكر الموت ويترقب قدومه بفارغ الصبر، وقد يدعو لنفسه بتعجيل انتقاله إلى العالم الآخر، ليس هروباً من الدنيا ومشاكلها، ولا تعاسة من إحباط خدعها وأباطيلها، بل شوقاً للعالم الآخر، وثقة بالمضيف، وتجلي وضوح المرحلة الجديدة التي تلمس أهميتها ورغبة ولوجها قبل أن يحين موعدها.. فكشف له الغطاء وهو في عالم الدنيا لأنه وطن نفسه لمعرفة حقيقة ذاته وكشف أسرارها.

ولكن الأنس بالموت لا يتوفر لعامة الناس لعدم اهتمامهم بهذا المفهوم ومعرفة خفاياه، لأنهم أدركوا متعلقات الموت من

قبر، وبكاء، تراب، ووحشة، وظلمة، وعذاب.. الخ، فأصبح رعباً مستحكماً ومصيراً معتماً، ونهاية مأساوية لابد من المرور بها، فما يبقى للفكر والإدراك إذا كان سوط واحد في القبر يشعل القبر إلى يوم القيامة.. وماذا تركنا لرحمة الله التي وسعت كل شيء ونحن نأنس مع عقربٍ أو حية بحجم الجبال تهجم علينا في ظلمة القبر..!

لزوم الانتقال الواعي

هناك قاعدة مهمة في العلوم الروحية تتعلق بالانتقال للعالم الآخر ينبغي إدراكها جيداً تقول: "حين نرتحل سترتحل معنا حالة الوعي التي كنا نعيشها في الدنيا" أي أننا سنجد أنفسنا بعد الرحيل بنفس مستوى الوعي الذي كان يخالجنا في الحياة. حين نكون في مستوى عقلي، إيماني، نفسي، روحي معين فإننا سننجذب لنفس هذا المستوى بعد الموت. ومن هنا جاءت مقولة "من لم يعش الجنة في الدنيا لا يعشها في الآخرة" وما حديث "موتوا قبل أن تموتوا" إلا لاستطلاع تلك الحياة التي سننتقل إليها.

لذلك فذوي النزعة المادية ينسحبون للمستوى المتدني من عالم البرزخ، وقد يطول بقاؤهم فيه فترات طويلة إلى حين انقشاعها منهم فينتقلون لمستوى آخر.

لذلك بدل الهروب من ألم الموت، والجزع من ذكره، والرعب من متعلقاته ينبغي أن نركز على وعينا الذي سوف ينتقل معنا للعالم الآخر. نحدد مكاننا الذي سننتقل إليه، والمستوى الذي سيجذبنا إليه. فالعالم الآخر ليس عشوائياً أو جزافياً إنما تحكمه قوانين ونواميس كما تحكم حياتنا المادية. صحيح أن الأرواح

ستنتقل في نهاية الأمر إلى موطنها الأصلي الذي هاجرت منه، ولكنها ستمكث قبل ذلك في مستوى الوعي الذي خرجت به من الدنيا.

ولكن ما أهم الأمور التي ينبغي أن ندعم فيها وعينا ونهيئ بها لباب عقولنا كي نحظى برحلة آمنة مستقرة هانئة غير مضطربة؟

كل ما ذكرناه في الأجزاء الثلاث من كتاب اليقظة الروحية يؤهلنا لرحلة أكثر أماناً، لأننا سنكتشف أثناء وجودنا الأرضي لذيذ العمق الروحي في ذلك العالم، فحين تكون لنا قدم هنا وقدم هناك، سنتعرف مبدئياً على مفردات ذلك العالم، وسنعلم محط رحالنا وعلة سيناريو الخلق الذي يجعل لنا بصيرة نافذة في الحياة.

لذلك فالرحلة الواعية والمثمرة لا تكون إلا من خلال يقظة روحية تشمل كافة أبعاد حياتنا.. نحن نخاف من الموت ونرتعب من ذكره ولكننا لا نعمل بجد لرحلتنا، لا نجهز زاد سفرنا، ولا نهيئ أنفسنا لخوض غمار هذه الرحلة. حتى أننا تجاهلنا ما وهبه الله لنا من ملكات روحية وقدرات باطنية من شأنها أن تحرك تفكيرنا تجاه الأبعاد الروحية لنستعلم بعض خفايا وأسرار هذه الرحلة.

ما أكثر الأحاديث التي تذكرنا بالموت ليس لترهيبنا به وإنما لنخلق الحاجة ونشعل الشرارة التي تدفعنا لمعرفته والتعمق فيه أكثر، فلا شيء يؤتى أكله ما لم نستشعر حاجته.. حتى حواسنا المادية الخمس قد تتعطل حين لا نشعر بأهميتها وحاجتنا لها..

لقد تجاهلنا كل حواسنا الباطنية التي من شأنها أن تحرك المياه الراكدة فينا تجاه معرفة رحلة ما بعد الموت.

كثيراً منا لا يشعر بحاجته للتحرك نحو الباطن فتضمر حواسه الباطنية المكلفة بهذا الدور، بينما حين تكون الحاجة ملحة ومهمة فسوف تنشط لمعرفة أسرار العالم الآخر عبر الولوج في الباطن.

لذا بمجرد أن تشعر.. ترغب.. تريد أن تتحرك للباطن تبدأ حواسك الباطنية في نفض الغبار المتراكم عنها، وتتخلص من التكلس الذي شل حركتها سنين طويلة من الزمن، وتبدأ بالعمل شيئاً فشيئاً. لقد بقيت هذه الحواس سنيناً طويلة في حالة كمون وحتى تستيقظ من جديد بحاجة إلى وقت قد يقصر عند البعض وقد يطول عند البعض الآخر.

حين نخلق الحاجة العميقة، والرغبة الملحة، والمثابرة الجادة، وسوف تستيقظ من سباتها. ويعتبر تأمل الموت من أهم الأمور التي تحرك وتثير وتنشط حواسنا الباطنية وتحفزها للعمل لكشف أسراره وخفاياه. فالموت يأخذك نحو الداخل والعمق الروحي.

ولنتأمل هذه المعادلة:

الدين يذكرك بالموت، والموت يأخذك للداخل، والداخل يربطك بالكون وبخالق الكون. لذلك فالحيوانات ليس لها دين، فهي لا تعي حقيقة الموت، تدرك الموت حين يحدث للآخرين فقط، لا تدرك أنه قد يصيبها في يوم ما، فإذا كان الإنسان يفكر على هذا النحو، بحيث يشعر أن الموت يحدث للآخرين فقط، وأنه لن يطرق بابه يوماً فإن تفكيره ذا صبغة غير إنسانية..

إذا لم تكن واعياً للموت، لن تصبح إنساناً بعد.. إنه الفارق الرئيسي بين الحيوان والإنسان، فالإنسان وحده يمكن أن يصبح واعياً للموت، الإنسان وحده يبدع ويخلق الحاجة للتحرك للباطن. ذكر الموت يولد قوة جذب عالية تجذبك للداخل.

حين نعي حقيقة الموت فإن كل تصرفاتنا وسلوكياتنا في الحياة سوف تتغير، في أكلنا وشربنا وممتلكاتنا وتعاملنا مع الآخرين، في مشترياتنا وأموالنا وخلافاتنا وحروبنا وأحزاننا..

حين يأخذنا الموت إلى الباطن تتغير نظرتنا للحياة، نرى أن هذه التفاهات التي نسايرها لا تساوي جناح بعوضه مما يوجد في أعماقنا حين نقترب من ذاتنا الحقيقية.

قد يداهما الموت في أية لحظة.. قد يكون بالثانية التالية من قراءة هذه السطور. ولكن العقل لا يصدق ذلك، نحن نقول ذلك، وعقلك يقول: "لا كيف يمكن أن يحدث باللحظة التالية؟ إنه بعيد جداً فلا زلت شاباً لا زلت في صحة جيدة". ولكنها حيل مخادعة، إذا أجلت ذلك، لن تتمكن من التأمل فيه، فلكي تكون واعياً للموت عليك أن تتذكر أنه قريب منك، قد يحدث باللحظة القادمة، اجتهد أن تجعله قريباً جداً، ولا تخف منه، وتتوجس من ذكر اسمه، فالتركيز عليه يساعد على اختراقه وتبدد مخاوفك منه.

حين تجعل الموت جزءاً من الحياة، وتدرك أن هناك عالما آخر سترتحل إليه، فإن هذا سيخلق فيك الرغبة في البحث عن التصور الحقيقي للحياة، ستكون لك نظرة شمولية لحياتك.. قد تجتهد فيها أكثر فتحولها من مجرد لهو ولعب وزينة وتفاخر إلى حياة ذات قيمة حقيقية. وفي اللحظة التي تدرك

فيها حقيقة الحياة تكون قد غصت بأعماق نفسك، فلا حقيقة دون الغوص في أعماق النفس، حيث منطقة الوعي والعلم الحقيقي والحب الأبدي الخالد.

حين نكون واعين منتبهين يقظين فإن رحلة الموت تتحول إلى مجرد انتقال لمكان لطالما عرفناه وزرناه سابقاً، وهذا ما يعرف بالارتحال اليقظ والواعي، لذلك نسمع عن سيرة بعض الصالحين والعلماء تحديد ومعرفة ساعة وفاتهم وارتحالهم، لوضوح الرؤية لديهم ولشعورهم بقوة جذب المكان الذي سيرتحلون إليه لقوة علاقتهم به.

حين نختبر الموت قبل أن يحين موعده ونسبقه قبل أن يسبقنا، نرتحل إليه قبل أن يسوقنا إليه قسراً، نرى موقعنا في ذلك العالم قبل أن نغادر أجسادنا.. حين نكون يقظين في حياتنا وأحياء حقيقيين وليس مجرد هياكل بشرية تمرح في الأرض، سوف تتلاشى كل مظاهر الخوف والهلع والتوجس من ذكر الموت. كما جاء في الحديث: "استهينوا بالموت فإن مرارته في خوفه".. فالخوف هو المعضلة الحقيقية من الموت لا واقع عملية الارتحال إلى العالم الآخر.

بالتأكيد يخاف البعض حين يذهب لمكان لا يعرفه، ولم يدخله قط في حياته، سيصاب بالهلع لأنه لا يعلم ما يكتنف هذا المجهول، ولكن يتبدد هذا الخوف حين نعلم خلفياته وما يكتنفه من غموض. ولأننا نعيش حياتنا في أبعاد مادية، ولم نتحرر بعد من قيود المادة، فإننا نخاف ونخشى ما وراء هذه المادة. وبدلاً من أن تحثنا الأحاديث الداعية للتفكر بالموت أصبحت تشكل هاجساً ورعباً يتغلغل في عقولنا وأفكارنا، حتى أضحت جل أعمالنا للخلاص من سيناريوهات ما بعد الموت وليس حباً لله سبحانه وتعالى.

حين نقترب من فكرة الموت ونعي حقيقته سنعلم أن كثيراً مما نقرأه عبارة عن أدوات ترغيبية أو وسائل ترهيبية لكي يؤمن الإنسان أن ثمة أمر آخر خلف هذا الغلاف المادي، وتبقى أنت المكلف الأول والأخير لاكتشاف ومعرفة هذا الأمر.

فحين يسألك ابنك: أين الله يا أبي؟ ستجيبه: بأنه في السماء، فالابن لا يستطيع أن يفهم أو يدرك البعد الروحي العميق، وليس بمقدوره أن يفهم أكثر من هذه الإجابة، ولكن حين يصبح شاباً سيدرك أن الله في كل مكان ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ الطفل لا يستطيع أن يدرك هذه الأبعاد بعد.. فنقول له: إن الله في السماء، وهي إجابة ليست بخاطئة بالنسبة لطفل صغير، ولكنها لا تنفع إجابة لمراهق أو لرجل كبير واع، فحين يصل مبلغ الرجال أو الحكمة سيعلم أن الله وآثاره في كل شيء، ليس فقط في الاتجاهات الأربعة وإنما آثاره تظهر في الموجودات أيضاً كما قال أمير المؤمنين (ع):"ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله بعده وقبله وفيه".

فمعرفتنا للشيء تتطور مع مقدار وعينا وإدراكنا له، حتى يصل وعينا إلى إدراك الأمور والحقائق كما هي بذاتها، كما جاء في دعاء النبي (ﷺ): "اللهم أرني الأشياء على حقيقتها" بمعنى: ألهمني وزودني يا رب بأرقى وأكمل حالة من الوعي لكي أدرك الأشياء كما هي على حقيقتها، لا كما أراها أو يراها غيري. وقس على ذلك كل ما يتعلق بأحاديث القبر والعذاب والجنة والنار وما أشبه، والتي يرتبط فهمها بوعي وتجربة الإنسان الروحية الذاتية.

صحيح أن النفس البشرية تهاب المجهول وتخشى ما لا تعلم، ولكن حين ينكشف بصيصاً من هذا المجهول سيتلاشى الخوف حتماً، حين تسمع كلاماً مرعباً عن مكان ما سيخالجك الخوف

في بادئ الأمر حين تذهب إليه، لأن وعيك مليء بأفكار الخوف التي ترسخت نتيجة كلام وبرمجة الآخرين. ولكن حين تذهب إليه وتجد أن الأمر طبيعيٌ لا يتطلب كل هذا الهلع والخوف فإن زيارتك الثانية لنفس المكان تكون أكثر أماناً وطمأنينة، لأنك تعتمد (الآن) على تجربتك الشخصية، لقد تلاشت أقوال الناس من عقلك، وترسخت تجربتك الشخصية أنت.. وعلى هذا الأساس يقوم الدين الحق، يقوم على تجربتك الشخصية أنت بذاتك، وهذا هو هدف الحياة المادية، وهو كيف تختبر الأبعاد الروحية وأنت في هذا الغلاف المادي، وتجربتك الشخصية هي الحق الذي ينبغي أن تعتمد عليه لا على ما تسمع أو تقرأ، فكثيراً من هذه الأمور لها أهداف ابتدائية وتمهيديه كي تنقلنا إلى مراحل أخرى أكثر وعياً.

المعادلة الروحية تقول: أن الدين يؤكد على فكرة الموت لكي ينقلك إلى الداخل، ووجودك في الداخل سيغير نمط حياتك الذي تعيشه، لأنه سيعرفك أن هناك أبعاداً أخرى للحياة، ومن هذه الأبعاد وجود قوة عليا تحكم وتتحكم في كل شيء، وهي قوة الخالق جل وعلا.. وهنا تكون شاهدا وشهيداً وفي تماس مع تلك القوة الإلهية، تشعر فيها بفيض المحبة، وترتشف من عين السلسبيل، وتغتسل بماء الرحمة، وتتوسد إستبرق الكرامة، وتكون من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

من يخشى ذكر الموت لا يريد أن يتعمق في باطنه.. يخشى مواجهة ذاته، يخاف الحقيقة.. لذلك يبقى في الحياة أسيراً لحواسه الخمسة فقط، جزء من المنظومة الخارجية، مكبلا بقيود المادة، في حين أن وعي الموت يفتح لنا آفاقاً واسعة ستغير من معالم حياتنا حتماً. فالموت طريقنا للباطن..

نرجع للسؤال الذي طرحناه حول كيف تكون رحلتنا الأخروية آمنه ومثمرة.. بالإضافة إلى كل ما ذكرناه في كل أجزاء اليقظة الروحية من ضرورة القلب السليم والثقة بالمضيف واختبار حقيقة الموت وتبني منهج الذكر بكل أبعاده ومستوياته والتفكر في أصل الخلق والتمسك بينابيع النور وإرشادهم من أنبياء وأولياء وصديقين والتوبة والإنابة وتحويل العبادات إلى صلات تربطك بالله عز وجل نبين بعض النقاط المهمة عسى أن تنفعنا وينتفع بها الإخوة القراء:

1- افهم حياتك

قبل أن تفهم حياتك الأخروية لابد أن تفهم حياتك الدنيوية. ينبغي أن تدرك سبب وجودك؟ خلقك؟ غايتك؟ كيف تفكر؟ كيف تتعامل مع الآخرين؟ كيف تنظر إلى الحياة؟

مشكلة الكثير منا أنه لا يعي حقيقة الحياة، قد يصل إلى سن الستين والسبعين وهو يجهل سبب وجوده وسعيه.

يقال إن هناك نوعين من النظر إلى المرآة. نظر استقلالي ونظر مرآتي، النظر الاستقلالي هو أن ينظر الإنسان إلى المرآة من حيث ذاتها، كأن يريد أن يشتريها مثلاً، فهو ينظر إلى مساحتها وجودتها وموديلها وغير ذلك، أما النظر المرآتي فهو أن ينظر إلى المرآة ليرى فيها صورته ولا علاقة له بنفس المرآة.

فإذا نظرت إلى الحياة بالنظر الأول أي النظر إلى ذاتها فقط.. فإنك ستكون من الخاسرين الذين يجهلون حتى أنفسهم وعلة وجودهم. أما لو نظرت النظرة الثانية وهي نظرة الحكمة والبصيرة، تنظر إليها على أنها وسيلة إلى المعرفة والوصول إلى مرتبة الإنسانية والآدمية فسوف تعينك الدنيا وتبصرك وترشدك إلى درجات الكمال. ولكن من ينظر إليها نظر العاشق لها ويريدها وقد اتخذها هدفاً له وجعل همه الوصول إلى

الأمور المادية فسوف تعميه عن رؤية الحقائق والواقعيات وتؤدي إلى إضلاله وإماتة قلبه.

استفد من كل حياتك، واجعل كل حركاتك مرآة تنظر فيها إلى هدفك الأساسي، إلى ملكوت الله. صحيح إن أكثر الناس أحياء ولكنهم أموات في نفس الوقت بانتظار يوم الدفن، هؤلاء الذين يعيشون في الدنيا ولكنهم ليسوا منها، فهم ينظرون (بها) وليس (إليها) والموت ليس الخسارة الكبرى، لكن الخسارة الكبرى هو ما يموت فينا ونحن أحياء، فالحياة فينا تموت منذ لحظة ولادتنا، وتستمر حتى النفس الأخير، لا تفرح بعدد السنين، فالعمر عدة وليس عدداً، فأنت الساكن وليس السكن.

لقد جاءت رسالات السماء لتؤكد على جوهر الإنسان، وليس على جسده وهيئته وهندامه، والآية الكريمة تؤكد هذا المعنى ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

فغاية الإنسان لهى الدار الآخرة، من خلال صقل جوهره وترقي روحه، ونصيب الإنسان من الدنيا إنما لتحقيق غاية الآخرة، وليس للتمتع واللهو والانغماس في الملذات الدنيوية، وتحقيق الغايات الجسدية.

وما مرحلة ولوج الروح في الجسد ثم خروجها منه، إلا مرحلة انتقالية اختبارية، تكمن علتها الحقيقية في إعطاء الروح فرصة للتكامل والسمو، وتجسيد معنى الآدمية ومفهوم الإنسانية، ومن ثم تنـزع لباس العناصر المادية لتحلق عالياً في عالم تجد فيه لذتها، وأنسها الحقيقي، الذي لا يعتريه التبدل ولا التغير.

والغفلة عن حقيقة البعد الروحي وفهم الحياة على حقيقتها، والاهتمام بالوعاء المادي دون الجوهر، من أشد حالات الزيغ على بني البشر، لأن من يجهل بدايته يجهل نهايته، ومن يجهل

نهايته ينتفي عنده مفهوم الهدفية والغاية، وبالتالي يكون فاقداً للهوية.. هوية روحه.

قد تسمع عن قصة رجل رزق بمولود، أحبه ورباه وترعرع في حضنه، وسد حاجياته المادية والمعنوية، وكان كل شيء في حياته، وبعد أن شب وكبر، أخذه وقتله.

أو تسمع عن قصة رجل أمضى جل حياته يعمل ليله ونهاره لجمع المال، وبعد أن جمع ثروة كبيرة وضعها في صندوق كبير وألقاها في النهر.

ماذا نقول عن هذين الرجلين؟ أقل ما يمكن أن يقال فيهما، أنهما مغفلان أو مجنونان أو غبيان، فكيف يقتل الرجل ابنه بعد أن رباه وتعب عليه، وكيف يتخلص الرجل من ثروته، بعد أن أمضى حياته تعباً في جمعها.

ولكن أتعلم من هو أكثر غباءً، وأشد جنوناً، وأكثر أهل الأرض غفلة؟ هو ذلك الرجل الذي يقول له ربه: إنك روح، ويقول له: إني جسد، يقول له ربه: الدنيا دار فناء وانتقال وزوال ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.. فيجيبه: بل دار بقاء وخلود ﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ يقول له ربه: لك فترة قصيرة محدودة، فارتق بروحك إلى كمالها الإنساني واستفد من طاقاتك ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.. فيغرس فيها بعد طول التعب والنصب، أبشع صفاتها الحيوانية ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ إن هذا والله لأشد جنوناً وغفلةً وغباءً من قاتل ولده ومضيع ثروته.

فالنفس تأتي لهذا العالم شبه عابرة سبيل، أو كضيف في دار، وتتخذ من هذا العالم الدنيوي معبراً وجسراً تمر من خلاله، وبالتالي فإن كل ما وهبه الله للإنسان من قدرات وطاقات تعتبر أمانة معارة، من سمع وبصر وعقل وقدرة على التفكير والتخيل والإبداع.. الخ.. فإذا عرفنا حقيقة هذه الأمانة، وكيف نحافظ

عليها، ونستفيد من هبة الحياة، في بناء وتنمية وتطور النفس وتهيئتها للعالم الآخر، فقد حققنا مفهوم الأمانة.. أما إذا تجاهلنا مبدأ الروح، وتطور نفوسنا، فقد خنّا الأمانة، لأن أمانة الروح ليست كأمانة التركة أو البضاعة، بل هي أمانة الاستفادة والتطور والكمال والسمو، فالله وهبنا الأمانة وعلمنا كيفية الاستفادة منها، ووضع لنا المناهج المتكاملة التي لا تدع مجالاً للشك أو الريب، في عروج الإنسان بأمانته إلى الخالق تبارك وتعالى.

ولكن مسكين هذا الإنسان ما أعجله ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ وما أجهله ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ لقد وصف الله تبارك وتعالى الإنسان في آية الأمانة بصفتين (ظلوم - جهول)، أما الظلوم فهو الذي آمن بالروح وعلو شأنها، وأنها جاءت لفترة مؤقتة وسوف ترتحل إلى العالم الآخر، ولكنه يتجاهل هذه الحقيقة ولا يعبأ بها. يعيش يومه وما تمليه عليه نفسه، يعيش شهوته ولذته ولا يفكر بآخرته وحياته الأزلية الخالدة، حتى بات يكره ذكر الموت، ويتشاءم من المرض، ويرفض الحديث عن الروحانيات، لذلك يصفه الله بالظالم لنفسه ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ لأنه حجب نفسه ومنعها من التمتع بفيوضات النور التي تبثها الروح، حتى إذا أدركه الموت ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

وانظر إلى بشاعة ظلم الإنسان لنفسه، فهو حتى عند سكرات الموت، وخروج نفسه، ومطالبته بإرجاعه إلى دار الدنيا، لا يقول سوف أعمل، بل يقول لعلي أعمل صالحاً، أي قد أعمل وقد لا أعمل.

الطائفة الأولى وصفهم الله بالظلمة لأنهم لا يعبئون بالأمانة، ويتعدون الحدود وهم يعرفونها، أما الطائفة الثانية فهم الجهلة الذين يتعدون الحدود وهم لا يعلمونها، وهم الذين

أمرهم الله في آيات عديدة بالتفكر، والتدبر والنظر في ملكوت السموات والأرض، وتفحص معالم النفس، فالجهل لا يبرر انحراف الإنسان، لأن الله دعاه إلى التعلم والتفكر والتبصر بهدى العقل والفطرة.

2- تيقن أنك روح

بعيداً عن الإثباتات والبراهين القرآنية والنقلية والفلسفية التي تبين أن جوهر الإنسان ليس في شكله الظاهري وإنما في روحه وذاته، فعملياً لو راقب الإنسان نفسه حين يكون منشغل الفكر، أو يكون في تأمل عميق، قد هدأت وسكنت جوارحه وأعضاؤه، متوجه الهمة نحو أمر معين مخصوص، فإنه في تلك الحالة يكون غافلاً عن جميع أجزاء بدنه وعن أعضائه وأبعاضه، فلا يشعر بجسده وكيانه وهيكله المادي. فلو كان هو ذات البدن لأحس بما يدور حوله ولو كان شيئاً واحداً لما انفصل وغفل عن جسده، عندما يكون مشتغل الفكر، متوجه الهمة لأمر معين، وهذا من الأمور التي طالما نمر بها في حياتنا الواقعية.

إضافة إلى ذلك أن المواظبة على الأفكار الدقيقة، سواء كانت الروحية منها أو الفلسفية أو العرفانية أو الرياضية أو الإلهامية، والاشتغال بالبحث فيها، لها أثر في النفس وأثر في البدن، أما أثرها في النفس فهو تأثيرها في إخراج النفس ـ من القوة إلى الفعل في الإدراكات ـ وكلما كانت الأفكار أكثر رقياً ونضجاً كان حصول هذه الأحوال أكمل، وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها وجلالها. أما أثرها في البدن فالعكس لأنها تؤدي إلى الإرهاق والتعب والضعف والذبول، فالأفكار توجب حياة النفس وشرفها، وتوجب نقصان البدن وضعفه، ولو كان الإنسان شيئاً واحداً وهو البدن، لصار الشيء الواحد سبباً لكماله أو نقصانه معاً.

فأصحاب المجاهدات الروحانية كلما أمعنوا في تقنين وتحديد حاجات البدن كلما قويت قواهم الروحية، وأشرقت أسرارهم بالمعارف الإلهية، وكلما أمعن الإنسان في الأكل والشرب وقضاء شهواته الجسدية بقي محروماً من المعرفة الروحية والعقلية، وهذا ما أثبتته التجارب العملية والعلمية. فالعلاقة عكسية بين بناء الجسد وبناء الروح، كما أشارت إلى ذلك العديد من الأحاديث الشريفة "لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء"، "لا يدخل ملكوت السموات والأرض من ملأ بطنه"، "من اقتصد في أكله كثرت صحته وصلحت فكرته".

لذا عليك أن تعلم أنك ليس مجرد جسد مادي.. وهذا ينبغي أن ينبهك إلى ضرورة الاهتمام بالأصل وبالبعد الذي يحتاج إلى رعاية أكثر بكثير من البعد المادي.

3- من أنت بعد الموت

يخشى البعض من فقدان هويته بعد الموت، ويتساءل: من سيكون بعد الموت، وبأي شكل سيكون عليه؟

لن تتغير صورة الإنسان بعد الموت، فالجسم البرزخي يتمثل بصورة مطابقة للهيكل المادي المنظور، إلا أنه يختلف من حيث التركيب والشفافية والكثافة. وهو مركبتك في عالم البرزخ كما أن جسمك المادي هو مركبتك في عالم الدنيا، وهو جسمك الباقي بعد موت الجسد المادي، وبهذا الجسم تدخل مرحلة جديدة في عالم البرزخ، وسيعرفك أقاربك وأجدادك ومحبيك من هذا الجسم لأنه يعكس صورتك المادية.

ويشير العلامة الطبطبائي في ميزانه: "إن الإنسان بشخصه ليس بالبدن، ولا يموت بموت البدن، ولا يفنى بفنائه، وانحلال تركيبه وتبدد أجزائه، وإنه يبقى بعد فناء البدن..".

لذلك لا تعتقد أنك ستكون شخصاً آخر بعد الموت، فالجسم المثالي يتداخل الآن مع جسمك المادي، وبمقدورك الشعور به، كما أنه وسيلة خروج النفس أثناء الحلم وتحليقها في مستويات الأثير.

ما يهمنا في هذه الفكرة، أن الجسم المثالي يتأثر بشكل كبير بالحالة النفسية ويصطبغ بالرغبات الجسدية. فحين يتوجه الإنسان للأمور المادية فمن شأن هذا التوجه أن يؤثر عليه فيصبح أكثر ثقلاً وكثافة وارتباطاً بالجسد المادي، لذلك يسبب معاناة للمحتضر حين انفصاله عنه، وهو ما يعرف بسكرات الموت، فانفصال الجسم البرزخي عن الجسد الأرضي يعني أن تتخلى كل خلية في الجسد عن الخلية المشابهة لها من الجسم المثالي، وعلى هذا يكون الموت تدريجياً من الخلية إلى النسيج إلى العضو إلى المجموعة إلى الجسم كله، وكلما كان الإنسان منغمساً في الماديات كلما تعلق الجسم المثالي بالأرضي أكثر. حتى أنه في الأحلام نادراً ما يحلق في المستويات العليا ونجده يحوم في المستويات السفلى. في حين لا يعاني الروحاني من هذا الانفصال لأنه بالكاد يكون مرتبطاً بالجسد.

وبالتالي فما يعتبره البعض عذاب من الله للميت هو في الواقع نتيجة ارتباط مادي بين الجسمين، فالإنسان غير المتماهي والمنغمس في الماديات ينفصل الجسم وينسل كما تُسل الشعرة من العجين أي لا يتأثر بها. وهنا لا فرق بين المؤمن وغيره، فمن المؤمنين من يكون لهم توجهاً مادياً عملياً وفكرياً.

لذلك ليكن وعينا روحانياً ناضجاً لنتخلص من عبء الانفصال.

4- ادفع الخوف بالمعرفة واليقين

إذا كنت تعلم حقيقة وسيناريو ما سيجري عليك ما بعد الموت فسوف تكون بمأمن من حالة الخوف والهلع حين يصبح جسمك الأثيري حر الحركة بعد خروجه. فاللحظة الفارقة حين يجد الإنسان نفسه منفصلاً عن جسده، فينتابه شعور بالخوف والدهشة والهلع وعدم تصديق ما يراه من هذه الازدواجية. للوهلة الأولى لن يصدق أنها حالة وفاة وموت، وهذه الدهشة هي التي تسبب المتاعب للجسم البرزخي فيما بعد، إذ هي نوع من الجهل الذي يقيد صاحبه ويعوقه عن التقدم. وبالعكس إذا كانت لديه فكرة مسبقة عن ما يحدث، فسوف يخلق طمأنينة وهدوء وقبول للحالة التي يكون فيها.

ومن هنا تأتي فائدة التعليم الروحي والديني الذي يوجه الإنسان لمعرفة وتفحص هذا السيناريو.

إن النفوس غير الواعية التي لم تستعد لمعرفة ما سيحدث بعد الموت ستجد صعوبات ومتاعب في عالم البرزخ، إضافة إلى الروابط المادية التي تعقدها مع الأشياء والممتلكات والأشخاص والتي عادة ما تؤخر مسيرة النفوس فترات طويلة، بينما النفوس الواعية المدركة فسوف تلقى ترحيباً منذ بداية ارتحالها لأن درجة اهتزازها تهيئ لها مستوى رفيعاً من مستويات الأثير فيخف لاستقبالها أناس وملائكة مرتفعو الدرجة، كما جاء في القرآن وصف لمثل هذه الروح: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فالتعليم والمعرفة والإيمان والخبرة الدنيوية لها تأثير على وضع الروح في المرتبة المناسبة لها في عالم البرزخ.

إن التفكير في الموت واحتمالاته يقوي عزيمة الروح على احتماله وملاقاته، كما جاء في وصية أمير المؤمنين (ع) لابنه

الحسن (ع): "يا بني أكثر من ذكر الموت حتى لا يأتيك بغتة فيبهرك".

وإذا كان الموت الطبيعي الذي ذكرناه يعد تجربة قاسية للنفس في أول الأمر، فإن الموت المفاجئ يكون أكثر إيلاماً لها، فلا وقت حينها للندم والتوبة والرجوع، إذ أن دار الغرس قد انتهت.. ووجدت النفس نفسها معدمة في دار الحصاد ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾، أما النفوس الطيبة فإن الموت المفاجئ يكون مريحاً لها إذ أنه يكون بالنسبة لها أشبه بالحلم اللذيذ، وسرعان ما تساعدها خبرتها السابقة وإيمانها بالحياة الأخرى على الاندماج في الوسط الجديد بكل سهولة، وهذا ما عناه الحديث الشريف: "موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر".

5- تأمل في جمال العالم الآخر

إننا نموت كل ليلة موتاً جزئياً، فنترك أنفسنا تسبح في عالم الأثير فلا نشعر كثيراً بخروجها أو بدخولها في هذه الأقفاص الأرضية الثقيلة. وكلما كانت رحلتنا ممتعة وشيقة في عالم الأحلام كلما كانت حبالها مفككة، تركناها تهيم كما تشاء في الفضاء، وبالعكس نشعر بضيق حينما يأتي أحد ليوقظنا من هذا السبات، فالنفس إذن تفضل البقاء بعيداً عن هذا الجسم الأرضي الثقيل، فلا بد إذن أن تجد عالماً أوسع وأبهج هو أقرب لطبيعتها ويساعدها على الاستمتاع بالحياة أكثر من العالم الأرضي المحاط بكل أنواع القيود والسدود.

ينبغي أن يتشوق المؤمن الواعي إلى ذلك العالم الجميل لا أن يحزن ويكتئب ويُخيل إليه أنه سيلاقي أهوالاً وصعاباً وعثرات،

فما نفكر به قد يتجلى في ذلك العالم، وتتحول أفكارنا إلى حقائق قد تنغص مسيرتنا اللاحقة.

وقد أشرنا إلى هذا بإسهاب في كتاب "مسيرة الأرواح". فالنفوس الطيبة الواعية بمجرد أن تلامس ذلك العالم أو تراه تنجذب إليه ولا ترغب في البقاء في هذا البعد الأرضي. وكثيراً ما رأينا أشخاصاً عند الموت يبتسمون دون معرفة السبب الظاهري. ولكن الحقيقة أن أرواحهم تكون قد اطلعت على شيء من ذلك العالم الجميل حيث الطمأنينة والهدوء، من فرط بهجتها تشرك معها الجسم الأرضي في ذلك فيبتسم أو تظهر عليه علامات الانشراح.

ما نود أن نشير إليه أن كثيراً من المؤمنين تبرمجوا بأفكار ومعتقدات غير حقيقية عن العالم الآخر وما سوف يواجهونه ويلاقونه هناك. يحملون أفكاراً مرعبة وبشعة وقاسية تكتنفها أصناف العذاب بشتى صورها وفنونها.. ومشكلة هذه الأفكار أنها تسبب خللا في مفهوم الرحمة الإلهية والثقة بوعد الله من جانب، ومن جانب آخر أن هذه الأفكار سترتحل معنا، فنعيش في حالة من الترقب والهلع متى سيحين تنفيذها وتطبيقها.

فالنفوس تخرج من الدنيا بحصيلة ما تحمله من أفكار ومعتقدات وأعمال وحتى النيات "أفكارها التي في طور التحقق"، فكل هذه الأمور تتجلى في المحيط الروحي الذي بمقدوره رؤيتها عياناً. وبالتالي فالكلمة، الفعل، والنية، والسلوك، والإدراك، والفكر يتجلى أمامك بكل وضوح ويتحول إلى مواد ويتجسد في أشكال..

فإذا كانت أعمالك صالحة تحولت إلى أشكال زاهية نورانية ممتعة، أما إذا كانت أعمالك خبيثة منحطة فتتحول إلى أشكال بشعة مخيفة مملة. وكلا العملين الصالح والطالح يكون قرينك

في عالم البرزخ حيث تنسى فيه النفس مشاغلها الأرضية الحقيرة وتأخذ في التفكير فيما هو أرقى، إلا إذا كانت منحطة فلا يرجى لها ارتقاء سريع بل تظل منجذبة لماضيها الأرضي متعلقة بالمادة راغبة في المال والملبس والطعام والشراب.

لذا يجب أن نستبدل أفكارنا السلبية بأفكار إيجابية جميلة توحي للنفس بالصفاء والهداية والتأمل في الكون والخالق وحب الآخرين.. ونمارس فن العطاء والتضحية ومساعدة الآخرين. فكما أن السلوك والفكر النير الراقي يتحول إلى نعيم وشعور باللذة.. فكذلك الأفكار الخبيثة الدنيئة تتحول إلى نار ﴿فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ..﴾.

فأفكار العبودية والصنمية (الحجارة) والأفكار الشريرة التي نستلهمها من الآخرين (الناس) تتحول إلى عثرات في مسيرتنا الروحية التكاملية.

وأخيراً.. ينبغي أن نحدد رؤيتنا تجاه الموت، فالناس ينقسمون إلى أربعة أنواع في هذا الموضوع:

النوع الأول: المنغمسون في الأبعاد المادية الدنيوية المكبلون بأواصر الظواهر المغلولة قلوبهم بقيود الأنا والتمتع بالحياة، هذا النوع يكون غافلاً عن ذكر الموت، بل إن ذكره أمامهم يسبب لهم نفوراً واشمئزازاً وقد يلعنون الزمان الذي يقتص من أعمارهم ويضعف بنيتهم ويحيل قوتهم ضعف وشيبة.

النوع الثاني: هم المؤمنون والمذنبون العصاة الذي تابوا ورجعوا للإيمان، وهم يكثرون من ذكر الموت بكل متعلقاته المأساوية من أحداث وعذابات وتجرع للغصص، يذكرون أنفسهم بألم الموت ليكون رادعاً لهم لما قد تسول لهم أنفسهم فعله من محرمات. يتفنن في خيال الألم ويتلذذ بذكر الروايات التي تشدد على العذاب الأخروي.

النوع الثالث: هم المحبون الوالهون الذي يذكرون الموت دائماً لأنه يمثل لقائهم مع محبوبهم، ينتظرون انتقالهم للعالم الآخر بفارغ الصبر ليخلصهم من كدر الدنيا ووهم الحياة ودار المعاصي.

النوع الرابع: هم الواعون المدركون لطبيعة الحياة، الذين فوضوا أمرهم لله وسلموه قيادة حياتهم، فليس لهم اختيار، فلا يشتاقون للموت ولا للحياة، إن عاشوا فيغتنمون حياتهم ويرحبون بها، وإن ماتوا يستبشرون بما سيخوضونه من تجربة أخرى. فالحياة والموت وجهان لعملة واحدة في نظرهم، لا يمكن فهم إحداهما دون الأخرى، فهما مكملان لبعضهما البعض وليسا متعارضين. فالحياة مقدر عليها بالموت كأمر طبيعي حتمي الوقوع، وبالتالي فالموت لا يقطع الحياة إنما يكمل مسيرتها، فحين نعكر صفوة حياتنا بخشيتنا من الموت سنعكر الموت بانشغالنا بالحياة. لذلك قيل: أننا حين نتساءل عن معنى الموت فنحن في الحقيقة نتساءل عن معنى الحياة ومصير الوجود البشري. وهل تمثل حياتنا مجرد "نور" لا يكاد يضيء حتى ينطفئ، أو مجرد لحن ما يكاد يشجينا حتى ينقطع".

حين يكون الموت آخر ظاهرة يشهدها الإنسان.. تكتنز مشواره البدئي إلى نهايته، وتعصر خلاصة وجوده وخبراته وتجاربه الإنسانية كلوح نقش عليه سيناريو معاناته وآلامه وأفراحه وأتراحه، عندها ندرك أن الموت يكشف لنا عن حقيقتنا وماهيتنا، هذه الحقيقة التي ليس بمقدورنا استيعابها إلا من خلال إدراكنا أننا مخلوقات مؤقتة فانية في عالم متحول غير ثابت، وبالتالي فإن وجود خاتمة ونهاية لأعمالنا تعني أن هناك فترة زمنية ممنوحة لنا بمقدورنا أن نجني من خلالها ثماراً نوسم فيها صحائفنا في النهاية، وهذا لا يحدث فيما لو كنا خالدين لا نموت.. فالموت لا يتعلق بالعالم الآخر فحسب إنما يمد أذرعه في

الحياة، يغترف منها جوهر ما بذرناه، ورحيق ما عملناه، فهو قنطرة بين عالمين.

ولكن مشكلة الإنسان أنه كلما ازداد تملكه في الحياة وثراءه وسلطته وسطوته كلما تشبث بها أكثر وانزعج من ذكر الموت، فخوفه وجزعه من الموت ليس لأنه يرتحل لعالم لا يعلم عنه شيئاً فحسب وإنما لتركه كل إنجازاته وممتلكاته وثرائه وما قام بتشييده طوال عمره في هذه الحياة. وبالتالي فهو يفضل البقاء مع ما يلاقيه من ألم ومعاناة على ترك ما جناه وعَمره في حياته. وهذا التناقض الباطني الذي يشعر به، بين معرفته أنه سيموت لا محالة - في قرارة نفسه - وبين تجاهله وعدم الاكتراث به من حيث الظاهر، يجعله ينظر إلى موت الآخرين كأمر بعيد المنال عنه، وكأمر لا يعنيه ولا يخصه، فنراه ينهمك في تقوية شخصيته أو في زيادة ثروته التي تشغله عن التفكير في الموت.

كلما أزداد الإنسان وعياً وعمقاً وتألقاً روحياً كلما نظر للموت كمرحلة من مراحل "حياة الروح" مرحلة لابد منها طالما نحن في لباسنا المادي، وبهذا يتقبل الإنسان حياته وموته وتتجلى لديه القيمة الكبرى للحظات الأخيرة، ويصبح أكثر استعداداً لخوض غمار جميع الأبعاد والمستويات الروحية الأخرى.

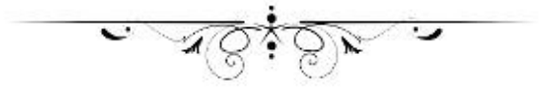

الفهـــــــرس

- ☐ الإهـــداء 5
- ☐ المقدمة 5
- ☐ كلمة في.. التأمل 11
  - ▪ تذوق التأمل 14
  - ▪ العقل في التأمل 19
- ☐ التملك.. وتهوين الألم 25
- ☐ حاجة أم رغبة 39
- ☐ نافذة وعي على العالم الآخر 47
  - ▪ نوافذ الحواس الباطنية 53
- ☐ المشاعر بين حالتي مد وجزر 59
- ☐ أصمت.. لتنصت.. لترى 77
- ☐ الصمت.. والإلهام 85
- ☐ الفلاح.. إبداع وحصاد 99
- ☐ تجاوز.. لتدرك ما خلف الحجاب 103
- ☐ حماية المحب بالحب 109
- ☐ عدالـــة الألم 115
  - ▪ كآبة ألم.. أم بهجة الحياة 118

- ☐ فن المحبة في الحياة 121
  - طائف شيطان 124
- ☐ النوم.. رحلة روحية قصيرة 127
- ☐ دعوة عوالم السماء 133
- ☐ لماذا تلاحقنا الابتلاءات والمحن؟ 137
  - أولاً: أمور تحدث كضرورة لحياتنا الأرضية 140
  - ثانياً: أمور تحدث نتيجة قرارات خاطئة 144
  - ثالثاً: أمور تحدث نتيجة الحوبة 145
  - رابعاً: أمور تحدث نتيجة الوعي الجمعي 148
  - خامساً: أمور تحدث لنرجع إلى ذواتنا 151
  - سادساً: أمور تحدث لأنها من اختيارنا 154
  - سابعاً: ابتلاءات تحدث للرفعة والعبرة 159
  - المؤمن والبلاء 162
- ☐ شوق يختلج في الصدور 165
- ☐ أرح نفسك سنة كونية 171
  - أرخ الحبل قليلاً 173
- ☐ أعظم سر في الحياة.. 178
- ☐ اقرأ ثم اقرأ 187
  - اقرأ ولا تكن حبيس الكلمة 193
- ☐ السر في قانون الجذب 199

- حقيقة القانون 200
- الجذب والبعد الروحي 201
- الجذب والسلام 203
- مأزق تفخيم الأنا 204
- الوعي العميق والتفكير الإيجابي 205
- التعلق بالكون أو المكون 207
- الطلب أم عدم الاحتياج 208
- لنفهم القانون جيدا 210

☐ التأمل يقظة حياة 212

☐ حكاية العشق..! 221

☐ البصيرة واللوحة الكاملة 229

☐ الله يريدك أنت 238

- لا تنس نفسك 245
- قاعدة 70 - 30 250
- فائدة هذه القاعدة 253

☐ الموت انتقال إلى العالم الآخر 255

- نسيانه والخوف منه 261
- ولادة جديدة 265
- لزوم الانتقال الواعي 267
- افهم حياتك 274

- تيقن أنك روح 278
- من أنت بعد الموت 279
- ادفع الخوف بالمعرفة واليقين 281
- تأمل في جمال العالم الآخر 282

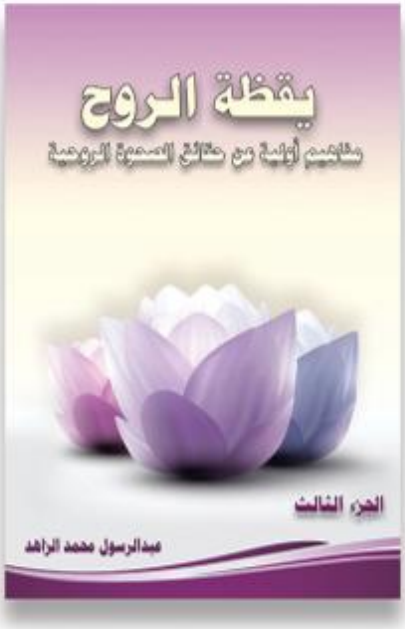

التأمل الحقيقي يعرج بنا لمصاف الملهمين الذين يستنشقون عبق العالم الآخر ليؤدوا دورهم في عالم الدنيا.. فقدم هنا وقدم هناك.. بينما التأمل المتداول تنكفئ أقدامه للباطن حتى لا يكاد يخطو خطوة للخارج..

لذا ينبغي أن يكون التأمل وسيطا يربطنا بمنبع الفيض الإلهي.. الفيض الذي يجلي أرواحنا، ويصقل قلوبنا، ويوسع مدارك وعينا، ويهدينا سبل الرشاد ويوجه دفة سفينة حياتنا للسداد فالتأمل العقيم من أبعاده الروحية ينكمش على ذاته، ويكون كطاحونة الرحى تدور حول نفسها، بينما في التأمل الحقيقي يدور المتأمل مع دوران الكون بيد القدرة الإلهية فينطلق من ذاته لموطن الروح الأزلية..

لم يخلقنا الله لإدارة شئون حياتنا المادية فحسب، إنما نحن مسئولون عن عالمين في الوقت ذاته، العالم الروحي المنغمسين فيه (والذي تم تجاهله منذ أمد بعيد) والعالم المادي المعيشي (الذي انكببنا عليه منذ هبوط آدم الأول) نأخذ من هذا لذاك، ونرتقي من خلال ذاك لهذا.. واليقظة الحقيقية حين ندرك سر العالمين في آن واحد..